أنور الجندي

نوابغ الفكر الإسلامي

الناشر
دار الرائد العربي
بيروت - لبنان

أنور الجندي

نوابغ الفكر الإسلامي

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص.ب ٦٥٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

(مدخل)

ما زال تاريخ الاسلام الخصب الغني قادراً على العطاء للمسلمين والعرب في كل ميدان وفن ، تجربة وتذكرة وعبرة ، وضوءاً كاشفاً على احداث العصر ووقائع الحاضر ، ومطالع المستقبل . وما تزال صور « البطولة » فيه أبرز الصور وأبهرها ، وأكثرها أسراً للنفس المسلمة العربية وفي مجال (الفكر) لها طابعها ، كما في مجال [1] القيادة من حرب وحكم وبناء أمم) بطولة أخرى لها طابعها وروحها ، ونحن في مجال الفكر ، نجد ذلك الايمان العميق بالله قائماً الى جانب تعمق مفاهيم العلم وأدواته ، لا ينفصلان ، ونجد العلم نفسه قائماً على الاخلاق ، كل نماذج النوابغ

---

(١) هذا كتابنا عن بطولة الفكر ولنا كتاب آخر عن بطولة بناء الامم والحروب تحت عنوان (البطولة الاسلامية).

والاعلام في مجال الفكر الاسلامي تعطي هذه الدلالة وهـــذا الاتجاه . ايمان صادق بالله ويقين بان العلم كله والعمل كله موجه اليه خالصاً ، لا يلتمس به مطمع ولا جزاء ولا شهرة ، وانمـــا يراد به خدمة الانسانية والمجتمع والناس ، ثم ان هذا (العـلم) ليس علماً دينياً خالصاً ، ولكنه علم في مختلف مجالاته ، مستمد من القرآن ، متصل به ، فالقرآن هو الذي أعطى علماء المسلمين ذلك الضوء الكاشف الذي هداهم الى النظر في الطبيعة والبحث في الارض (قل انظروا ماذا في السموات والارض) وهو الذي مضى بهـم حتى أنشأوا (المنهج العلمي التجريبي) الذي كشف آفاق المجهول، فقدموا من خلاله إضافات جديدة تقدمت بهـــا الانسانية حين نمتها باسم الحضارة الحديثـــة . ويوم أنزل الله سبحانه ختام آي القرآن الكريم « اليوم أكملت لكم دينكم » كانت أصول الاسلام قد تمت ، فلم يجر إضافة شيء اليهـــا من بعد ، ومنهـــا نبع الفكر الاسلامي في مختلف مجالاته العلمية والفقهية ، وفي جوانبه المنوعة في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية ، وقد جرى المسلمون في هـذا المجال بدافع من مفاهيم الاسلام وقيمه الاساسية ، جرى المسلمون شوطاً قبل ان يلتقوا بالفكر اليوناني الذي اتصل بهم حـين ترجموا آثاره ، فأفادوا منه ، والتمسوا منه أسلوباً من أساليب النظر ، ولكنهم سرعان ما تجاوزوه ، الى أصولهم الأصيـلة ، دون أن يحطمهم الفكر اليوناني أو يدخلهم في بوتقته ، أو يصهرهم فيها، كما فعل بالفكرين اليهودي والمسيحي حين اتصل بهما .

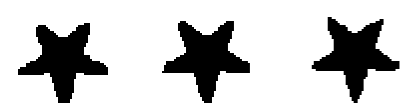
وحين نستعرض أعمال مفكري الاسلام ، سواء بناة هـذا الفكر من أمثال مالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبـــل والبخاري ، أم من مجدديه ومصححي مفاهيمه : أمثال الغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن خلدون ، أو من أولئـــك الرواد البارعين الذين قدموا فنوناً جديدة: من أمثال البيروني والماوردي وابن الهيثم والخليل بن احمد ، وغيرهم على مدى تاريخ الاسلام ، نجد خطاً واحداً يربط هؤلاء جميعاً ، ونجد روحاً واحدة في العمل والفهم ، وتماثلاً في السلوك والخلق ، يصدر عن استمداد واضح من القرآن ، ومن المثل الأعلى الانساني : « محمد صلى الله عليه وسلم » .

فالاسلام هو المصدر الاول للفكر الاسلامي ، والقرآن هو المنبع الاصيل الذي خرجت منه نظريتا : (المعرفة الاسلامية) و (المنهج العلمي التجريبي) والذي استمد منـه (ابن الهيثم) نظريـــة الضوء ، و(ابن خلدون) مفاهيمه عن بناء المجتمعات ونموها وسقوطها ، وهو الذي هدى (الخليل بن احمد) الى قوانين اللغة والموسيقى والشعر .

وانت لا تستطيع بسبيل أن تدرس واحداً من أعلام الفكر الاسلامي ونوابغه منفصلاً عن بناء هذا الفكر وحركة نمـــوه ومكانه بين من سبقوه ومن جاؤوا بعده ، ومهما كانت (اضافة) هذا العالم بالغة ما بلغت من الاهمية فانها تمثل حلقة في خيـــط طويل ، وتمثل التماساً أصيلاً لمفهوم الاسلام، وتصحيحاً لانحراف

وقع فيه مسير هذا الخط الطويل .

ومن خلال النظر المتعمق الى حياة كل عالم أو نابغ من علماء الفكر الاسلامي ونوابغه ، تجد ذلك الخلق الكريم ، متمثلاً في التواضع البعيد المدى ، والتحقيق الصادق، وذكر فضل السابقين ، حتى ولو كانوا من غير المسلمين ، فاذا تعارضت الآراء ، جرى عرض ذلك في سماحة وحياء واغضاء ، من أجل الحق وحده ، وليس من أجل التفاخر والظهور ، وقد عرف هؤلاء العلماء تمحيص مادة البحث واعطاء الحق قدرة ، وكراهية التعصب الى أبعد مدى ، وبذل الجهد للتحرر من المؤثرات ، والاحتياط أمام النصوص القديمة ، وتجدهم جميعاً يمارسون العلم خالصاً لوجه الله لا للتقرب الى الملوك والامراء، ولا لكسب الجاه عند الناس ، حتى ان كثيراً منهم رفض الجائزة حين حملت اليه ، فزهد (البيروني) في حمل فيل من النقد الفضي ، وزهد (الخليل بن احمد) في الدنيا واخلص العلم لله ، حتى انه أقام في خص من أخصاص البصرة ، لا يقدر على فلسين ، وتلاميذه يكسبون بعلمه الاموال، وكان يقول «اني لاغلق علي بابي فما يجاوزه همي)» ، وهم يحفظون الود فلا ينسونه ، وهذا ابن حزم يقول : ما نسيت وداً لي قط ، ويرد كل مزايا الانسان من علم او ذكاء الى الله . ويرسم المثل الاعلى للاجيال فيقول : لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل وفي دعاء الى حق .

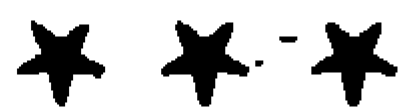


اما في مجال العلم فان أحدهم لا يقول إنه وصل الى الحقيقة، ولكنه ساع في طريقها ، فلا ينسب الى نفسه فضلاً، وان أحدهم ليحتمل في سبيل الحق كل تعذيب واضطهاد، وقد يطول به ذلك سنوات فقد احتمل (احمد بن حنبل) في سبيل كلمة شقاء سنوات طويلة، وترى منهم من يقول الحق لا يخاف إلا الله. ولا يخشى نقد الناس ، فاذا اهتدى الى الحق ، أعلن ذلك وعاد اليه ، ومن مثل هذه المواقف ، موقف (أبي الحسن الاشعري) حين خرج من مفاهيم اربعين عاماً وعاد الى الحق الذي هدي اليه ووقف في المسجد الجامع بين الناس يقول : كنت اقول كذا ، وأنا تائب مقلع ، قد انخلعت عن جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا ، وكان أغلب هؤلاء العلماء لا يكسبون بعلمهم ، وقد كان ابن حنبل يأكل من ضيعة له ، والاشعري يأكل من غلة أرض وقفها جده على عقبه . وآية التلاقي في الخلق والفهم بين هؤلاء العلماء : جمعهم بين الدين والعلم في مجال البحث ، ومنح المنهج العلمي طابع الخلق ، وفي هذا يقول ابن الهيثم :

(ليس ينال في الدنيا أجود ولا أشد قرابة الى الله من إيثار الحق وطلب العدل)وهم الى ذلك لا يؤمنون بالتقليد ولكن يؤمنون بالنظرة المتجددة التي تضيف شيئاً، وتقدم للناس ما يدفعهم الى الامام ، وفق قاعدة (الاجتهاد) التي عرفها الفكر الاسلامي وحققها على خير وجه . يقول الامام ابو حنيفة : إذا قلت قولاً و كتاب

الله يخالف قولي ، اترك قولي لكتاب الله ، قيل فاذا كان خبر رسول الله يخالف قولك ، قال : اترك قولي لخبر رسول الله ، قيل فاذا كان قول الصحابي يخالف قولك : قال : اترك قولي لقول الصحابي ، قيل فاذا كان قول التابعي يخالف قولك: قال: اذا كان التابعي رجلاً فانا رجل .

ويقول ابن حزم : (ما مذهبي ان انضي مطية سواي ، ولا التحلي بحلي مستعار) اما التقوى فقد كانت واضحة صريحة ، كان أحدهم إذا تعقدت أمامه المسائل ، ذهب الى المساجد القديمة فصلى بها وأطال الصلاة ، وسأل الله أن يفتح له ، وكان ابو حنيفة اذا طال بحثه عن امر ، استغفر الله وهرع الى الصلاة حتى يتفتح له باب البحث ويهدى الى الحق ، وكان البخاري يقول : ما وضعت في الصحيح حديثاً ، الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين .



ذلك مفهوم العلم في حياة علماء الاسلام ، وتلك صورة من أخلاقهم وشمائلهم تراها مبسوطة في هذا البحث ، بدقائقها وملامحها ، وهم الى ذلك قدموا الكثير في مجال البحث العلمي ، وأضافوا وحرروا الفكر الاسلامي من نفوذ الهلينية والفلسفات الوثنية القديمة ، وسبقوا علماء العصر الحديث في مختلف المجالات .

سبق (الغزالي) ديكارت بنحو ستة قرون في قوله : إن الشكوك هي الموصلة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال. وسبق (الغزالي) هربرت سبنسر في تصوير الدولة او المدينة بجسم الانسان والماوردي أول من قال بفكرة التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع والموازنة بين حقوق الافراد وحقوق الجماعة من غير تضحية أحدهما لحساب الآخر ، كما تحدث الماوردي عن الحافز الفردي .

أما البيروني فان أعظم إضافاته نظريته عن (كنز الاموال) وهي أم الاقتصاد الحديث .

وصحح ابن الهيثم أخطاء بطليموس في نظريته عن السقوط والانكسار ، وهو أول من كتب عن اقسام العين وأول من رسمها بوضوح ، أما الخليل بن احمد فقد حصر الانغام ومقاديرها وأنواعها وحصر ألفاظ اللغة العربية .

واستطاع ابن حزم والغزالي وضع « مفهوم المعرفة الاسلامي) جامعاً بين العقل والقلب ، قائماً على العدل متحرراً من الهوى مع الانصاف بين الآراء .

كما استطاع ابن الهيثم والبيروني وغيرهما وضع مفهوم (المنهج العلمي التجريبي) بوصفه منهجاً تجريبياً عربياً إسلامياً مستمداً من القرآن متحرراً من المنهج اليوناني الأرسطي النظري .

واستطاع البيروني وابن تيمية والغزالي تحرير مفهوم المعرفة

الاسلامي من آصار المذهب اليوناني وقد فك ابن تيمية قيود هذا المذهب عن الذهن الاسلامي .

وقد أخذ الفكر الاوربي مفاهيم الفكر الاسلامي ، ليس في العلم وحده ولكنه أيضاً في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية ، وأنكر فضل المسلمين فيها ، بل انه ذهب إلى أبعد من ذلك حين حاول اتهام أمثال ابن خلدون بأنه تجاوز مفهوم الاسلام في آرائه وأفكاره ، والحق ان كل ما وصل اليه ابن خلدون إنما استمده من القرآن ، والاسلام .

وإذا كان ابن سينا قد ذاع صيته لانه جرى مجرى الفكر اليوناني وانه احتفظ بمفهوم الاسلام في التوحيد ، فان عالماً آخر لم يحظ بمثل هذه الشهرة هو (البيروني) معاصر ابن سينا وأكثر منه فضلاً في العلم والبحث ، هو الذي حرر منهج المعرفة الاسلامي في العلم بما كشف عن ذاتية المذهب التجريبي الاسلامي ، بعد أن حرره من مفاهيم اليونان ، فاذا عرضنا لابن القيم رأينا هذا العالم الاسلامي وقد سبق العصر الحديث في نظريات فقهية هامة منها نظرية احياء أعمال الفضولي المحسن ، هذه النظرية التي عرفها التشريع الغربي في العصر الحديث وكان يظن أنها من مبتكراته حتى كشف عن نصوصها لدى ابن القيم الذي سبق بها الفكر الغربي بخمسة قرون .

وله نظرياته الاخرى الكثيرة في القانون رائدة سابقة للفكر الاوربي .

وبعد فقد فصل كتابنا هذا حياة هؤلاء الاعلام وكشف عن جوهر بطولتهم العلمية ومدى مـا قدموه للانسانية وللفكر الاسلامي من إضافات حية إيجابية قوامها الخلق ، قدموا هذا العلم في إهاب الخلق والسماحة وانكار الذات ، وهي صور ما أشد حاجة أمتنا اليها فان في حياة هؤلاء الاعلام ضياء كاشفاً أمام أجيالنا الجديدة لتعلم أن آباءها كانوا بناة للحضارة والعلم وان ما يداولونه اليوم من فلسفات وعلوم إنما هو من نتاج الفكر الاسلامي أصلاً وان القرآن كان بالحق هو (مصدر المصادر) في مناهج العلوم التجريبية والاجتماعية جميعاً .

ربيع الاول ١٣٩٠ — مايو ١٩٧٠

أنور الجندي (القاهرة)

« مالك »

« مالك بن أنس الاصبحي »
(صاحب الموطأ)

(٩٣ – ١٧٩) هـ

« إنما أنا بشر أخطىء وأصيب ، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما خالف فاتركوه ، حق على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة ، ان هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه منه ، التواضع في التقى والدين لا في اللباس » .

مالك

« مالك »

مكان « الإمام مالك » في الفكر العربي الاسلامي هو مكان العالم الذي رسم منهجاً للتحقيق العلمي ، رسم به الطريق الى معرفة « النص » وراوي النص على نحو يكشف الزيف ويعطي الحيطة ويرفع « التحديث » الى مرتبة العلم القائم على أصول ودعائم .

ولقد رسمت كلماته هذا المنهج بأوفى ما ترسم كلمات صاحب منهج :

١ — ان هذا العلم دين فانظروا ممن تأخذون منه ، العلم نور لا يأنس إلا بقلب خاشع ، ليس العلم بكثرة الرواية ، طلب العلم حسن ، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح الى أن تمسي فالزمه ، فانه ذل وإهانة للعلم ، لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقه .

٢ — ان المراء والجدل يذهب بنور العلم في قلب العبد، وان الجدل يقسي القلب ويورث الضغن .

٣ ـ إذا عرض عليك أمر فاتئد ، وعاير على نظرك بنظر غيرك فان العيار يذهب عيب الرأي .

٤ ـ من روى عن ضعيف فقد بدأ بنفسه .

٥ ـ لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك : لا يؤخذ من سفيه معلن بالسفه ، وان كان أروى الناس ، ولا يؤخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس ، وان كان لا يتهم على الاحاديث النبوية ، ولا من صاحب هوى يدعو الى بدعته ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إن كان لا يعرف ما يحدث به ، ولقد أدركت بالمدينة أقواماً لو استسقي بهم القطر لسقوا ، وقد سمعوا من العلم والحديث شيئاً كثيراً ، وما أخذت عن واحد منهم ، لأن زهدا بلا معرفة ولا اتقان لا ينتفع به وليس هو بحجة ولا يحمل عنهم العلم .

٦ ـ انما أهلك الناس تأويل ما لا يعلمون [التأويل : اخراج النصوص عن ظاهرها].

٧ ـ حق على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة .

٨ ـ ان العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لا ينتفع به الخاصة .

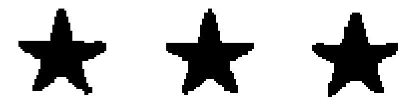
٩ ـ خير الامور ما كان ضاحياً بيناً ، وان كنت في أمرين أنت منهما في شك ، فخذ بالذي هو أوثق .

هذه الكلمات التسع ترسم منهج الإمام « مالك » في التحقيق العلمي ، وترسم أدق خطوط « المنهجية » في أي مجال من مجالات البحث العامة . سواء في التاريخ أو الفكر أو الأدب أو العلوم . فالعلم لا يؤخذ إلا ممن يعرف كيف يحدث به ، وان الزهد وهو طابع التجرد بلا معرفة لا خير فيه وليس هو بحجة ، والعلم عنده عام وليس للخاصة فاذا أجبر على أن يكون للخاصة لم ينتفع به ، و « الوضوح » أبرز صفات العلم ، والأمر الأوثق راجح على الأمر المشكوك فيه ، والنظرة الى الرواة ليست نظرة قداسة بل هي نظرة الى بشر ، في حياتهم وعلمهم وعملهم ، وليس العلم بكثرة الرواية ، والعالم من يحفظ العلم من أن يذل أو يهان فلا يتحدث به إلا عند من يطيقه . ومنهج النقد : النظرة العميقة ، لا النظرة العجلى ، مع مراجعة من له معالجة للموضوع ، فان الموازنة بين الآراء تذهب عيب الرأي ، والرواية عن ضعف تصم صاحبها بالضعف ، والجدل والمراء ليس من شأن العلماء ، ولا هو من منهج العلم ، إلا بأصوله وأسسه الموضوعية البعيدة عن الخلاف الشخصي ، والهوى الخاص . ثم إن أبرز ما يصل اليه (مالك) في منهج الجرح والتعديل هو ان لا يؤخذ العلم من أربعة : السفيه ، والكذاب ، وصاحب الهوى ، ومن لا يعرف قيمة النص وان كان له فضل وصلاح وعبادة .

وان كان « منهج البحث العلمي » في الفكر العربي الاسلامي

قد تطور من بَعْدُ وعمق ، واتسعت آفاقه[1] فان هـــذه النظرات من (مالك) في هذه المرحلة المتقدمة من تاريخ هــذا الفكر لتعطي صورة أصالته في أسسه الاولى ، مما يكون كافياً لدحض ما يحاول أن يقوله بعض دعاة التغريب من أن المنهــج العربي الاسلامي العلمي قد كونته الثقافات اليونانية والرومانية والهندية .

وقدعاش مالك (٩٣ – ١٧٩) هـ– وهي سنوات تسبق زمن الترجمة من التراث اليوناني .



ومن هنا كان « منهج» مالك في الحديث منهجاً علمياً أصيلاً، واضـــح الحدود والدلالات ، وكان مالك نفسه تطبيقاً سليماً أصيلاً لمنهجه الذي رسمه يقول :

[ربما وردت علي المسألة فامضي فيها عامة ليلتي ، بل ربما وردت علي المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم] ، بـــل يبلغ الى أبعد من ذلك من التحقيق العلمي حين يقول :

[إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة ، فما اتفق لي فيها رأي الى الآن] .

وهو يرى أن القول جزء من العمل ومن هنا فان ذلك جدير

---

(١) راجع كتاب : أضواء على الفكر العربي الاسلامي (للمؤلف)

بأن يحمله على ان يقتصد فيه [من علم ان قوله من عمله قـل كلامه ، وكثرة الكلام تمج العالم وتذله وتنقصه] .

وهو يرى أنه حق على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة ، وان من أدب العالم ألا يضحك إلا مبتسماً ، وأنـه ينبغي لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح .

وقد صور بعض تلاميذه موقفه من العلم : يقول : كان إذا جلس معنا كأنه واحد منا يتبسط معنا في الحديث ، وهو أشد تطامنا منا له ، فاذا أخذ في حديث رسول الله تهيبنا كلامه كأننا ما عرفناه ولا عرفنا وقد طبق منهجه على عمله .

يقول « ابن الحباب » : ان مالكاً روى مائة ألف حديث ، جمع منها في « الموطأ » عشرة آلاف ، ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة ويختبرها بالآثار حتى رجعت الى خمسمائـة ، وعنه قال مالك : ألفته في أربعـين سنة وأخذتموه في أربعين يوماً .

ولقد رفض أن يفرض علمه ، قال له المنصور : لم يبـق عالم غيرك وغيري ، أما أنا فقد اشتغلت بالسياسة ، وأما أنت فضع للناس كتاباً في السنة والفقه ، تجنب فيه رخص ابن عبـاس وتشديدات ابن عمر وشواذ ابن مسعود واقصد أواسط الأمور وما اجتمع عليه الصحابة ووطئه توطيئاً ، قـال فعلمني كيفية التأليف . غير أن مالكاً رفض أن يذعن له ، وعندمـا عاد في

الموسم التالي واجتمع به قال : إني عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعت – يعني الموطأ – فتنسخ نسخاً ، ثم أبعث الى كل مصر من أمصار المسلمين نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها الى غيرها .

ولكن « مالك » الذي رسم منهج البحث العلمي رفض هذا الاتجاه مفروضاً من الخليفة وان كان فيه تكريم له ولعلمه : فقال للمنصور : لا تفعل : فان الناس قد سبقت لهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله، وان ردهم عما اعتقدوا شديد ، فدع الناس وما هم عليه .

وتلك كلمات عالم يغلب عقله على عاطفته ، ويرى حق العلم وحريته أجل من فكره وعلمه .

بل انه لم يقف الامر عند هذا الحد ، فان هارون الرشيد حاول مع مالك محاولة مماثلة . قال مالك : شاورني هارون الرشيد في ثلاثة (أحدها) أن يعلق « الموطأ » في الكعبة ، ويحمل الناس على ما فيه ، واعترض مالك : فقال « ان تعليق الموطأ في الكعبة غير ممكن فان أصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع فافترقوا في البلدان وكل عند نفسه نصيب .

وهكذا رفض « مالك » فكرة فرض الرأي الواحد مؤمناً بسعة العلم وحريته وقال في ذلك : إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة ، كل يتبع ما صح عنده ، وكل على

هدى وكل يريد الله ، وعنده « ان اختلاف الاحكام والاقضية ضروري لتكون الاحكام متوافقة مع عرف كل اقليم ما دامت لم تخالف نصاً من كتاب ولاسنة .

ويكشف عن رأيه في العلم وعن مدى حرية عقله وموضوعية تفكيره :

سأل طالب مالكاً عن طلب العلم : افريضة هو ، فقال له نعم : ولكن يطلب ما ينتفع به ، وقد يبلغ مالك الى ابعد حدود الفهم والذوق حين يرى نجاح الانسان حيث يوجد اقتداره يقول : « ان الله قسم الاعمال كما قسم الارزاق ، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الجهاد ، ونشر العلم من أفضل الاعمال وقد رضيت ما فتح لي فيه » .

ومن هنا كان مفهومه للعالم ، وتطبيقه لهذا المفهوم . فهو يرى ان العلم : يحتاج الى رجل معه تقى وورع ، وصيانة واتفاق ، وعلم وفهم ، فيعلم ما يخرج من رأسه ، وما يصل اليه غداً ، فأما رجل بلا اتفاق وبلا معرفة فلا ينتفع به . ولا يؤخذ عنه . وعنده انه « لا خير فيمن يرى نفسه في حال لا يراه الناس لها أهلاً » ومن هنا فان كل من يتصدر للحديث والفتيا ليس له أن يجلس لذلك حتى يشاور أهل الصلاح والفضل ، فان رأوه أهلاً لذلك جلس ، وقال عن نفسه : « وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك » .

وهو لا يرى أن العالم يصلح للتصدر إلا بعد النضج الكامل ،

وقد طبق ذلك على نفسه ، وقد روى قصة تلقيه العلم حتى بلغ به موضع الصدارة :

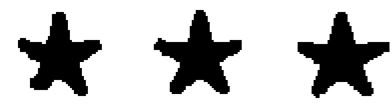
« كان لي أخ في سن ابن شهاب فألقى أبي يوماً علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت ، فقال لي أبي : الهتك الحمام عن طلب العلم ، فغضبت وانقطعت الى ابن هرمز ، سبع سنين ، لم اخلطه بغيره ، وكنت أجعل في كمي تمراً وأناوله صبيانه ، وأقول لهم ان سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول ، وقال ابن هرمز يوماً لجاريته ، من بالباب ، فلم تر إلا مالكاً ، فرجعت فقالت : ما ثم إلا ذاك الاشقر ، فقال ادعيه ، فذلك عالم الناس وكان ابن هرمز من أعلم الناس بالرد على أهل الاهواء وما اختلف فيه الناس » .

ومضى يطلب العلم في جهد ومثابرة يقول : « كنت آتي نافعاً (مولى عبد الله بن عمر) نصف النهار وما تظلني شجرة من الشمس ، أتحين خروجه فاذا خرج ، أدعه ساعة كأني لم أره، ثم أتعرض له ، وأسلم عليه وأدعه ، حتى إذا دخل أقول له كيف قال ابن عمر ، في كذا وكذا فيجيبني ، ثم أحبس عنه وكانت فيه حدة » .

وكانت تجربته الثالثة مع استاذه « ابن شهاب » .

قال : شهدت العيد ، فقلت هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه فسمعته يقول لجاريته : انظري من بالباب فسمعتها تقول : مولاك الاشقر مالك ، قال :

ادخليه فدخلت ، فقال : ما أراك انصرفت بعد الى منزلك ، قلت : لا ، قال : هلا اكلت شيئاً ، قلت : لا ، قال اطعم ، قلت : لا حاجة لي فيه . قال : فما تريد . قال : تحدثني ، قال هات ، فاخرجت ألواحي فحدثني بأربعين حديثاً ، فقلت : زدني ، قال حسبك ، إن كنت رويت هذه الاحاديث فأنت من الحفاظ ، قلت : قد رويتها ، فجبذ الألواح من يدي ثم قال : حدث ، فحدثته بها فردها إلي وقال : قم ، فانت من أوعية العلم .



أما مجلس علمه فكان رائعاً ، كان يحترم العلم ولا يحضره إلا في خير ملابسه وزينته ، يقول : ما احب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يرى أثر نعمته عليه ، خصوصاً أهل العلم ينبغي لهم أن يظهروا مروءاتهم في ثيابهم اجلالاً للعلم ، التواضع في التقى والدين لا في اللباس .

وكان يرى وعليه طيلسان يساوي خمسمائة ، وكان مالك إذا أصبح لبس ثيابه وتعمم ولا يراه أحد من أهله ولا اصدقائه إلا متعمماً ولابساً ثيابه ، ولا يراه أحد أكل أو شرب حيث يراه الناس ، وكان يلبس الثياب العربية والخراسانية والمصرية الغالية الثمينة ، وكان يعنى بنظافة ثيابه ، كما يعنى باختيارها ، وكان يستعمل الطيب الجيد والمسك ، وكان إذا خرج امتلأ

المكان بالرائحة الطيبة . وكان له عود . يوقده طوال مجلس حديثه . قال الواقدي : كان مجلسه مجلس وقار وعلم ، وكان رجلاً مهيباً نبيلاً ليس في مجلسه من المراء واللغط ولا رفع صوت ، وإذا سئل عن شيء أجاب سائله ، قال ابن الحكم : كان مالك إذا سئل عن المسألة قال للسائل : انصرف حتى أنظر ، فينصرف ، وقد امتنع عن مسايرة الفروض والتقديرات ويقول « سل عما يكون ودع ما لا يكون » وقال له رجل مرة : تركت خلفي من يقول : ليس على وجه الأرض أعلم منك فقال مالك غير مستوحش اني لا أحسن .

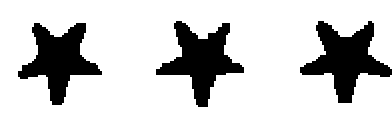
ولما أجهده المرض ، كان يحدث في بيته ، فكان إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية فتقول لهم : يقول لكم الشيخ : أتريدون الحديث ام المسائل ، فاذا قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم ، وإذا قالوا الحديث . قال لهم : اجلسوا ودخل مغتسله ، فاغتسل وتطيب ، ولبس ثياباً جدداً ، وتلقي اليه المنصة ، فيخرج اليهم قد لبس ، وتطيب ، وغلبه الخشوع ، ويوضع عود فلا يزال ينبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله .

وقال الحسن بن الربيع : كنت على باب مالك فنادى مناد له ليدخل أهل الحجاز ، فما دخل إلا هم ، ثم نادى في أهل الشام ، ثم في أهل العراق فكنت آخر من دخل وفينا حماد بن أبي حنيفة .

وكان الى هذا مترفعاً عن الدنايا يقول : ما جالست سفيها

قط ، وكان أشد الناس مداراة للناس وترك ما لا يعنيه ، وكان يحب «الانصاف» ويقول ليس في الناس أقل منه ـ أي الانصاف ـ فأردت المداومة عليه . وكان يحل العالم عن كثير من الامور التي تقلل من قدره ، يقول : ينبغي للعالم ألا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه ، وان كان يقع عليه في ذلك نقص في ماله ، وكان يؤمن بالزهد ، ويقول : ما زهد أحد في الدنيا إلا انطقه الله بالحكمة ، والزهد في الدنيا عنده : طيب التكسب ، وقصر الأمـــل .

وكانت له طوابع ترسم ملامح شخصيته ومناهجه : يجلس للعلم في مسجد المدينة ، في مـــكان عمر بن الخطاب في المكان الذي كان يجلس فيـه للشورى والحكم والقضاء ، ويسكن في دار عبد الله بن مسعود .



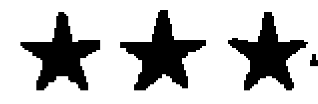
أما حياة « مالك » فهي موجزة ، يسيرة ، عاش في المدينة عمره كله ولم يتجاوزها خلال حياته كلها (وقـــد عمّر فوق الثمانين) عاش نفس البيئة النبوية التي أشرق فيها ضياء الاسلام فكان فقهه صورة من بيئته ، أحب رسول الله حبـاً ملك عليه جوانحه ، وقد وجه هذا الحب الى تحري رأيه وعلمه ، كان شديد البياض الى الشقرة ، طويلاً ، عظيم الهامة ، وصف بأنه إمام دار الهجرة ، كان محدثاً وفقيهاً ، يكره التأويل : ويقول « إنمـــا

أهلك الناس تأويل ما لا يعلمون ، وكتابه « الموطأ » أول كتاب في الحديث والفقه معاً ، حتى قيل انه لم يحفظ التاريخ مدونـاً مأثوراً في الحديث والفقه يقرؤه الناس الى اليوم أقدم من الموطأ ، وكان التدوين رد فعل لما قام به أهل الفرق والاهواء وكـثرة الابتداع والخوارج والروافض وقد أخذ مالك وقتاً طويـلا في تدوينه وتمحيصه ، فقد بدأه عام ١٤٨هـ ونشره على الناس حوالي عام ١٥٩هـ ، أي أنه أمضى احدى عشرة سنة في جمعه وتمحيصه ، وقد مضى ينقحه فيرفع منه الى أن توفي ، ولم يكن هدفـه تدوين طائفـة من الاحاديث ، بل جمـع الفقه المدني وقد وضع للراوي شروطاً : أهمها حرصه على سلامة المتن ، وكان يستأنس بروايـة غيره ، ويرفض الحديث الغريب ، ويرفض ما يحتج به أهـل البدع .

وقد كان آية التجديد في فكره وفقهه : تعرف المصالح في كل أمر لم يرد فيه كتاب ولا سنة ولا أثر ، فالمصلحة عنـده مقياس ضابط لكل ما هو شرعي وغير شرعي وقد اعتبر المصلحة في الفقه أصلاً قائماً بذاته وقرر أن نصوص الشارع لم تأت في أحكامها إلا بما هو المصلحة ، وما كان بالنص عرف به ، على قاعدة مـا جعـل الله عليكم في الدين من حرج ، وقاعدة : لا ضرر ولا ضرار . فكل عمل فيه مصلحة لا ضرر فيها ، أو النفع فيهـا اكبر من الضرر ، مقبولة ، وكل أمر فيه ضرر ولا مصلحة فيه ، أو إثمه اكبر من نفعه ، فهو منهي عنه ، وهو بهـذا المنهج من

الاجتهاد قد أثرى الشريعة الاسلامية ، وجعل آفاقهـا متسعة مشبعة لحاجات الناس في كل عصر وكل مكان ، وكانت قاعدتـه الاصيلة الصلبة أن الدين والاخلاق والقوانين انما تتجه الى إسعاد الناس .

وقد تلقى مالك علوماً كثيرة في مطالع شبابه امدته بالقوة والحيوية ، قد تعلم وجوه الرد على أصحاب الأهـواء وتلقى فتاوى الصحابة ومن لم يدركهم من التابعين وتلقى فقه الرأي على ربيعة بن عبد الرحمن ، وتلقى أحاديث الرسول .



وكانت أزمته في حديث « ليس على مستكره طـلاق » أو ليس على مستكره يمين ، واتخذوه حجة لبطلان بيعته الى أبي جعفر المنصور ، قال ابن جرير المؤرخ : ان مالكا كان بتحديثه بهذا الحديث يحرض على بيعة محمد بن عبد الله ، فقد روي أن مالكاً افتى الناس بمبايعته فقيل له ، فان في أعناقنا بيعـة المنصور ، فقال : انما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعة ، وقد جرؤ عامل المدينة « جعفر بن سليمان » على ضربه سبعين سوطاً ، انخلعت لها كتفـه وصب عليه الماء في اليوم البارد ، فلما بلغ ذلك الخليفة أعظمه إعظاماً شديداً وأنكره ، قالوا فما زال (مالك) بعد هذا الضرب في رفعة من الناس وعلو في أمره ، حتى كأنما كانت تلك السياط حلياً حلي بها ، فلما جاء موسم الحج جـاء المنصور

الموسم ، وأرسل اليه يدعوه فلما أقبل مالك استقبـله وقرب مجلسه ، يقول مالك : سرت حتى انتهيت الى القبة التي هـو فيها ، فاذا هو قد نزل عن مجلسه الذي يكون فيه الى البساط الذي هو دونه ، واذا هو قد لبس ثياباً قصيرة لا تشبه ثيـاب مثله تواضعاً لدخولي عليه ، فلما دنوت منه رحب بي وقرب ، وقال : ها هنا إلي ، فأومأت بالجلوس ، فقال : ها هنـا ، فلم يزل يدنيني حتى أجلسني اليه ، ولصقت ركبتي بركبته ، ثم كان أول — ما تكلم به أن قال : والله الذي لا اله إلا هو ما أمرت بالذي حدث ولا علمته قبـل أن يكون ولا رضيته إذ بلغني (يعني الضرب)، انه لا يزال أهل الحرمين بخير ، ما كنت بين أظهرهم ، واني اخالك أماناً لهم من العذاب ، لقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فانهم أسرع الناس الى الفتن ، واني أمرت بعدو الله ان يؤتى بـه من المدينة الى العراق على قتب ، وأمرت بتضييق مجلسه ، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف مـا نالك منه ..

قال مالك : قد عفوت عنه ، قال المنصور : فعفا الله عنك ووصلك وقد كان شأن مالك مع الخلفاء والأمراء شأن المناصحة وقول الحق ، ويقول : حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل إلى ذي سلطان فيأمره بالخير وينهاه عن الشر .

وكان أمره مع الناس المداراة ، وكان أشد النـاس مداراة

للناس وترك ما لا يعنيه وكان لا يواجه أحكام القضاة بالنقد جهرة ، وإنما يرشدهم في الخفاء .

عرف ثلاثة عشر خليفة في حياته ، ثمانية أمويون وخمسة عباسيون ، وهو مقيم في الحجاز لا يريم ، وقد لقي المنصور والمهدي والرشيد في مواسم الحج وزاره في بيته المهدي والرشيد.

وقد أتاح له التقاؤه بالمسلمين من أنحاء العالم الاسلامي وهو في المدينة وكان يجد في مصالحهم ومسائلهم مادة دراسته . وحين أصابه المرض كف عن عقد حلقات الدرس في المسجد وعقدها في بيته ، وكانوا يسألونه في ذلك فيقول : كرهت أن اذكر علتي فأشكو ربي . وليس كل الناس يستطيع التحدث بعذره .

وكان يحفظ كل ما يسمع من أخبار النبي ولكنه لا يلقي على الناس إلا ما يستقيم مع مقاييس نقده وقد قال تلاميذه : إنا كنا نتبع آثار مالك وننظر الشيخ ان كان مالك كتب عنه كتبنا وإلا تركناه .

وقد ترك مالك تراثاً ضخماً من التأليف من أهمه :

- الموطأ
- تفسير غريب القرآن
- كتاب في الاقضية
- كتاب المسائل
- كتاب الاستيعاب

- رسالة في الأدب والمواعظ
- المجالسات
- النجوم وحساب دوران الزمن
- السر في غرائب الفقه
- المدونــــة

توفي ١٧٩هـ — ٧٩٥م.

« البخاري »

محمد بن اسماعيل « ابو عبد الله »
امير المؤمنين في الحديث

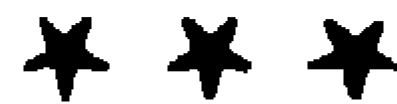
(١٩٤ - ٢٥٦) هـ.

« أنا لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب السلاطين ، كتبت عن ألف وثمانين نفساً ومشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، واحفظ سبعين ألف حديث ، ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين الا عرفت مولد اكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ، ولست أروي حديثاً من احاديث الصحابة والتابعين إلا وله أصل ، احفظ ذلك عن كتاب الله، وكل اسم في التاريخ له عندي قصة»

البخاري

« البخاري »

لا يستطيع الباحث في مجال البحث العلمي في الفكر العربي الاسلامي أن يتجاوز الامام البخاري ، فقد يبدو في نظر بعض الناس واحداً من أصحاب الموسوعات في الحديث النبوي المروي عن رسول الله . غير أن النظرة المتعمقة تكشف عن مجدد ، من أعرق مجددي الاسلام ، وواحد من أولئك الذين واجهوا حملات الهجوم على الفكر الاسلامي ودفعوها بقوة ، وكانوا ازاءها في مجال رد التحدي بعمل ضخم ، ذلك أن الاعمال الضخمة في الفكر العربي الاسلامي ، التي تمت على أيدي دعاة أو مجددين ، أو أئمة اعلام ، إنما كانت تهدف الى تصحيح مفهوم ، أو رد خطأ ، أو بناء قلعة من القلاع التي ترد عن هذا الفكر عادية خصومه ، وتمكن له البقاء والحياة ، والقدرة على الحياة والحركة والالتقاء مع الحضارات والاخذ والعطاء في حرية ورشد وأصالة للثقافات الانسانية بما يتيح له التطور والايجابية والقدرة على منح الانسانية طابع التقدم والبناء والاستمرار .



واجـه البخاري في عصره (١٩٤ – ٢٥٦) تلك الظاهرة التي صاحبت الصراع السياسي ، وهي ظاهرة وضـــع الحديث ونسبه الى النبي ، وقد غلا الوضاع في هـــذا المجال فأضافوا الكثير ، وفيه ما يخرج عن مفاهيم الاسلام وقيمه ، وفيه مـــا يؤيد قوماً على قوم ، فكان عمل البخاري في هذا المجال حاسماً ، هـو بناء قانون للتحقيق العلمي ، وانشاء علم أصول الحديث . فكان عمله غير المسبوق هو توثيق الحديث من ناحيـــة رجاله ورواته .. وبذلك قطع عمل الوضاعين وشجبه ، وأقام عموداً ضخماً في بناء الفكر الاسلامي العربي ، هو عـلم التحقيق العلمي للنص ، هذا الفن الذي اتسع من بعد وخدم الادب والتاريـخ ، فلقد أفاد التحقيق التاريخي من التحقيق للحديث ورسم منهجه على هذا النحو .

وقد اشترط البخاري لاثبات صحة الحديث انه لا بد له أن يثبت بشهادة عدلين صادقين ، يكون الراوي قد لقي بنفسه من يتحدث عنه ، ولا يذكر حديثـاً إلا إذا رواه صحابي مشهور عن النبي ، وشرط البخاري ان يروي الحديث راويان ثقتان فأكثر ثم يرويه عنه تابعي مشهور بالثقة والرواية عن الصحابة .

ومن خلال منهج البخاري العلمي ظهر علم أسماء الرجال الى عالم الوجود ، ولم توفق اليه أمة من الأمم ولا فكر من أفكار الأمم قبـــل الفكر العربي الاسلامي ، يقول الدكتور اسبرنجر : لم تعرف أمة في التاريخ ، ولا يوجد الآن على ظهر الأرض أمـــة

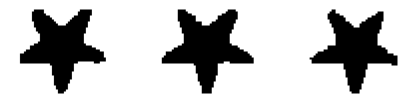
وفقت لاختراع فن مثل فن أسماء الرجال الذي تستطيع بفضله أن تقف على ترجمة (نصف مليون) من الرجال .

والبخاري حين اختار هذا العمل الضخم ، وجرد نفسه له ، كانت معه أسلحته وأدواته ، من تكوينه الطبيعي والعقلي ، على نحو رائع عجيب ، فقد كان هو بطبيعة تكوينه انساناً ممتازاً ، على قدر من قوة الذاكرة يدهش لهـا الانسان ، وكان إلى ذلك جلداً صبوراً ، قادراً على الرحلة والسفر والمكث ، والبحث عن طريق الرحلة فن عربي إسلامي أصيل ، هو الحصول على النص من صاحبه ومكانه ، ومراجعة أهله ، والتأكد من صدقهم أصلاً ، واستقامة فكرهم ، ومطابقـة ثقافاتهم لحياتهم وذلك أمر لا ينفصل في منهج البحث العلمي العربي الاسلامي .

فالبخاري الى هذه القوة العقلية ، وتلك الذاكرة العجيبة ، في القدرة على الاستيعاب والحفظ ، كان قوي البدن ، صبوراً ، فيه عزمة الرحلة واحتمال مشاق التنقل ، والتنقل إذ ذاك غاية في العسر .

وهو كما وصف « قطعة من العذاب » فكان صبوراً في أمر الركوب والانتقال ، وكان كما روي عنه لا يأكل إلا قليلاً وله قدرة على الجوع والمشي وكأنما قد توافر له كل مـا يرجى في الباحث العلمي المحقق ، فاذا أضيف إلى ذلك أنـه كان موسراً وأنه كان يستغل في كل شهر خمسمائة درهم ينفقها في الطلب أمكن

تصور مكانة هذا الرجل من مجددي الاسلام وحملة لواء المنهج العلمي في الفكر العربي الاسلامي .



بدأ « البخاري » رحلته في الرابعة عشرة من عمره واستمرت ستة عشر عاماً ، وشملت ما بين بخارى ومصر ماراً بمدن : بلخ ومرو ونيسابور ، والري وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ودمشق وقيسارية وعسقلان وحمص ومصر .

وحين يحدث البخاري عن نفسه نرى الصورة أشد اشراقاً وأبعد وقعاً :

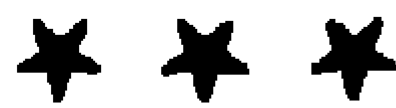
« أول ما رحلت أقمت سبع سنين ، ومشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ ، ثم تركت العدد ، وخرجت من البحرين الى مصر ، ثم الى الرملة ماشياً ، ثم الى طرسوس ، ولي عشرون سنة ، وكتبت عن ألف وثمانين نفساً ، ما من حديث إلا أذكر اسناده ، ولم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء ، كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وعمن كنيته ونسبته وحمل الحديث ، إذا كان الرجل فهيماً ، فان لم يكن ، سألته أن يخرج إلي أصله ، ونسخته ، أما الآخرون فلا يبالون ما يكتبون ، عن سلم بن مجاهد يقول كنت عند محمد بن سلام السبيكندي فقال لي : لو جئت قبل لرأيت حبيباً يحفظ سبعين ألف حديث ، فخرجت في طلبه حتى لقيته ، فقلت له : أنت الذي يقول أنا أحفظ سبعين ألف

حديث ، قال نعم ، وأكثر منه ، ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم، ووفاتهم، ومساكنهم، ولست أروي حديثاً من أحاديث الصحابة والتابعين إلا وله أصل، أحفظ ذلك عن كتاب الله أو سنة رسول الله .

وقد سئل عن خبر حديث فقال : أتراني أدلس ، تركت أنا عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر ، وتركت مثله ، أو أكثر منه لغيره لي فيه نظر ، وقد كان الحديث عن قوة ذاكرة البخاري موضع الدهشة بين أقرانه ومعارفه على هذا النحو غير المألوف ، حتى ظنوا أنه شرب دواء للحفظ ، يقول وراقة : قال محمد بن ابي حاتم قلت للبخاري يوماً في خلوة : هل من دواء للحفظ ، قال : لا أعلم ، ثم أقبل علي فقال : لا أعلم شيئاً انفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومته النظر .

وفي مجال قوة الذكرة ترددت قصة رواها كل مؤرخي البخاري واجمعوا عليها : روى أبو أحمد بن عدي الحافظ عن الامام محمد بن اسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح، قال سمعت عدة مشايخ يقولون : ان محمد بن اسماعيل قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا الى مائة حديث ، فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر ، واسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها الى عشرة أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه

الموعد للمجلس فحضروا ، وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله، انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الاحاديث ، قال « البخاري » : لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد، حتى فرغ ، والبخاري يقول لا أعرفه ، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم الى بعض ويقولون : فهم الرجل ، ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ ، ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً فسأله، حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه ، ثم انتدب الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من القاء تلك الاحاديث المقلوبة والبخاري لا يزيدهم على أن « لا أعرفه » فلما علم أنهم قد فرغوا التفت الى الاول ، فقال : أما حديثك الاول فقلت كذا وصوابه كذا وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا والثالث والرابع على الولاء ، حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن الى إسناده وكل اسناد الى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقر الناس له بالحفظ واذعنوا له بالفضل ، قلت : هنا نخضع للبخاري ، فما العجب في رده الخطأ الى الصواب فانه كان حافظاً ، ولكن العجب هو حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة .



ولد البخاري « محمد بن اسماعيل » عام ١٩٤هـ في بخارى كبرى مدن ما وراء النهر يروي قصة حياته فيقول : «ألهمت

الحديث في المكتب ولي عشر سنين ، أو أقل ، ثم خرجت من المكتب بعد العشر ، فجعلت اختلف الى الداخلي وغيره ، فقال يوماً فيما كان يقرأ للناس : عن ابي الزبير عن ابراهيم ، فقلت ان أبا الزبير لم يرد عن ابراهيم ، فانتهرني ، فقلت له ارجع الى الاصل ان كان عندك ، فدخل ، فنظر فيه ، ثم خرج فقال لي كيف هو يا غلام ، فقلت له : الزبير بن عدي بن ابراهيم فأخذ القلم مني وأصلح كتابه ، وقال : صدقت ، وكنت إذ ذاك ابن أحدى عشرة سنة. فلما طعنت في ست عشرة سنة ،حفظت كتب ابن المبارك ووكيع ، وعرفت كلام هؤلاء ، يعني أصحاب الرأي ثم خرجت مع أخي أحمد وأمي الى مكة ، فلما حججت رجع أخي الى بخارى فمات بهـا وأقمت بمكة لطلب الحديث ، وفي الثامنة عشرة صنفت كتاب قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم ، ووضعت التاريخ الكبير عند قبر النبي في الليالي المقمرة ، وقل اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة » .

وقال محمد بن حاتم وراق البخاري : سمعت حامـد بن اسماعيل : «كان البخاري يختلف الى السماع ، وهو غلام فـلا يكتب حتى أتى على ذلك أياماً ، فكنا نقول له : فقال انكما اكثرتما علي فاعرضا علي ما كتبتما ، فاخرجنا اليه ما كان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث ، قرأهـا كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه ، ثم قال : أترون أنني أختلف هذراً ، أو أضيع أيامي . وكان أهل المعرفة يعدون خلفه

في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه، ويجلسوه في بعض الطريق، فيجتمع اليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه».

وصف البخاري بأنه نحيف، ليس بالطويل ولا بالقصير، وكان قليل الاكل جداً كان يقرأ في السحر ما بين الثلث والنصف من القرآن فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال، وكان يختم بالنهار كل يوم ختمة، وكان يركب الى الرمي كثيراً، فلما أخطأ الهدف، وكان يصيب في كل مرة ولا يسبق، يقول: كنت استغل في كل شهر خمسمائة درهم، فأنفقها في الطلب وما عند الله خير وأبقى، وما توليت شراء شيء قط ولا بيعه، كنت آمر انساناً فيشتري لي .. وقال محمد بن اسماعيل: هو اكيس خلق الله، عقل من الله ما أمر به وما نهى عنه في كتابه. وكان غاية في الحياء والشجاعة والسخاء والورع، والزهد في أمر الدنيا، ومن حسن أدبه أنه في التخريج والتضعيف يستعمل عبارات رائعة: يقول عن الرجل المتروك أو الساقط: فيه نظر، أو سكتوا عنه، ولا يقول انه كذاب.

ومما رواه البخاري قال: لما بلغت خراسان اصبت ببصري، فعلمني رجل أن أحلق رأسي وأغلفه بالخطمى، ففعلت فرد الله بصري، وما وضعت في الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين.

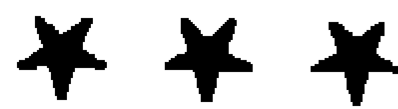
وأينما حل البخاري كان موضع اعجاب الناس وتقديرهم، كان أهل البصرة يعدون خلفه، وهو في الطريق فيجلسونه كرهاً

فيستملي عليه الألوف ، قال ابن النضر : دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ، ورأيت علماءها فكلما جرى ذكر البخاري فضلوه على أنفسهم ، وهو الذي كان يدخل الامصار والحواجز فيتنادى الناس بمقدمه ويتعادون لسماع الحديث عنه حتى يبلـغ مجلسه عشرين ألف أو يزيدون . ومنذ أن ولد الى أن مات مـا اشترى شيئاً ولا باعه ، حتى الحبر والكاغد الذي يحتاجه كان يكلف غيره بشرائه ، يقوم بالليل بضع عشرة مرة ، فيوقـد السراج ويخرج أحاديث فيعلم فيهـا ، روى محمد بن ابي حاتم الوراق، أنه كان مع البخاري في ثغر حربي اسمه « فرير »فكان البخاري يقضي الليل في التيقظ لجمـع الحديث وصلاة السحر ، فقلت له : انك تحمل على نفسك كل هذا ولا توقظني ، قـال البخاري : أنت شاب فلا أحب أن أفسد عليك نومك . وفي يوم كان البخاري قد تعب في تصنيف كتاب التفسير فاستلقى على قفاه ، فقلت له : سمعتك في هذا الاستلقاء . قال : هذا ثغر من الثغور خفت ان يحدث حـدث من أمر العدو ، فاحببت ان استريح وآخذ أهبة ذلك فان عافصنا العدو كان بنا حراك .

وذكروا أنه لما رجع إلى (بخارى) نصبت له القباب على فرسخ من البلد ، واستقبله عامة أهلهـا ونثرت عليه الدراهم والدنانير ، وبقي مدة يحدثهم ، فأرسل اليه خالد بن محمد الذهلي نائب الخلافة العباسية يسأله ان يحضر الى منزله ، فيقرأ الجامع الصحيح على أولاده ، فامتنع البخاري وقال لرسوله : قل له أنا

لا أذل العلم ، ولا أحمـــله الى أبواب السلاطين ، فمن كانت له حاجــة الى شيء منه فليحضر الى مسجدي أو داري ، فان لم يعجبك هذا فأنت سلطان ، فامنعني من المجلس ، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة وانني لا أكتم العلم .

فأمره الوالي بالخروج من بخارى فقصد الى سمرقند ، فلما كان على بعد فرسخين منها بلغه أن فتنة وقعت بـــين قوم يريدون دخوله ، وقوم يكرهونه ، فانحرف عنهم الى منزل بعض أهله، حتى جاء قوم من أهل سمرقند يلتمسونه وقد رفض البخاري ان يكون تابعاً لأمير أو وال . وظـــل يقاسي من العداوات والخصومات الشيء الكثير ، فاحتمل ذلك محتسباً مؤمناً بعمله الذي جرده للحق ، ورفض أن يجعله متابعاً لحكم أو حزب أو فرقة من الفرق .



وقد اختار البخاري في صحيحه ستة آلاف حديث من بين ستمائة ألف حديث جمعها ، في رحلة حياته كلهـــا ، وقال : لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً ، ومـا تركت من الصحيح أكثر . وقال في سبب تدوينه : كنت عند اسحق بن راهويه ، فقال لنا بعض أصحابنا : لو جمعتم كتابـاً مختصراً لسنن النبي صلى الله عليه وسلم فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع هـــذا الكتاب . قال الحافظ بن حجر في مقدمـة الفتح : ان مجموع

أحاديثه بالمكرر سوى المعلقات والمتابعات سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعون حديثاً والخالص بلا تكرار ألفا حديث وستمائة وحديثان . وقال البخاري : أخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة ألف حديث ووضعته في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله .

وقد قوم الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي موسوعة البخاري في كتابه جواب المتعنت فقال انه كان يذكر الحديث في كتابه في مواضع ، ويستدل بـه في كل باب باسناد آخر ، ويستخرج منه بحسن استنباطه وغزارة فقهه معنى يقتضيه الباب الذي أخرجه فيه ، وقلما يورد حديثاً في موضعين باسناد واحد ، ولفظ واحد ، وإنما يورده من طريق أخرى لمعان يذكرها ومنها أنه يخرج الحديث عن صحابي ، ثم يورده عن صحابي آخر ، والمقصود منه انه يخرج الحديث عن حد الغرابة وكذلك يفعل في أهل الطبقة الثانية والثالثة ، فيعتقد من يرى ذلك من غير أهل الصنعة انه تكرار وليس كذلك لاشتماله على فائدة زائدة ، ومنها أنه صحح أحاديث على هذه القاعدة يشتمل كل حديث منها على معان متغايرة ، فيورده في كل باب من طريق غير الطريق الأول ، ومنها أحاديث يرويها بعض الرواة تامة ، ويرويها بعضهم مختصرة ، فيوردها كما جاءت لتزيل الشبهة عن ناقليها ، ومنها ان الرواة ربما اختلفت عباراتهم ، فحدث راو بحديث فيه كلمة تحتمل معنى ، وحدث به آخر فعبر عن تلك الكلمة

بعينها بعبارة أخرى تحتمل معنى آخر ، فيورده بطريقة إذا صحت على شرطه ، ويفرد لكل لفظة باباً مفرداً ، ومنها أحاديث زاد فيها بعض الرواة رجلاً في الاسناد ونقصه بعضهم ، فيوردها على الوجهين يصح عنده أن الراوي سمعه من شيخ حدثه به عن آخر ، ثم لقي الآخر فحدثه به ، فكان يرويه على الوجهين ، فهذا جميعه فيما يتعلق باعادة المتن الواحد في موضع آخر أو أكثر » .

وقد اشترط البخاري في اخراجه الحديث في كتابه ان يكون الراوي قد عاصر شيخه ، وثبت عنده سماعه ولم يشترط الامام مسلم الثاني بل اكتفى بمجرد المعاصرة .

ويجمع الباحثون على أن البخاري كان له بادرة التمييز بين الحديث الصحيح وغيره ، وكان الكتب قبله ، والمحدثون يجمعون ما يصل اليهم ، دون البحث عن رواته ومقدار الثقة . فكان هو أول من وضع أساساً علمياً للحديث ، وخلق فن « تعرف صحيح الحديث من ضعيفه » وهذا يتطلب علماً واسعاً دقيقاً برجال الحديث ومقدار صدقهم وحفظهم والثقة بهم ، ومعرفة مذاهب الرجال ومواهبهم (خوارج ومعتزلة ومرجئة وشيعة) حتى يتكشف مذهبهم في القول أو تأويله ، ومقارنة الاحاديث التي تروى في الامصار المختلفة وما بينهم من فروق وما فيها من علل . ومن هذا كله استخلص البخاري قاعدته : الحديث الصحيح هو الحديث المسند الذي يتصل

اسناده من الراوي الى النبي ويكون كل راو من رواته مسلماً صادقاً عادلاً ضابطاً.غير مدلس ولامختلط متصفاً بالعدالة، سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعضاء والاعتقاد، وأن يكون أصحاب راوي – الحديث من الاساطين (كالزهري ونافع) والدرجة الأولى لأصحاب راوي الحديث من زامله في السفر ولازمه في الحضر، وكان يربط بين الرجل وبلده وعصره وشيوخه وزمان ولادته ووفاته وأقواله . وكان البخاري مع مقدرته في الحديث فقيهاً وقد رتب « الجامع الصحيح » على أبواب الفقه، احتوت على العبادات والمعاملات وسيرة الرسول ومغازيه ومعجزاته، وعده السبكي في كتابه طبقات الشافعية، شافعياً، وان أجمع الباحثون على أنه إمام مجتهد له استنباطات تفرد بها .

وقد ضم الجامع الصحيح ٩٧ كتاباً فيها ٣٤٥٠ باباً وقد أصبح كتابه أجل كتاب وأعلاه في الفكر الاسلامي وفي الحديث وافضلها بعد كتاب الله، وقد أشار الدهلوى الى أن البخاري أفرغ جهده في الاستنباط من حديث رسول الله، يستنبط من كل حديث مسائل كثيرة جداً، وهذا أمر لم يسبقه اليه غيره، غير أنه استحسن أن يفرق الاحاديث في الابواب ويودع في تراجم الابواب سر الاستنباط .

وجملة القول أن عمل البخاري كان عملاً موسوعياً غير عادي، وأنه كان رداً على التحدي الذي وقفه خصوم الاسلام

وخصوم الفكر العربي الاسلامي حين استشاطت موجة الاحاديث المكذوبة وما أدخله اليهود والنصارى والمجوس وأهل الديانات الاخرى من الاحاديث من دياناتهم وأخبارهم ، وكان من هذه الاحاديث ما ضم ما أوردته التوراة من أخبار، فضلاً عن أحاديث رفعت من شأن أمم أو فرق أو أجناس ، وكان هذا هو التحدي الذي واجهه البخاري بعمله الضخم ، على مستويين : نقد الاحاديث وتنقيتها وتمييز الجيد والزائف ودراسة الرجال والرواة ومقدار سلامتهم، وعرضهم على قواعد الجرح والتعديل،وهوما يسمى بالنقد الخارجي، ومعرفة ما إذا كان الحديث في معناه يصح أو لا يصح وما هي أوجه الصحة وعدم الصحة وهذا ما أسموه بالنقد الداخلي ، وقد قسم الحديث الى صحيح وحسن وضعيف ومرسل ومنقطع وشاذ وغريب، وقسم الرجال .

وهكذا لم يكن عمله الجمع فقط ، ولكنه التحقيق ، ومن هنا سمي أمير المؤمنين في الحديث .

وللبخاري مؤلفات أخرى غير الجامع الصحيح ، منها التاريخ الكبير والأوسط والصغير والأدب المفرد وكتاب الاشربة وكتاب الضعفاء والهبة وأسامي الصحابة . وغيرها ..

مؤلفاته : الجامع الصحيح

: التاريخ الكبير

: السنن في الفقه

: الاسماء والكنى

: الأدب المفرد

توفي عام ٢٥٦ هـ. ٨٧٠ م.

احمد بن حنبل

إحياء السنة وسحق الابتداع

(١٦٤ – ٢٤١) هـ.

« أنا أطلب العلم إلى القبر ، مع المحبرة الى المقـــبرة ، إذا سكت العالم تقية ، والجاهل يجهل ، فمتى يظهر الحق ، لو أن الدنيا تقل حتى تكون في مقدار لقمة ثم أخذها أمرؤ مسلم فوضعها في فم أخيه المسلم ما كان مسرفاً ، الإيمان قول وعمل، السجن كره، والقيد كره ». احمد بن حنبل

احمد بن حنبل

يمثل احمد بن حنبل بحياته وخلقه واصراره قدرة المفكر العربي الاسلامي على تحويل مجرى الفكر من الانحراف الى الحق، ومن الخطأ الى الصواب ، فاحمد بن حنبل يتمثل في صورة رجل تطبيقي لجوهر الاسلام والفكر العربي الاسلامي ، وقف بنفسه أعزل مصراً على ما اعتقد أنــه الحق فاستطاع أن يكشف عن الخطأ الذي يوشك هذا الفكر ان يتردى فيه حين أريد بالفلسفة والاعتزال إدخال تفسيرات جديدة للقيم الاسلاميـــة العربية مخالفة للمفاهيم الأصيلة . فكان بموقفه خـلال ستة عشر عاماً تأكيداً لقوة الاعتقاد بما يؤمن به ، والاصرار عليه ، دون أن تحول وسائل البطش في صرفه عنه ولقد استطاع فعـلاً بهذا الموقف أن يؤيد مفاهيم الاسلام السمحة البسيطة وأن يكشف عنها الزيف الذي كان ينحرف بها فيحولها عن طابعها الأصيل الواضح ذلك أن أسلوب الاعتزال في الكلام بدا في أول الأمر قوة حقيقية للدفاع عن الاسلام والفكر الاسلامي العربي وسلاحاً أكيداً في مواجهة خصومه والرد على شبهاتهم ، ولكنه حـــين

تحول الى خطر يهدد جوهر العقيدة الاسلامية ويحاول اضفاء روح مغرقة من تعقيدات الفلسفة ، وأساليب الجدل على النحو الذي يطمس الحقائق البسيطة اليسيرة والطابع الواضح السمح ، أصبح هذا الاتجاه خطراً ، وكان لا بد من مواجهته والقضاء على محاولته في صبغ القيم الأساسية للاسلام والفكر العربي الاسلامي بما يحولها عن جوهرها وطابعها الأصيل ، ذلك هو ما اقتنع به حقيقة احمد بن حنبل حين واجه الدعوة الى القول بخلق القرآن . ولقد كان « ابن حنبل» مهيباً قوي العارضة عظيم الاثر في مجاله وميدانه ، وكان بذلك لا يستطيع ان يضل الناس الذين يثقون به ، وكان في نفس الوقت قادراً بالصمود والتضحية والصبر والاحتمال أن يقضي على هذا الانحراف وأن يرد الناس الى الحق ، وأن يجدد الاسلام بتخليصه من القوى الغاريـة الهادفة الى طمس صورته الأصيلة ، وإضافة طوابع جديدة تختلف عن طابعه . أو مفاهيم جديدة تختلف مع جوهر مفاهيمه .

ولقد كان الاسلام والفكر العربي الاسلامي قادراً على التلقي والامتصاص والاساغة لكل فكر إنساني ولكنه كان في نفس الوقت قادراً على الاحتفاظ بطابعه وكيانه وجوهره من أن يتحول إلى نزعة فلسفية خالصة أو نزعة تصوفية خالصة أو نزعة فقهية خالصة ، ذلك ان أبرز طوابع الاسلام والفكر الاسلامي التي لا ينحرف عنها : الشمول والوضوح ، ولقد كانت

محاولات العصر التي واجهها ابن حنبل انها تهدف الى أن تفقده هاتين القيمتين الاساسيتين ــ فكان على مجددي الاسلام مواجهة هذا التيار المنحرف وصده ، ولقد حدث ذلك بأسلوبين من أساليب العمل: بأسلوب الاشعري الفكري وأسلوب ابن حنبل الذاتي إذا صح هذا التعبير ،وهو مواجهة التيار المنحرف بالوقوف أمامه في صرامة وصبر ومعارضة قادرة على احتمال الاضطهاد ست عشرة سنة ، وقد سبق عمل ابن حنبل عمل الاشعري ومهد له .

فابن حنبل في مكانه مجدداً للاسلام ،كان قوة فاعلة بشخصيته ومكانته وهيبته وصموده،وشجبه للمحاولة التي استهدفت اخراج الاسلام والفكر العربي الاسلامي عن شموله وبساطته بتغليب طابع الفلسفة عليه وحول هذا المعنى يدور موقف ابن حنبل كله، فاذا قيل ان الفكر الاسلامي منهج فان ابن حنبل تطبيق، وإذا قيل على حد قوله هو : إيمان وعمل فانما هو نموذج لامتزاج الإيمان بالحق والعمل به في إنسان قوي العارضة مستهين بضيوف الالم والتنكيل ، ليس في سبيل الحق الذي اعتقده بل وأيضاً في سبيل كسر هذا التيار المنحرف الذي أوشك أن يسيطر من الفكر الاسلامي ليحوله عن مجراه ، وعن بساطته وعن شموله .

وإذا وصف ابن حنبل في كلمة فهو « العمود » والصلابة في الحق ومن ذلك قوله : إذا سكت العالم تقية ، والجاهل يجهل ،

فمتى يظهر الحق . ولقد كانوا يقولون له وهـــو في السلاسل والاغلال ، يا أستاذ قـــال الله تعالى : « ولا تقتلوا انفسكم » فيقول لسائله : يا مروزي : اخرج انظر ، فاذا خرج المروزي رأى جموعاً غفيرة تثق بابن حنبل وتؤمن بانه على الحق وتنتظر كلمته ، يقول فخرجت الى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقـاً لا يحصيهم إلا الله تعالى ، والصحف في أيديهم والاقلام والمحـابر ، فقال لهم المروزي أي شيء تعملون ، قالوا ننتظر ما يقول احمد فنكتبه ، فدخل الى أحمد فاخبره فقال ، يا مروزي : (هل) أضل هؤلاء كلهم . « هكذا كان ابن حنبل ينظر إلى التبعية والى شرف الكلمة والى مكانـه في الناس ، ومن هنا كانت الهيبة له من خصومه وجلاديه ، كان يرفع بصره الى السماء ويدعو ويقول « ان كنت على الحق فاحم عورتي » .

ولقد كانت نشأة ابن حنبل منذ مطالع شبابه تنبىء بهـذا الخلق الرفيع الصادق المفطوم عن الشهوات ، القادر على الزهد في المتاع القليل والصمود أمام الشأن العظيم ، كانت له طراز تنسج الثياب فكان يأكل من غلتها ويتعفف عن كرائها للناس ، كما كان يتعفف عن الاعطيات والهدايا ولم يكن زهده تعبـــيراً مغلقاً في صومعة ، ولكنه كان قدرة على قول الحـق واحتمال الأذى من أجله ، ومن هنا استطاع بشخصه ان يغير وجه الفكر العربي الاسلامي وان يحول التيار ، وان يحد من تيار الانحراف ، وينصر القيم الأساسية وجوهر المفاهيم الأصيلة للفكر العربي

الاسلامي في شمولها وسماحتها دون ان يتسلط عليهـا سلاح من أسلحتها وهو الفلسفة .

ولقد بدأت المحنة عام ٢١٨ هـ عندما أصدر المأمون رسالته الى والي بغداد يأمره فيهـــا بجمع القضاة وامتحانهم في عقيدة « خلق القرآن » وعزل من لا يقول بها منهم واسقاط شهادةمن لا يراها من الشهود ، ولقد اجتمع العلماء وأقروا بأن القرآن مخلوق إلا أربعة : القواريري ، محمد بن نوح، وابن حنبل فأمر بهم فشدوا في الحديد ، أما سجادة فاعترف فأطلق سراحه ، وأجاب القواريري بعد يوم آخر فأطلق ، ومات ابن نوح ولم يبق إلا احمد بن حنبل .

ولن نستطيع أن نبلغ من تصوير المحنة ما بلغهصاحبهانفسه حين كتبها أو كتبت عنه :

قال صالح بن احمد بن حنبـل : حمل ابي ومحمد بن نوح مقيـدين فصرنا معهما الى الانبار ، فسأل أبو بكر الأحول ابي: فقال يا أبا عبد الله ان عرضت علىالسيف تجيب : قال : لا : ثم سيرا فسمعت ابي يقول : صرنا الى الرحبة ودخلنا منها وذلك في جوف الليل ، فعرض لنا رجل ، فقال : أيكم احمد بن حنبل فقيل له : هذا، فقال للجمال : على رسلك ، ثم قال يا هذا ما عليك ان تقتل ههنا وتدخل الجنة ،ثم قال استودعك الله ،ومضى، قال احمد بن حنبل : ما سمعت كلمة منـذ وقعت في

هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي ، كلمني بها في رحبة طوق ، قال ، يا أحمد ان يقتلك الحق مت شهيداً، وان عشت عشت حميداً فقو قلبك .

صرنا الى أذنه ورحلنا منها في جوف الليل ، وفتح لها بابها، فاذا رجل قد دخل فقال : البشرى : الصدقات، الرجل ، يعني المأمون وكنت أدعو الله ألا أراه ، وكنت أصلي بأهل السجن وأنا مقيد ، وكان يوجه إلي كل يوم برجلين احدهما يقال له احمد ابن رياح والآخر ابو شعيب الحجام فلا يزالان يناظراني ، حتى إذا أرادا الانصراف دعي فزيد في قيودي ، فأصبح في رجلي أربعة قيود ، فلما كان في اليوم الثالث دخل علي أحد الرجلين فناظرني،فقلت له:ما يقول في علم الله، قال علم الله... فقلت له: كفرت . فلما كان في الليلة الرابعة وجه المعتصم ربيعاً الذي كان يقال له الكبير، أبو اسحق فأمره بحملي إليه فأدخلت علىاسحق فقال : يا احمد .. إنها والله نفسك إنه لا يقتلك بالسيف انه قد آلى ان لم يعجبه ان يضربك ضرباً بعد ضرب، وان يقتلك في موضع لا ترى فيه شمس ولا قمر، فلما صرنا الى الموضع المعروف بباب البستان ، اخرجت وجيء بداية فحملت عليها وعلي الاقياد ، وما معي أحد يمسكني ، فكدت غير مرة ان أخر على وجهي لثقل القيود ، فجيء بي الى دار المعتصم فادخلت حجرة ، وأدخلت إلى بيت ، وأقفل الباب علي ، وذلك في جوف الليل وليس في البيت سراج ، فأردت أن اتمسح للصلاة ،

فمددت يدي فإذا أنا باناء فيه ماء وطست موضوع ، فتوضأت وصليت ، فلما كان من الغد اخرجت تكتي من سراويلي وشدت بها الاقياد احملها واعطفت سراويلي فجاء رسول المعتصم فقال أجب .. فأخذ بيدي وادخلني عليه والتكة في يدي احمل بها الأقياد ، وإذا هو جالس ، وابن ابي دؤاد حاضر ، وقد جمع خلقاً كثيراً من أصحابه فقال لي (يعني المعتصم) : ادنـــه.. ادنه . فلم يزل يدنيني حتى قربت منه : ثم قال لي : اجلس ، فجلست ، وقد اثقلتني الأقياد فمكثت قليلاً ، ثم قلت : اتأذن لي بالكلام قال : تكلم فقلت إلام دعا الله ورسوله؟ : فسكت هنيهة ثم قال : الى شهادة ان لا إله إلا الله فقلت فأنا أشهـد أن لا إله إلا الله ، قال المعتصم : لولا أني وجدت في يد من كان قبلي ما عرضت لك ، ثم قال المعتصم : والله يا احمد اني عليك لشفيق ، واني لأشفق عليك كشفقتي على هارون ابني، ماتقول: فأقول اعطوني شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله : فلما طـــال المجلس ضجر ، وقال قوموا ، وحبسني وعبد الرحمن بن اسحق يكلمني فقال المعتصم ،ويحك اجبني ، فقال ما أعرفك ، ألم تكن تأتينا ، فقال له عبد الرحمن بن اسحق يا أمير المؤمنـــين .. اعرفه منذ ثلاثين سنة ، يرى طاعتك والجهاد والحج معك قال فيقول : والله انه عالم وانه لفقيه ، وما يسوؤني ان يكون معي يرد عني أهل الملل ، ثم قـــال المعتصم : يا احمد اجبني الى شيء لك فيه أدنى فرج ، حتى اطلق عنك يدي ، فقلت : اعطوني

شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله . فقام المجلس وقام ورددت الى الموضع الذي كنت فيه فلما كان بعد المغرب وجه الي رجلين من اصحاب ابن ابي دؤاد، يبيتان عندي ويناظراني ويقيمان معي، حتى إذا كان وقت الافطار جيء بالطعام، ويجتهدان بي ان أفطر فلا أفعل ، ووجـه الي المعتصم ابن ابي دؤاد في بعض الليل فقال : يقول لك امير المؤمنين ما تقول : فارد عليه نحواً مما كنت ارد فيقول: ان امير المؤمنين قد حلف ان يضربك ضرباً بعد ضرب وان يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس ويقول انه إن اجابني جئت اليه حتى اطلق عنه يدي فلما كان الغـد في اليوم الثالث وجه الي فادخلت فإذا الدار غاصة فجعلت ادخل من موضع الى موضع وقوم معهم السيوف، وقوم معهم السياط وغير ذلك، ولم يكن في اليومين الماضيين احد من هؤلاء ، فلما انتهيت اليه قال : اقعد ، ثم قال : ناظروه ، كلموه ، فجعلوا يناظروني ويتكلم هذا فأرد عليه ويتكلم هذا فأرد عليه ، وجعل صوتي يعلو اصواتهم فلما طال المجلس نحاني ثم خلا بي فقال : ويحك يا أحمد .. اجبني حتى اطلق عنك بيدي ، فرددت عليه نحواً مما كنت أرد فقال لي : عليك وقال خذوه واسحبوه فسجنت

ونزع القميص عني وجلس المعتصم على كرسي ثم قـال : العقابين والسياط ، فجيء بالعقابين ، فمدت يداي فقـال بعض من حضر ، خذ نأي الحبشتين بيديك وشد عليهما فلم أفهم مـا

قال ، فتخلفت يداي ، ولما جيء بالسياط نظر اليها المعتصم ثم قال ائتوني بغيرها ، ثم قال للجلادين تقدموا فجعل يتقدم الي الرجل منهم فيضربني سوطين فيقول له : شد قطع الله يدك ، فلما ضربت تسعة عشر سوطاً قام الي – يعني المعتصم – قال يا احمد علام تقتل نفسك . اني والله عليك لشفيق ، فجعل عجيف ينخسني بقائمة ما يقول : فأقول : أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله أقول به فرجع وجلس ، وقال للجلاد تقدم وأوجع قطع الله يدك ، ثم قام الثمانية فجعل يقول : ويحك يا احمد أجبني الى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي ، فقلت اعطوني شيئاً من كتاب الله فيرجع ، وقال للجلادين : تقدموا ، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحي ، وهو في خلال ذلك يقول : شد ، قطع الله يدك ، فذهب عقلي ، فأفقت بعد ذلك فاذا الاقياد قد اطلقت عني ، فقال لي رجل ممن حضر ، إنا كببناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك بارية ، ودسناك ، فما شعرت بذلك ، وأتوني بسويق فقالوا لي اشرب وتقيأ ، فقلت : لا أفطر ، ثم جيء بي الى دار اسحق بن ابراهيم فحضرت صلاة الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى فلما انتقل من الصلاة قال لي صليت والدم يسيل في ثوبك ، فقلت : قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً .

ثم خلي عنه فصار الى منزله وكان مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهراً .

قال الذين تفقدوه في الايام الثلاثة وهم يناظرونه فما لحن في كلمة وقالوا ما ظننا ان أحـــداً يكون في مثل شجاعته وشدة قلبه .

وقد بدأت محنة ابن حنبل بين عهد المأمون والمتوكل، مارة بأيام المعتصم والواثق (٢١٨ - ٢٣٤ هـ) وكان خصمه فيها ابن أبي دؤاد ثم انكشفت فقد رفع المتوكل القول بخلق القرآن ، وأنكرأصحابه وتوقف هذا الانحراف وانحسر نفوذه بعدسقوط انصاره غير أن ابن حنبل وهو في ذروة انتصاره لم ينس خلقه ومقومات شخصيته ولم يزدهه النصر ، وظل صامـداً كانسان مجاهد في أعماق الخندق ، وقد تمثل ذلك في مظهرين أساسيـين (الأول) انه رفض ان يطلب لخصومه انتقاماً ، وعفا عن كل من أساءإليه (الثاني) انه رفض أن يستسلم للباب الذي فتـح أمامه من العطايا والهدايا ووسائل التكريم واستعلى عليه فاذا كان ابراهيم بن مصعب قال عنه : ما رأيت احـداً أثبت من احمد بن حنبل قلباً يوم المحنة ، فانه كان كذلك في تحـــول الامر إلى ضده ، وقف موقف الصمود والصلابـة ، ورفض أيضاً ان يخـــدع الناس ، وبقي فوق موقف الخضوع مرة أخرى .



يمثل احمد بن حنبل شخصية غاية في القوة والحيويـــة : حافظة واعية ، وصبر وجلد ، ونزاهة لا تجعل لغير الله سلطاناً، وهيبة خارقة ولقد ارتفع فوق الأزمة والمحنة ، كما ارتفع فوق ظروف النعيم والتكريم ونزه فكره عن النظر في قضية يكون فيها الهوى الخاص مصدراً أو حكماً ولكنه لم يكن متزمتاً بل كان غاية في السماحة . ثبت على عفافه وزهـده وعزوفه عن الدنيا وكان الزهد عنده الارتفـاع فوق خذلة الاهواء ، أو – العبودية للرغبة ، وكان الى ذلك كله سمحاً واسع الآفاق محباً للناس ، مقدراً للأخوة والصحبة : يقول: يؤكل الطعام بثلاث: مع الاخوان بالسرور ومع الفقراء بالايثار ومع ابناء الدنيا بالمروءة ولو أن الدنيا تقل حتى تكون مقدار لقمة ، ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها في فم أخيه المسلم ما كان مسرفاً .

أما في مجال العلم فقد كان شعاره : مــع المحبرة الى المقبرة : وكانت دعوته أنا اطلب العلم الى القبر .

وفي عباراته و كتاباته صورة هذه النفس المتعالية عن غــير الحق :

« آمركم الا تؤثروا على القرآن شيئاً فانه كلام الله عزوجل، وما تكلم الله به فليس بمخلوق ، والايمان قول وعمل ، يزيـد وينقص ، زيادته اذا احسنت ونقصانـه إذا اسأت ، ويخرج الرجل من الايمان الى الاسلام ولا يخرجه من الاسلام شيء إلا الشرك بالله العظيم ، أو رد فريضة من فرائض الله عز وجل

جاحداً بها . وما أنكرت العلماء من الشبه فهـو مكفر ، احذروا البدع كلها ، ما قل من الدنيا ، كان أقـل للحساب التوكل قطع الاستشراف باليأس من الناس ، الفتوة ترك مـا تهوى لما تخشى ، ان لكل شيء كرماً ، وكرم القلب الرضا عن الله عز وجل .

وقد أخذ ابن حنبل نفسه بالعلم حتى بلغ فيه الغايـة ، يتمثل ذلك في نص لابي زرعة يقول : حررت كتب احمد يوم مات ، فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً ، وكل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلبه .

ويقول ابو زرعة ايضاً: ان احمد كان يحفظ ألف ألف حديث قال له عبد الله بن احمد بن حنبل : ما يدريك . قال ذاكرته فيها فأخذت عليه الأبواب .

ولا عجب ان يصل احمد بن حنبل الى مثل هذا فان كتابه « المسند » آية ذلك القول ودليله فقـد كتبه في صحائف بلغت عندما طبع ٣ آلاف صفحة في ٦ مجلدات .

والقول على انه خمسون ألف حديث ثم نقدهـا وصفاهـا حتى بلغت نحو أربعين ألفاً هي التي ضمنها مسنده الذي جعل منهجه ترتيبها على حسب الرواة مخالفاً ترتيب البخاري الذي جعله على أبواب الفقه وله غير ذلك عدد من المؤلفات ، بدأ في جمعه عام ١٨٠هـ واستمر حتى أواخر حياته وكان يقول لابنه :

احفظه فانه سيكون للناس اماماً ، وتكاد تكون حيـــاة ابن حنبل علماً كلها مصداقاً لقوله « أنا أطلب العلم الى أن أدخـــل القبر ، يقول كنت وأنا غلام اختلف الى الكتاب ، ثم اختلفت الى الديوان ، وأنا ابن أربع عشرة ، وقد تلقى الحديث ببغداد حيث ولد عـــام ١٦٤ بين عامي (١٧٩ – ١٨٦) على هشيم بن بشر بن ابي حازم الواسطي .

يقول محدثاً عن نفسه : « كنت ربما أردت البكور في الحديث فتأخذ أمي بثيابي وتقول : حتى يصبح الناس » .

ولم يقف أمره عند بغداد ، بل رحل في طلب العـــلم الى الحجاز واليمن والكوفة والتقى في رحلته بالشافعي وأخذ عنه الفقـــه وأصوله والناسخ والمنسوخ وعاود الذهاب الى البصرة خمس مرات .

وكان حفيا بأن يلقى الاعلام والنوابغ ، فلم يقصره عن ذلك إلا المال وكان يقترض من أجل رحلة العـلم ، وكان يأسف ان لا يجد ما يقترضه .

تمنى ان يذهب الى الري ويلقى عالمها جرير بن عبد الحميد ، يقول : لو كانت عندي خمسون درهماً كنت خرجت اليه ، غير أنه التقى به في بغداد حين زارها جرير وأخذ عنه .

وقد شاع عن ابن حنبل انه ضيق أفق الفقه ، وتلك تهمـة أراد بها مروجوها ، تشويه وجه هذا الامام الذي صمد للحق ،

وغير وجه التاريخ والحق ان أحمد كان مجتهداً دعا الى التجديد وهاجم التقليد والبدعة « إنما أمرنا ان نأخذ العلم من فوق أعني بالأدلة لا بالتقليد ، وقال : ان القياس لا يستغنى عنه ، ولقد كان ابن حنبل رفيقاً ولم يكن جامداً، وكان سمحاً ولم يكن متجهماً، وفرق بين الاصرار والحق وبين التجهم ، وفرق بين الزهد والجمود .

وقد صور ابن القيم مذهب ابن حنبل في الفقه فقال ان فتاواه مبنية على خمسة أصول (١) النصوص ، فاذا وجد النص افتى بموجبه ولم يلتفت الى ما خالفه (٢) ما افتى به الصحابة (٣) إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها الى الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم (٤) الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه (٥) القياس واستعمله عند الضرورة .

وبعد فان أبرز شمائل (ابن حنبل) تتجلى في ثلاثة مواقف :

١ – الرفعة عن عطاء الناس :

قال صالح : دخلت على أبي أيام الواثق والله يعلم كيف حالنا فاذا تحت يده ورقة فيها ، يا أبا عبد الله ، بلغني ما أنت فيه من الضيق وقد وجهت اليك باربعة آلاف درهم ، فلما رد ابي من صلاته قال : – تذهب بجوابه فكتبت الى الرجل : وصل كتابك ونحن في

عافية ، أما الدين فلرجل لا يرهقنا واما العيال فهم في نعمة الله .

٢ – الايثار :

عطش في سجنه مرة فطلب من صاحب الشراب ماء فجيء بماء مثلج فأمسك بالماء ونظر اليه وتركه دون شراب ، قال السجان : لماذا لا تشرب : قال أعندك شراب يكفيني ومن معي في السجن : قال لا ، قال : كيف أشرب ومن معي في السجن لا يشربون .

٣ – العفو :

دخل خصمه ابن أبي دؤاد وهو جالس مع المتوكل وقد نبذ من العامة وعزل من الوظائف فسأل عنه فلما تكلموا في أمره رفض أن يقول كلمة او اشارة ، وعفا عن خصومه ، قال «ماعلى رجل الايعذب الله بسببه أحد»

مؤلفاته :

١ – العلل ، الفرائض ، الناسخ والمنسوخ ، الزهد ، الايمان، الاشربة ، الفضائل ، طاعة الرسول ، الرد على الجهمية، المناسك.

٢ – المسند .

توفي ٢٤١ هـ ٨٥٥ م

الشافعي

« محمد بن ادريس »

واضع علم اصول الفقه

(١٥٠ — ٢٠٤) هـ

« العلم بين اهله رحم متصلة، من أراد الدنيا فعليه بالعـلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، لو علمت ان شرب الماء البارد يثلم مروءتي ما شربته »

الشافعي

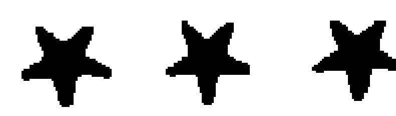
الشافعي

عرف « الشافعي » بأنه أحد الأئمة الأربعة ، وارتبط في الفقه بمذهب عرف باسمه . غير أن مقام الشافعي في مجال الفكر العربي الاسلامي اعظم من ذلك بكثير . ان مكانه يرتبط بالدور الذي قام به أساساً في مجال التجديد والاجتهاد . وامتصاص الرأيين المتنازعين في عصره . وتذويبهما في عصير واحد ونقل الخطين المتباعدين لالتقائهما في طريق واحد . ذلك روح عظمته وقمة عبقريته في رأينا . وكذلك كان أمر النوابغ الاعلام في الفكر العربي الاسلامي ، يهضمون في كيانهم مختلف الفروع التي خرجت من المنابع الاصلية محاولين اعادة تشكيلها من جديد على نحو يحفظ لها الشمول ويمدها بالقوة ويحميها من التمزق ذلك أن عظمة الفكر العربي الاسلامي انما تتمثل في تلك الوحدة وذلك الشمول وهذا الالتقاء بين الاجزاء والامتزاج بين القيم . فاذا وقع الصراع بين قطاعين كان ذلك مقدمة للتمزق ، هنالك يبرز ذلك الامام المجدد الذي يعيد تشكيل الفكر العربي الاسلامي بعد أن يمتصه ويسيغه ، ويصوغه من جديد ليرده الى

جوهره ، ويجعله قريباً من مقوماته ، بما يضمن له الحياة والحركة والقدرة على مواجهة تطور الأزمان واختلاف البيئات ولتبقى له حيويته القادرة على التقدم والايجابية .

ذلك في نظرنا مفهوم التجديد والاجتهاد ، ومن هذا تبرز عظمة محمد بن ادريس الشافعي ، ليس كمؤسس مذهب في الفقه ولكن كامام أعطى الفكر العربي الاسلامي حقيقة وجوده بما يكشف عن جوهره ويحفظ له شموله ويرد عنه التمزق والصراع . ولقد كان الناس قبل الشافعي فريقين : أصحاب الحديث وأصحاب الرأي ، أما اصحاب الحديث فكانوا حافظين لاخبار رسول الله إلا أنهم عاجزون عن النظر والجدل ، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأي سؤالاً او اشكالاً أسقط في أيديهم عاجزين متحيرين ، اما أصحاب الرأي فكانوا أصحاب النظر والجدل إلا أنهم كانوا عاجزين عن الآثار والسنن. كان أصحاب الحديث في المدينة يمثلهم الامام مالك وأصحابه ، وكان أصحاب الرأي والقياس في العراق يمثلهم الامام أبو حنيفة وتلاميذه ، ولقد استطاع الشافعي أن يمتص ما في تربة عصره من عصارة المدرستين ، فقد اجتمع له فقه الحجاز وفقه العراق، والتقى بمالك وصاحبه تسع سنين ، والتقى بتلاميذ أبي حنيفة وأخذ عنهم فاجتمع له علم الحديث وعلم الرأي وقد مزج ذلك كله وصنع منه شيئاً جديداً كان قمة في مجال الفكر العربي الاسلامي ذلك هو : أصول علم الفقه .

كان الشافعي عارفاً بسنة رسول الله محيطاً بقوانينها ، وكان عارفاً بآداب النظر والجدل ، قوياً فيه . وكان فصيح الكلام ، قادراً على قهر الخصوم بالحجة الظاهرة ، مجيباً على كل ما يسأل عنه بأجوبة شافية ، وكان الناس قبل الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلي ، مرجوع اليه في معرفة دلائل الشريعة في كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، ومن هنا اتيح لهذا العالم النابغة أن يستنبط علم أصول الفقه ،ويضع قانوناً كلياً يرجع اليه في معرفة أدلة الشرع .



تلك هي مكانة الشافعي في الفكر العربي الاسلامي ، قوة من قواه تتمثل في عمل كبير ، قوامه اعطاء هذا الفكر جوهره ، ومنابعه ، وابرز مفاهيمه وهو « الشمول » والتقاء الاجزاء فيه وتفاعلها ، بدلاً من صراعها وتمزقها ، وقد اتاح له هذه القدرة على امتصاص ما في تربة جيله وتمثله وإعادة صياغته ذكاء وبلاغة وشخصية » .

قال عبد الله بن احمد بن حنبل : قلت لابي : أي رجل كان الشافعي : قال : كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للبدن . وفي تذكرة الحافظ : كان الشافعي من احذق قريش بالرمي ، وكان يصيب من العشرة عشرة وكان قد برع في ذلك

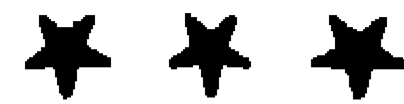
وفي الشعر واللغة وأيام العرب ، ثم اقبل على الفقه والحديث ، وجود القرآن، وكان يختمه في رمضان ستين مرة ، عرف بانه غاية في القوة والسمو والحيوية ، وتعدد الجوانب وسعة الأفق ، وكان محبباً الى نفوس عارفيه وكان اشعاعه ولباقته وحسن حديثه يكسبه حب الناس وثقتهم ، وقد توافرت له صفات العالم الامام المجتهد ، هذه الصفات التي تتمثل فيما اثر عنه من طول أناة وحلم ، وابتسام ثغر ، واشراق وجه ، وبعد عن غضب ، مع تواضع و خفض جناح الرأي ، يعذر مخالفيه في الرأي ويقبل منهم .

ويرجع ذلك في الاغلب الى تلك الاصالة النفسية التي كونت « طابعه » طابع الرياضي فقد قال عن نفسه : كانت همتي في الرمي والعلم ، وقد نقل أسلوب الرياضيين من ميدان الرمي الى حلبة الفقه ، فكان واسع الصدر إزاء معارضيه، قال المبرد : كان الشافعي أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات، وقال احمد بن حنبل « ما أحد ممن بيده محبرة وورق ، إلا وللشافعي في رقبته منه » .

وقد روي عن ذكائه والمعيته وسرعة حفظه الكثير ، مما زاد في اشعاع شخصيته ، حتى قيل انه مفرط الذكاء وسيلان الذهن ، أضف الى ذلك ما روي من أن صوته كان أشبه بالصنج أو الجرس ، فكان اذا قرأ القرآن التف حوله الناس وعجوا بالبكاء . قال بعض اتباعه : كنا إذا أردنا أن نبكي . قلنا قدموا

لك هذا الفتى المطلبي الذي يقرأ القرآن ، فاذا أتينا واستفتح القرآن تساقط الناس بين يديـــه ، وكثر عجيجهم من حسن صوته .

وفي تاريخ بغداد : ان الشافعي لما دخل بغداد وجـــد في الجامع ما يقرب من خمسين حلقة ، يقول لهم : قال الله وقــال الرسول ، وهم يقولون : قال أصحابنا حتى ما بقي في المسجد حلقة غير حلقته ، وفي مصر حين جاءها حببه خلقه الى أهــل مصر والنبلاء والاعيان فكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح فيجيئه أهل (القرآن) فيسألونه ، فاذا طلعت الشمس قاموا ، وجاء أهل « الحديث » ليسألوه ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا ، ثم تستوي الحلقة للمناظرة والمذاكرة ، فاذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يأتي المساء ، والشافعي جالس في حلقته لا يضيق بالعلم ولا بالناس .



وقد جرت الحكمة على لسانه، واعطي براعة الأداء،وبلاغة العبارة حتى قال عنه الجاحظ : نظرت في كتب هؤلاء النبغـة الذين نبغوا في العلم فلم أر احسن تأليفاً من المطلبي ، كان لسانه ينثر الدر :

يقول : تمنيت من الدنيا شيئين : العلم والرمي ، أما الرمي فاني أصيب من عشرة عشرة ، والعلم فما ترون ، ان للعقل حداً

ينتهي اليه ، كما ان للبصر حداً ينتهي اليه ، ومن أراد الدنيافعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ما أفلح في العلم إلا من طلبه من القلة ، ومن طلب علماً فليدقق ، وإلا ضاع دقيق العلم ، زينة العلماء التوفيق وحليتهم حسن الخلق وجمالهم كرم النفس، لو علمت ان شرب الماء البارد يثلم مروءتي ما شربته، ما اكرمت أحداً فوق مقداره إلا اتضع من قدري عنده بمقدار ما زدت من اكرامه ، الحسب ينهى دائماً عن دنايا الامور، من لم تعزه التقوى فلا عزله ، ليس لي ولا لعالم ان يقول في اباحة شيء ولا حظره ولا أخذ شيء من احد ولا اعطاه . العلم بين أهله رحم متصلة .

أبرز احداث حياة الشافعي « رحلته » تلك التي صنعت طريقه وصاغت فكره ، بين المدينة والعراق ومصر ، كانت جولاته ، فقد ولد بغزة بفلسطين ورحل منها الى مكة ابن سنتين ، ثم رحل الى المدينة وسافرإلى اليمن ، ثم حمل الى بغداد أسيراً في تهمة ، ثم عاد الى مكة ، وقصد مرة أخرى الى بغداد ثم الى مصر ، حيث أقام بقية حياته ، ولقد انضجت الرحلة ذهن الشافعي ، وصاغت فكره، وامدته بقوة روحية ونفسية رائعة ، واتاح له ذكاؤه المتقد ، وقدرته العقلية ، ومرونة طبعه ، ان يستوعب ثقافة عصره ، وان يلتقي بأعظم رجال جيله : مالك،وابي يوسف تلميذ ابيحنيفة،وابن حنبل ، وأن يهضم مذهب أهل الحديث وأهل الرأي وأن – يمزج بينهما ويصوغ علم أصول الفقه ، وكان له مذهب في العراق ، فلما قدم

الى مصر أعاد صياغة مذهبه ، ويكاد يكون الشافعي رابطـــة العقد بين فقهاء عصره ، فلقد ولد في العام الذي توفي فيــه ابو حنيفة ، وتلقى على مالك في المدينة فبهره بجودة حفظه والمعية ذكائه ، وفي العراق التقى بأبي يوسف ووكيـــع ، وكان ابن حنبل من تلاميذه ، يقول الشافعي في تصوير حياتــه : ولدت بغزة وربيت في الحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعـاً قـــط .

ولندع الشافعي يحدثنا عن رحلته :

« فارقت مكة وانا ابن أربع عشرة سنة ، لانبات بعارضي من الابطح الى ذي طوى ، وعلي بردان يمانيان ، فرأيت ركباً منيحة ، سلمت عليهم فردوا علي السلام ، فوثب الي شيخ كان فيهم ، قال : سألت بن القيت علينا سلامه إلا مـــا حضرت طعامنا ، واخذ القوم في السير ، واخـــذت أنا في الدرس ، فختمت من مكة الى المدينة ست عشرة ختمة ، ختمة بالليـــل وختمة بالنهار ، ودخلت المدينة في اليوم الثامن بعد صلاة العصر فأتيت مسجد رسول الله ، فرأيت (مالك بن أنس) مؤتزراً ببردة متشحاً باخرى ، وهو يقول : حدثني نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر ، فلما رأيت ذلك هبته الهيبة العظيمة ، وجلست حيث انتهى المجلس ، فاخذت عوداً من الأرض فجعلت كلما أملى مالك حديثاً كتبته بريقي على يـدي ، ومالك ينظر الي من حيث لا أعلم ، حتى انفض المجلس وجلس مالك ينتظر

العشاء المغرب ، ولم يرني انصرفت فيمن انصرف ، فاشار الي بيده فدنوت منه فنظر الي ساعة ثم قال لي : أحرمي أنت ، قلت : وقرشي قال: كملت صفاتك ، فلم رأيتك سيء الأدب، فقلت وما الذي رأيت من سوء أدبي قال : رأيتك وأنا أملي الالفاظ لرسول الله ، وأنت تلعب بريقك في يدك ، قلت عدم الورق ، وكنت أكتب ما تقول : فجذب مالك يدي ، فقال : مالي لا أرى عليها شيئاً ، قلت : ان الريق لا يثبت على اليد ، ولكني وعيت جميع ما حدثت به ، منذ وقت جلست الى حين قطعت ، فعجب مالك من ذلك فقال : أعد علي ولو حديثاً واحداً ، قلت : حدثنا مالك بن نافع عن ابن عمر ، وأشرت بيدي الى القبر كاشارته عن النبي حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثاً حدث بها من وقت جلس ، الى وقت قطع المجلس . وسقط القرص ، وصلى مالك المغرب وسألني النهوض معه فقمت غير ممتنع الى ما دعاني اليه ، فلما أتيت الدار ادخلني الغلام الى مخدع وقال لي : القبلة في هذا البيت هكذا ، وهذا اناء فيه ماء ، وهذا الخلاء من الدار ، فما لبثت غير بعيد حتى أقبل والغلام حامل طبقاً فوضعه في يده ، وسلم على مالك ، ثم قال للعبد اغسل علينا ، فوثب العبد الى الاناء ، وأراد أن يغسل علي أولاً فصاح عليه مالك ، وقال : في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف ، وكشف مالك الطبق وكان فيه صحفتان في أحداهما لبن وفي الأخرى تمر ،

فسمى وسميت ، قال الشافعي : فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام ، وظن مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية ، فقال لي يا أبا عبد الله ، هذا جهد من مقـل ، اني فقير معدم ، فقلت لا عذر على من أحسن انما العذر على من أساء ، فاقبل مالك يسألني عن أهل مكة ، حتى دنا العشاء الآخرة ، ثم قال : حكم المسافر أن يحمل نفسه بالاضطجاع فنمت ليلتي ، فلما كان الثلث الاخير من الليل عند انفجار الصبح ، قرع مالك علي الباب فقال لي : الصلاة يرحمك الله ، فرأيته حاملاً اناء فيه ماء ليسبغ علي ذلك فقال لي: لا يرعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض، فتجهزت للصلاة ، وصليت الفجر مع مالك في مسجد رسول الله، والناس لا يعرف بعضهم بعضاً ، وجلس كل واحـد منـا في مصلاه ، فسبح الله الى أن طلعت الشمس ، على رؤوس الجبال ، فصلى كل امرىء منـا ما قسم له ثم جلس في مجلسه بالأمس ، وناولني الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبون ، فاتيت على حفظه من أوله الى آخره من القراءة وأقمت ضيفاً على مالك ثمانية أشهر، فما علم أحد من الانس الذي كان بيننا اينا الضيف، ثم قـدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم زائرين لنبيهم وليسمعوا « الموطأ » فأمليته عليهم حفظـاً ومنهم عبد الله بن الحكم ، وقدم أهل العراق فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً فسألته عن اسمه فاخبرني وسألته عن بلده فقال : العراق فقلت من العالم

فيها والمتكلم في نص كتاب الله ، قــال : محمد بن الحسن وابو يوسف صاحب ابي‌حنيفة ، فقلت : ومتى عرفتم تظعنون . قال : في غداة غد عند انفجار الفجر فعدت الى مالـك فقلت له : قد خرجت من مكة في طلب العلم بعد استئذان العجوز ، فأعود اليها او أرحل وفي طلب العلم فائدة ، قال : ألم تعلم ان الملائكة تضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، فلماازمعت السفر زودني مالك .

وفي العراق لقيت محمد بن الحسن ، فما بات حتى كساني خلعـــة بألف درهم ، ودخل الى خزائنه فاخرج لي الكتاب الاوسط تأليف ابي حنيفة فنظرت في أوله وآخره ثم ابتدأت الكتاب في ليلتي التحفظه ، فما اصبحت إلا وقد حفظته ومحمد ابن الحسن لا يعلم بشيء من ذلك ، وفيما أنا ذات يوم قاعد عن يمينه إذ سئل عن مسألة ، أجاب فيها تقليداً او قال هكذا قال ابو حنيفة ووهم عليه الجواب فقلت له : الجواب غير هذا فـلو ان قلت فيه بالتقليد لاحسنت أدب المجالسة ، ولكنك وهمت ، والجواب من قول الرجل في هذه كذا وكذا وعندمـــا هممت بالسفر امر غلامه أن يأتي بكل ما في خزائنه من بيضاء وحمراء ومن الورق فدفع الي ما كان فيه وهو ثلاثـــة آلاف درهم ، وأقبلت اطوف العراق وأرض فارس وبـلاد الاعاجم ، والقى الرجال حتى كنت ابن احدى وعشرين سنة وسرت على ديار ربيعـة ومصر ومنها الى حران فالرملة فالحجاز . وصليت

العصر بمسجد رسول الله ورأيت كرسياً من الحديد عليه مخدة من قباطي مصر وحوله اربعمائة دفتر أو يزيدون شيئاً. وأنا كذلك إذ رأيت مالك بن انس قد دخل من باب النبي وقد فاح عطره في المسجد وحوله أربعمائة أو يزيدون فلما وصل قام اليه من كان قاعداً وجلس على الكرسي والقى مسألة في خراج العمل. فقمت قائماً في سور الحلقة ورأيت انساناً فقلت له : قل الجواب : كذا وكذا فبادر الجواب قبل فراغ مالك من السؤال ، فاطرق عنه مالك ، واقبل على اصحابه فسألهم عن الجواب فخالفوه فقال لهم : اخطأتم وأصاب الرجل . فلما سأل مرة أخرى قلت له الجواب فبادر به ، والسؤال الثالث ... فنادى مالك بأعلى صوته أن ادخل ، ليس هذا موضعك ، فدخل الرجل طاعة منه لمالك وجثا بين يديه ، قال له مالك : قرأت أو سمعت الموطأ ؟ قال لا ، هل نظرت في مسائل ابن جريج ؟ قال لا . هل لقيت جعفر الصادق ، قال لا ، قال : فهذا العلم من أين لك ؟

قال : الى جانبي غلام شاب يقول لي : قل الجواب كذا فالتفت مالك والتفت القوم بأعناقهم لالتفات مالك. قال مالك قم ومر صاحبك بالدخول علينا فدخلت فاذا مالك بالموقع الذي كان فيه الرجل جالساً بين يديه فتأملني ساعة فقال لي : انت الشافعي؟ ، قلت نعم ، فضمني الى صدره ونزل عن كرسيه وقال ، اقعد فأتم هذا الكتاب الذي نحن فيه حتى انصرف الى

المنزل وأثوب اليك .

فالقيت اربعمائة مسألة في خراج العمل فما أجابني أحـــد بجواب فاحتجت ان آتي بأربعمائة جواب ، وقلت الاول كذا، والثاني كذا ، وسقط القرص وصلينا العشاء والمغرب ، فضرب مالك بيده الي فلما وصلنا المنزل رأيت بناء غــير البناء الاول فبكيت فقال لي : مم بكاؤك ، كأنك خفت يا أبا عبد الله ممـا ترى اني بعت الآخرة بالدنيا .

قلت : هو والله ذاك ، قال فطب نفساً وقر عيناً هذه هدايا خراسان وهدايا مصر تجيء من أقاصي الدنيا . وقد كان النبي يقبل الهدية ويكره الصدقة . وأراني ثلاثمائة حلقـــة من رق خراسان وقباطي مصر وخمسة آلاف درهم أخرج منها زكاتها كلما يحول عليها الحول . وقال لك نصفها هدية فأقمت ثلاثاً ثم ارتحلت الى مكة .

فلما وصلت الى الحرم خرجت العجوز يرحمهـــا الله ونسوة معها فلقيتني وضمتني الى صدرها ، فلما هممت بالدخول ، قالت لي العجوز الى أين عزمت : قلت الى المنزل ، قالت لي : هيهات تخرج من مكة بالأمس فقيراً لا مال لك ثم تعود اليها مثريـــاً مفتخراً علي ، اضرب قبابك في الابطح وناد في العرب انــك تشبع الجائع ، وتحمل المنقطع وتكسو العاري ، تربح ثناءالدنيا وثواب الآخرة ففعلت ما أمرت ، وسار بذلك الفعل الرجــال الى آباط الابل ، وبلغ ذلك مالكاً فكتب الي يستحثني على هذا

الفعل ، ويعدني انه يحمل الي في كل عام مثل ما حمل ، وأقـــام مالك يحمل الي كل عام مثل ما كان دفع الي أول مرة وظيفـــاً احدى عشرة سنة. فلما مات رحمه الله ضاق بي الحجاز وخرجت الى مصر فعوضني الله » .



في ضوء هذه الصورة تتكشف نفسية الشافعي وروحـــه ويتضح أثر الرحلة في فكره وثقافته ومنهجه . فقد أتاحت له لقاء أهل المدرستين البارزتين في الفكر العربي الاسلامي في عصره فأخـــذ منهما واستوعب وامتص وأساغ ، وأخرج من مزيجهما فكراً مجدداً ، قوامه ابراز طابع الاسلام في شموله والكشف عن جوهره والارتباط بمنابعه السمحة الوضاءة .

ومن هنا كان الشافعي أول واضع علم أصول الفقــه ، حتى قال الرازي ان نسبة الشافعي الى علم الأصول كنسبة أرسطو الى علم المنطق ونسبة الخليل الى علم العروض ، والشريعة عنـــد الشافعي تضم علمين : علم العامة وعلم الخاصة أما علم العامـة فهو إيجاب الصلاة والصوم والزكاة وتحريم الزنا والقتل والسرقة وشرب الخمر ، وهذا العلم موجود في القرآن نصاً لا تأويل فيه وواضح في السنة المتواترة عن النبي ، أما علم الخاصة فهو مـا يعرض للناس من فروع الشريعة مما ليس فيه نص من كتاب أو حيث يوجد نص يحتمل التأويل .

وهـذا علم لا يقوم به إلا الخاصة ممن اوتوا علم الكتاب والسنة واخبـــار الصحابة واختلاف الناس ممن لهم حق « الاستنباط ».

والعلم عند الشافعي خمسة انواع (١) الكتاب والسنة (٢) الاجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة وهو اجمـاع الفقهاء الذين أوتوا علم الخاصة ولم يقتصروا على علم العامة (٣) قول بعض أصحاب النبي رأياً من غير أن يعرف أن احداً خالفه (٤) اختلاف أصحاب رسول الله في المسألة ، فيأخذ من قول بعضهم ما يراه أقرب الى الكتاب والسنة أو يرجحه قياس (٥) القياس على أمر عرف حكمه بواحد من المراتب السابقـــة : الكتاب والسنة والاجماع على ترتيبها .

والشافعي هو أول من تكلم عن « القياس » ضابطاً لقواعده مبيناً أسسه وهو (الرأي) وقد استخرج قواعد الاستنباط ورسم الحدود للمجتهد وضوابط الاجتهاد .



بدأ الشافعي رحلته عام ١٦٤ هـ وبلغ مصر واستقر بها سنة ١٩٩هـ في سن التاسعة والاربعين وقد نضج عقله واكتملت ثقافته وعايش اعلام الفكر العربي الاسلامي في مكة والمدينة واليمن والعراق ، وقد كان يرحل من أجل العلم وحده ، يقول خرجت

الى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها، وفي كل مكان ذهب اليه ناظر أهل العلم كاشفاً عن منهجه ، مصححاً للمفاهيم وكان في مناظرته حفياً بان يبلغ العلم ، لا أن ينتصر بالجدل، يقول: ما ناظرت احداً فأحببت ان يخطىء، وما في قلبي من علم إلا وددت أنه عند كل أحد ولا ينسب الي ، ووددت ان كل علم اعلمه تعلمه الناس ، وكان يقول دائماً : كل ما قلت لكم فلم تشهد عليه عقولكم وتقبله وتره حقاً فلا تقبلوه فان العقل مضطر الى قبول الحق .

ويقول : ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة ،وان اصبتم الحجة في الطريق مطروحة فاحكوها عني فاني قابل بها .

وقد اخلص الشافعي للحق ، وبعد عن الزهو والخيلاء،حتى تمنى ان ينتفع الناس بعلمه دون أن ينسب اليه .

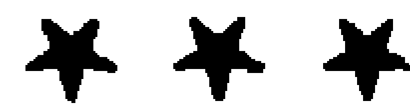
يقول هارون بن سعيد ما رأيت مثل الشافعي ، قدم علينا مصر فقيل قدم رجل من قريش فجئناه ، وهو يصلي فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجهاً ، فلما تكلم ما رأينا أحسن من كلامه فافتتنا به .

وفي مصر واجه الشافعي اتباع مالك واتباع ابي حنيفة ، وجدد مذهبه وأملى خلال اقامته بها وهي أربع سنوات ألفاً وخمسين ورقة ، وخرج كتاب « الام » في ألفي ورقة، وكتاب السنن وأشياء كثيرة، وفي سبيل الحق الذي يعتقده لقي المتاعب والخصومات والح عليه مرض الباسور في أيامه الاخيرة،وأجهده،

واشتدت به العلة ، ولكنه ظل حتى لحظاته الاخيرة يقظ العقل: دخل عليه الربيع بن سلمان وهـــو مريض فقال له : قوى الله ضعفك فقال الشافعي : لو قوي ضعفي لقتلني فقال : والله مـا أردت إلا الخير قال اعلم ، ولكن قل قوى الله قوتك، وضعف ضعفك أو قوى الله من ضعفك .

ولقد كان يقول كعصارة لتجربته مع الناس «انه ليس الى السلامة من الناس سبيل فانظر الذي فيه صلاحك فالزمه.»

ولقد بلغ به حبه للحق ان خالف مالكاً ، حين رأى بعض الناس يقدسون آثاره وثيابه، ووجد من يتحدث بحديث رسول الله فيعارضونه بقول مالك . فألف كتاباً في نقد هذا المسلك ، قال الفخر الرازي ان الشافعي انما وضع الكتاب عن مالك لأنه بلغه ان بالاندلس قلنسوة لمالك يستسقى بها وكان يقال لهم قال رسول الله فيقولون : قال مالك، فقال الشافعي ان مالكاً آدمي قد يخطىء ويغلط ، وأراد أن ينقده ولكنه كره ذلك واستخار الله فيه سنة كاملة ، وقد جر ذلك عليه المتاعب فان المالكيين في مصر ثاروا عليه وطعنوا فيه .



وقد عاش الشافعي حياة العالم الورع ، الذي يضرب المثـل بخلقـه وسلوكه ، كان أسخى الناس بما يجد ، أسخى الناس على الدينار والدرهم والطعام يقول : افلست في عمري ثلاث افلاسات

فكنت أبيع قليلي وكثيري حتى حلي ابنتي وزوجتي ولم أرهن قط.

وكان الى ذلك عارفاً بحق علمه على نفسه ، يقول ما شبعت منذ ست عشرة سنة، لان الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويرسل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة .

ولقد مات فقيراً ولم يترك شيئاً يذكر ، وكان قد أجهد نفسه في أعوامه الاخيرة اجهاداً بلغ به الى غايته ، ولكنه ترك علماً وافراً ، وترك نموذجاً من الخلق العربي الاسلامي فقد كان كما وصفه اصحابه : عربي النفس عربي اللسان .

توفي ٢٠٤ هـ - ٨١٩ م

من مؤلفاته : الرسالة
: كتاب الام
: كتاب السنن
: احكام القرآن
: المسند في الحديث
: فضائل قريش
: آداب القاضي
: السبق والرمي

« أبو حنيفة »

(النعمان بن ثابت)

٨٠ — ١٥٠

الامام الاعظم

«لقد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولايكتمونه، لا يكون العالم له خواص ، ولكن يعلم الناس ويريـــد الله بتعليمه ، هذا رأينا احسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا احسن من قولنا فهو اولى بالصواب منا ».

(ابو حنيفة)

« ابو حنيفة »

- ١ -

يعطي الامام الاعظم : النعمان بن ثابت « ابو حنيفة » للفكر الاسلامي قاعدة راسخة تمثل ركناً ركينا في الفقه الاسلامي ، تلك هي القدرة العقلية البارعة لإيجاد الحلول ، والتماس الاجابة الشرعية لكل معضلة أو مسألة أو قضية على نحو يحفظ للاسلام مكانه وجلاله ، ويفتح للانسان الطريق الى التيسير في العبادات ، والمعاملات ، رافعاً مكانة الانسان مكرماً إياه حافظاً لانسانيته ، حامياً للفقير والضعيف .

نعم ، كم أعطى هذا الامام الاعظم الفارسي الاصل ، الذي كان من الموالي في لغة عصره ، كم أعطى للمسلمين علماً وعقلاً وبراعة وحلولاً لأمور حياتهم في لغة عصره ، كم أعطى للمسلمين علماً وعقلاً وبراعة وحلولاً لأمور حياتهم في بيئة الحضارة وصراع المذاهب والفلسفات ، وكم أفسح للفكر الاسلامي من طريق الى الاجتهاد والتفتح والانطلاق ، إزاء معضلات المجتمعات

هذا باب جديد فتحه أبو حنيفة على مصراعيه وكان معروفاً من قبله في فتاوى عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، ولكنه هو الذي اعطاه « المنهج » وجعله علماً خالصاً ، وأداة صحيحة ، قادرة على مواجهة التطور والحضارة وبه مدت الشريعة الاسلامية اجنحتها ووسعت آفاقها .

ولم يكن الأمر في ذلك كله جديداً على أصول الاسلام الكلية ولا على أسس الشريعة الثابتة ولكنه كان من أمر الاسلام ومن معطياته ومنهله .

كانت أداة أبي حنيفة في عمله : القياس (ارادة الرأي) والعقل ، وبهما استطاع أن يقدم الاجابة على مائة ألف مسألة خلال خمسين عاماً من البحث والحوار .

وقد وصل « النعمان » الى هذا النهج ، واستقر في هذا « الطريق » بعد أن مر بمرحلة تنقل ومراجعة واستعراض عام للعلوم كلها ، في سبيل الوصول الى أيها أكثر نفعاً للمسلمين وأكثر عطاء ، واستجابة لحاجة الناس .

لقد كان في أول أمره تاجراً ، وقد ظل يعمل في التجارة بقية حياته ، غير أن الطريق انفتح أمام عقله وروحه على أثر لمحة سريعة وجدت منه استجابة فقد قابله قاضي الكوفة وكبير محدثيها الامام الشعبي وقال له :

الى من تختلف ، قال : اختلف الى السوق ، قال : لم أعن

الاختلاف الى السوق بل اعني الاختلاف إلى العلماء .

هنالك تفكر النعمان هنيهة ، وأكمل الامام الشعبي كلامه فقال :

« عليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء فاني أرى فيك يقظة وحركة » ومنذ ذلك الوقت انفتح له الطريق ، هـذا الطريق الذى سار فيه بقية حياته وأعطى المسلمين منه زاداً نافعاً ، مـا زال حياً معطياً .

ولكن الى أي فنون العلم يتجه ، والكوفة زاخرة بحلقاته ، وفنونه وهي — والبصرة — يومئذ تعج بالعلمـــاء ، وتتعاطى التفسير والفقه والكلام .

لقد ذهب ابو حنيفة ينظر في العلوم ، ليرى أيها أقرب الى نفسه ، ومزاجه ، هل يعلم القرآن ويحفظه للصبيان ، أم يسمع الحديث ويحفظه ، هل يلتمس حلقات النحو ، أم حلقات الشعر والعروض ، أم ينظر في الكلام .

لقد مرّ بهذه الحلقات جميعاً، ولكن لم يجد نفسه عند ايها، كان هنالك في نفسه ما هو أبعد من الوقوف عند تحفيظ القرآن ، أو الحديث ، أو النحو ، اما الشعر فقد كان يخشى أن يقفه على أبواب الأمراء ، أو يدفعه الى الهجاء أو قذف المحصنات .. ثم اتجه الى (الكلام) ثمة وتوقف عنده وقفة ، ومنه اتجه إلى عمله الكبير ، وباحته العظيمة في (الفقه) .

يقول: كنت اعطيت جدلاً في الكلام، وأصحاب الاهواء في البصرة كثير فدخلتها نيفا وعشرين مرة ، وربما اقمت بها سنة أو أكثر أو اقل ، ظنا أن علم الكلام أجل العلوم ، فلما مضى مدة من عمري تفكرت وقلت : السلف كانوا اعلم بالحقائق ولم ينتفضوا مجادلين ، وخاضوا في علم الشريعة ورغبوا فيه وعلموا وتعلموا،وتناظروا عليه فتركت الكلام واشتغلت بالفقه ورأيت المشتغلين بالكلام ليس سيامهم سيماء الصالحين قاسية قلوبهم غليظة افئدتهم :

هناك كان قد وجد مزاجه النفسي واتجاهه الفكري وطابعه العقلي الذي يتفق مع مكوناته الوراثية والبيئية يقول: حتى بلغت فيه مبلغاً يشار الي فيه بالاصابع ، وكنا بالقرب من حلقة حماد بن ابي سليمان فجاءتني امرأة فقالت :

رجل له امرأة « أمة » أراد أن يطلقها نفسه ، كم يطلقها :

فلم أدر ما أقول ثم أمرتها أن تسأل (حماداً) ثم ترجع فتخبرني :

فسألت حماداً فقال : يطلقها وهي طاهر من الحيض والجماع تطليقة ، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين ، فاذا اغتسلت فقد حلت للأزواج فرجعت فأخبرتني: فقلت لا حاجة لي في الكلام، ومضيت الى حلقة حماد . فكنت اسمع مسائله فأحفظ قوله، ثم يعيدها في الغد ، فأحفظها ويخطىء أصحابه .

فقال : لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غـــير ابي حنيفة فلازمته حتى مات .

ذلك هو استاذه : ابو اسماعيل حماد بن سليمان الذي لم ينس ابو حنيفة فضله حتى كان يدعو له مع أبويه بعد موته .

ولكن وقد استقر ابو حنيفة عند الفقه ، هـل كانت تلك العلوم كلها إلا روافد لذلك النهر الكبير ، وأدوات لذلك العمل العظيم ، لقد كان له المام واسع بالقرآن والحديث والتفسير والنحو وحتى الشعر كان عنده استمداد له ، أما علم الكلام فاذا كان قد شحنه فانه اعطاه تلك القدرة على السؤال والمحاجة والجدل ، ومن الحق أن يقال انه أخذ خير ما في الكلام من وسائـل الحوار ، وترك منه ما لا يتفق مع طبيعته :

كما أكسبه عمله في التجارة تجربة ضخمة في مجال المعاملات ، ولكنه من الخبرة في مجال تطبيق الاحكام الشرعية على واقـع العمل في شؤون الأخذ والعطاء .

- ٢ -

أصول مذهب ابي حنيفة هو الاجتهاد فيما لم يكن فيه نص من كتاب ولا سنة ولا قول صحابة ، وقد صور منهجه في الفقه فقال : اني آخذ بكتاب الله ان وجدته فما لم أجد فيه اخذت بسنة رسول الله والآثار الصحاح التي في أيـدي الثقات فاذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسوله أخذت بقـــول اصحابه من شئت وادع قول من شئت ثم أخرج عن قولهم الى قـول غيرهم فاذا انتهى الأمر الى ابراهيم والشعبي والحسني وابن ســـيرين وسعيد بن المسيب ، فلي أن اجتهد كما اجتهدوا .

وقيل له : إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالف قولك،قال : اترك قولي لكتاب الله ، قيل . فاذا كان خبر رسول الله يخالف قولك ، قال : اترك قولي بخبر رسول الله ، قيل فاذا كان قـول الصحابي يخالف قولك ، قال : اترك قولي بقول الصحابي، قيل فاذا كان قـول التابعي يخالف قولك : قال : إذا كان التابعي رجلاً فأنا رجل وكان يقول : إذا جاءنا الحديث عن رسول الله

أخذنا به وإذا جاءنا من الصحابة تخيرنا وإذا جاءنا من التابعين زاحمناهم .

وتصوير منهجه في صورة أخرى حين يقول: يعرض الحديث على عموميات الكتاب وظواهره ، والسنة ، فان خالفت ظاهر القرآن استبعدها وأخذ بالقرآن وان خالفت السنة استبعدها لأن القوي لا ينسخ بالضعيف، وكذلك يرفضها إذا خالفت العمل المتوارث بين الصحابة والتابعين .

وكان أبو حنيفة في عمله يضع أمامه أمرين : (١) الحفاظ على كرامة الانسان واطلاق ارادته ، وحريته مع رعاية جانب الفقراء والضعفاء . (٢) التيسير برفع الحرج ورفع المشقة بكل وسائله في العبادات والمعاملات .

وكان يقدم عمله هذا في تواضع عجيب فيقول : علمنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه .

وقيل له: هذا الذي تفتينا به الصواب بعينه، قال: ما ادري عسى أن يكون الخطأ بعينه .

وكان اسلوبه يتمثل في عدد من الأمور :

اعتبر العرف أصلاً من أصول الفقه، فيما لا نص فيه من كتاب ولا سنة .

تعيش المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الاثنين .

يبحث عـــن علل النصوص فيتحرى الحـكم الشرعي على مقتضاها لا على ظاهر الألفاظ .



لقد حرص أبو حنيفة على كرامة الانسان والطابع الانساني، فهو داعية الحرية وعدو القيد فهو لا يقر الحجر على الانسان إلا في حالات ثلاث : الجنون والصغر والرق ، أما السفيه فـــلا يحجر عليه ، ويرى ان اهليته أهلية كاملة، فالسفيه انسان حر في الأصل في تصرفاته والحجر يتأبى الحرية وفيه اهدار لانسانيته وهي أجل خطراً من المال الذي يراد حفظه بالحجر عليه ، كما لا يرى جواز الحجر على المدين المستغرق في الدين .

ويقرر أبو حنيفة للمرأة البالغة ارادتها وحريتها في الزواج بمن ترى الخير لها ان تتزوج به . فلا يجعل لوليها سلطاناً عليها ، يرى ان ولاية انسان على آخر لا يصح ان تفرض إلا لضرورة ، لانها تنافي الحرية التي هي حق انساني للنـــاس جميعاً . يقول : ان من حق المرأة الحرة البالغة أن تزوج نفسها من ترغب بكراً كانت أم ثيباً دون تدخل وليها لأن ذلك تصرف منها في خالص حقها ولئن كان لوليها حق الاعتراض في حالة عدم كفاءة الزواج.

ويقر شهادة أهـــل الذمة بعضهم على بعض ، سواء اتفقت مللهم أم اختلفت .

أما في العبادات فله تيسيرات واسعة في الوضوء والصـلاة ،

حتى أنه ليرى ان من صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة أو في حالة اشتبه فيها الأمر ، ثم ظهر انه خطأ ، صحت صلاته وليس عليه أن يعيدها. وييسر على المسافرين بل أوجب على المسافرين الصلاة القصر ايجاباً .

ويرى ان من صام يوماً في شهر رمضان وهو شاك انه منه أو من شعبان ثم علم بعد ذلك انه من رمضان صح صيامه .

وله تيسيرات في الزكاة وفي المعاملات (البيع والشراء) فهو يجيز تصرف الفصول إذا باع مثلاً شيئاً مملوكا لغيره ناظراً في هذا الى مصلحة المالك . ويجيز الكفالة بدين غير مسمى، كأن يقول الرجل للرجل : اضمن ما قضى لك به القاضي عليه من شيء ، وما كان لك عليه من حق ، ولا تجب الزكاة عنده على المدين الذي يستغرق دينه ماله كله .

وكان يقول : ان الحجر على السفيه أو ذي الغفلة غير جائز لأن الحجر عليهما اهدار لآدميتهما ، ويقول : ان مالك المال انسان حر بالغ عاقل مكلف بكل التكاليف الشرعية ولم تسقط عنه من الواجبات فكيف يمنع عنه ماله .

وهو إذ ييسر في الاحكام الشرعية يرفع الحرج عن الضرورة، ويعتبر الصحة أصلاً في العقود والتصرفات ، ويؤكد على حرية الانسان وكرامته .

- ٣ -

ماذا كان مفهومه للعلم وأسلوبه في الفتيا ، لقد كان يرى أن العمل تبع للعلم ، كما ان الاعضاء تبع للبصر ، وان العلم مع العمل اليسير انفع من الجهل مع العمل الكبير ، « ومثل ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية انفع من الجهالة مع الزاد الكبير » .

يؤمن بأن على من يتكلم في العلم ونقده ان يعلم ان الله تعالى سائله عنه ، وأكبر مفاهيمه في العلم خشيته من ان يكون في سبيل الرئاسة أو طلب المجد الشخصي وان من طلب من ظلم الرئاسة بالعلم لم يزل في ذل ما بقي ، مرددا قول النبي : « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار » .

ومفهوم العلم عنده انه خالص لوجه الله : يقول من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ولم يرسخ في قلبه ، ومن تعلمه لله بورك له في علمه ورسخ في قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه ، ويقول : ان بقيت عشر سنين من غير قوت ولا كسب فلا تعرض عن العلم

فانك إذا اعرضت كان عيشك ضنكا .

وقال ابو حنيفة : من ظن أنه يستغني عن العلم فليبك على نفسه .

وكان يوصي تلاميذه بأدق أمور التعامل في الفتيا مع الناس على نحو يكشف عن خبرة عميقة يقول لتلميذه أبي يوسف :

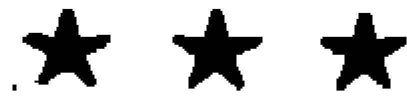
لا تحدث بفقهك من لا يشتهيه فيؤذي جليسك ومن قطع عليك حديثاً فلا تعده فانه قليل المحبة للعلم ، والكلام كثير ومحكمه يسير ، وان خير الكلام ما أريد به وجه الله .

ويقول : من جاء يستفتيك في المسائل فلا تجب إلا عن سؤاله ولا تضم اليه غيره . ومن ناقشك من العامة أو السوقة فلا تناقشه فانه يذهب ماء وجهك .

ويقول : من مرض من اخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسائلك ، ومن تكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن والجميل ، وافش السلام ولو على قوم لئام .

ويقول : متى جمع بينك وبين غيرك في مجلس او ضمك وإياهم مسجد وجرت المسائل أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لا تبد لهم منك خلافاً ، فان سئلت عنها أجزت بما يعرفه القوم ، ثم تقول فيها قول آخر، هو كذا وكذا،والحجة له كذا فان سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك ، فان قالوا هذا قول من ، قل بعض الفقهاء ، فان استمروا على ذلك وألفوه ، عرفوا

مقدارك وعظموا محلك ، وإياك والحقـد وان غدروا بك واد الامانة وان خانوك .



وكانت حلقته في مسجد الكوفة آية الآيات في الذوق والعلم والخلق . وقد اقامها ثلاثين عاماً أفتى فيها في مائة الف مسألة . وقد آلت اليه رئاستها بعد استاذه حمادة وهو في الاربعـين من عمره بعد أن شارك فيها مع استاذه عشرين عاماً .

وقد استن لخلفه منهجاً وأسلوباً فلم يكن يتحدث فيها عن الناس ، أو يخلط الحجاج بالذم والهجاء ، وما دخل عليه داخل وخاض في حديث الناس إلا قطع عليه خوضه ، ويقول : إياكم ونقل ما لا يحبه الناس من حديث الناس ، عفا الله عمن قال فينا مكروها ، ورحم الله من قال فينا جميلا .

وكان يفيض العلم خالصاً لله ، وقد جاءه رجـــل بكتاب شفاعة ليحدثه فقال :

ما هكذا يطلب العلم ، لقد أخذ الله الميثاق على العلمـــاء ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، لا يكون العالم له خواص، ولكنه يعلم الناس ويريد الله بتعليمه .

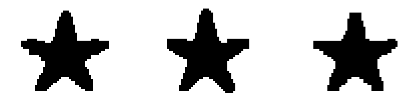
وإذا بدأ الحلقة ، ورأى امرأ غريباً بدأ بـه وقال : هات ما عندك .

وإذا بدأت المناظرة لا يتشبث بآرائه ، بل يطرح مسألة مسألة ، يسمعهم رأيه، ويسمع رأيهم ولا يقبل منهم أن يأخذوا كلامه امراً مسلماً به حتى يفهموه ويقتنعوا به ، فيقول :

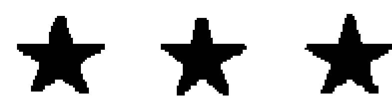
ـ لا يحل لمن يفتي في كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت .

ويقول : هذا رأينا أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا أحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا .

وقد اتسمت حلقته بالسماحة والرفق في النقد ، وكان قدوة في الادب والذوق ، والصبر ، اذ جمع العلم والمحبة ، والقصة والعبر ، ولا يذكر الخصم بالنقد . وكان يقول لاصحابه : ان لم تريدوا بهذا العلم الخير لم توفقوا .



ولطالما جابهته المواقف فاستطاع ان ينفذ اليها ويقول فيها كانما يخرج الحلول من كمه . فمن رأيه ان قراءة المصلين خلف الامام في الصلاة تكفي عنها قراءة الامام ، فقصد اليه رهط من أهل المدينة يحاجونه . قال لا يمكنني مناظرة الجميع فولوا اعلمكم ، فاختاروا لجداله اعلمهم ، قال: وهل إذا ناظرته أكون قد ناظرتكم قالوا بلى ، فقال : ان ناظرته لزمتكم الحجة لانكم اخترتموه ، فجعلتم كلامه كلامكم ، وهكذا نحن اخترنا الامام فقراءته قراءتنا وهو ينوب عنا فأقروا بالالزام .



وحضر مع العلماء وليمة رجل زوج ابنتيه من اخوين، فخرج لولي وهو يقول : أصابتنا مصيبة عظيمة ، غلطنا ، فزفت الى كل واحد غير امرأته ، واصابها ، قال سفيان : لا بأس بذلك كما حكم به علي كرم الله وجهه .

فقال : أرى على كل المهر بما اصاب من المرأة وترجع كل الى زوجها فاستحسن الناس فيه ذلك وابو حنيفة ساكت ، فقال له مسعر : قل فيها ، قال سفيان: وما عسى ان يقول خلاف هذا.

قال ابو حنيفة : علي بالغلامين فأحضرا .

فقال لكل واحد منهما : أتحب أن تكون عندك التي زفت اليك .

قال نعم : قال فما اسم امرأتك التي عند اخيك ، قال هي فلانة قال : قل هي طالق مني ، ثم زوج كلا المرأة التي مسها ، وأمرهم بتجديد عرس آخر . فعجب الناس من فتياه بذلك حتى قام مسعر فقبله ، وقال : لا تلوموني على حبه وسفيان ساكت لا يقول شيئاً .

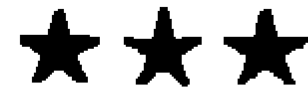
وكان آية في حلول المسائل المعقدة ، لما علم ان تلميذه أبا يوسف عقد حلقة خاصة بـه وترك حلقته أرسل له من يسأله فيقول :

ما تقول في رجل دفع الى قصار (خياط) ثوباً ليقصره ، بدرهم ، فصار اليه بعد أيام يطلب الثوب فأنكره ، ثم ان

صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب فرده اليه مقصوراً فهل له أجر .؟

وقال لمن أرسله : ان قال له أجر قل له اخطأت ، وان قال لا أجر له قل له أخطأت ، فلما فعل ذلك دهش أبو يوسف واسرع الى حلقة أبي حنيفة مستتيبا اياه ، وأدلى له ابو حنيفة بالحل الصحيح .

قال ان كان قصره بعد ما غصبه فلا اجر له لانه قصره لنفسه ، وان كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجر لأنه قصره لصاحبه .



وكان صبور النفس ، غاية الصبر ، حليما غاية الحلم ، جاءه شاب وعنده أصحابه فألقى عليه مسألة فأجاب فيها فقال له : اخطأت يا ابا حنيفة . فسكت ثم ألقى عليه مسألة أخرى فأجاب فقال : أخطأت يا ابا حنيفة . قال زائر في الحلقة : لأصحابه : سبحان الله ، كيف لا تعظمون هذا الشيخ ولا تجلونه حتى يجيء شاب أو غلام فيخطئه وانتم سكوت .

قال أبو حنيفة : دعهم فاني قد عودتهم هذا من نفسي .

وقيل له مرة في مجلسه : اتق الله فانتفض، وطأطأ رأسه ثم قال : يا أخي جزاك الله خيراً ما احوج الناس في كل وقت الى

من يذكرهم الله تعالى وقت اعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم .



وكان رابط الجأش في كل مواقفه مع الناس ومع غير الناس. كان بالمسجد يوماً فدخلت عليه طائفة من الخوارج شاهرين السيوف .

قالوا : يا ابا حنيفة نسألك عن مسألتين ، فان اجبت نجوت والا قتلناك ، قال اغمدوا سيوفكم فبرؤيتها ينشغل قلبي .

قالوا : كيف نغمدها ونحن نحتسب الاجر الجزيل باغمادها في رقبتك .

قال : سلوا اذن .

قالوا : احداهما رجل شرب الخمر فمات سكران والاخرى: امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة ،أهما مؤمنان، ام كافران .

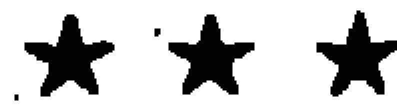
فسألهما : من أي فرقة كانا ، أمن اليهود : قالوا لا ، قال : أمن النصارى قالوا : لا ، قال : أمن المجوس : قالوا : لا قال : فممن كانا قالوا : من المسلمين ، قال : اجبتم قالوا : هما في الجنة أم في النار .

قال : اقول فيهما ما قال الخليل عليه السلام فيمن هو شر

منها : فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ، أو كما قال عيسى عليه السلام : ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ..

فنكسوا الرؤوس وانصرفوا . وقالوا : نبرأ الى الله مما كنا فيه ..

تلك رباطة جأشه مع الناس ، أما الحية التي سقطت في حجره وهو يتحدث فما زاد على ان نفض الحية وجلس مكانه ، بينما اضطرب الدرس وهرب الناس وانخلعت افئدة الفتيان وولوا فراراً وملئوا منها رعباً ، أما هو وهو الذي سقطت الحية في حجره فقد استقر مكانه لم يتخلخل ولا تحول عن مكانه ولا تغير .



ولقد كان يطول به البحث في المسألة الواحدة اياماً وليالي أو شهراً أو اكثر من شهر حتى انه في ذات ليلة خرج من صلاة العشاء ونعله في يده فكلمه زفر في مسألة فتحاريا يتقايسان حتى نودي لصلاة الفجر ،وهما قائمان فرجعا الى داخل المسجد ورجعا الى المسألة ولم يزالا على ذلك حتى استقرت المسألة على قول ابي حنيفة ، ويقول ابو يوسف : كنا نختلف في المسألة فيأتي أبو حنيفة فكأنما يخرجها من كمه فيدفعها الينا .

فاذا اشكلت عليه المسألة يقول : ما هذا الا لذنب جنيته ،

فيستغفر الله وربما قام وتوضأ وصلى ركعتين واستغفر فتخرج له المسألة .

وكان إذا وقف امام مشكلة تنفس الصعداء ثم قال : اللهم لا تؤاخذني ، ثم يفتي . فاذا جاءت المرأة تستفتيه نهض اليها من وراء السارية يتحدث معها ويفتي لها في أمرها ثم يعود الى تلاميذه فيطرح عليهم فتواه .

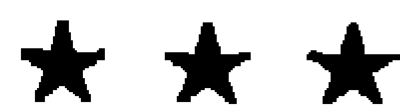
ويقول : انما غرضي ان احصنها من احداق الرجال .

وكانت المسألة تبدو اعقد من ذنب الضب كما يقولون فاذا هي بين يديه يسيرة سهلة .

جاءه رجل فقال : يا ابا حنيفة قصدتك في أمر قد اهمني وأعجزني. قال ما هو : قال : لي ولد ليس لي غيره فان زوجته طلق ، وان سريته اعتق وقد عجزت عن هذا فهل من حل .

فقال له للوقت : اشتر الجارية التي يرضاها هو لنفسك ثم زوجها منه ، فان طلق رجعت مملوكتك اليك ، وان اعتق اعتق مما لا يملك .

قال ابن شبرمة وكان كثير الازدراء عليه «فعلمت ان الرجل فقيه فمن يومئذ كففت عن ذكره الا بخير » .



وكان ابو حنيفة كبير النفس لا يضيره أن يقول : أخطأت في خمسة ابواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام .

عاش ابو حنيفة حياة خصبة عامرة بالعلم والفضل، فقد كان نموذجاً في العلم والخلق ، براعة علم وسماحة نفس ، وورع شديد الخشية لله، له صلابة في الحق، اما عطاؤه وبره فذلك أمر يفوق الوصف ، وخاصة عنايته بأصحابه وتلاميذه ، فقد كانت موارده الضخمة جميعها ينفقها في شراء حوائج الأشياخ المحدثين واقواتهم وكسوتهم .

اما هو فكان يكتفي بالقليل فلا يزيد نفقته عن أربعة آلاف درهم في العام وكان لا يشتري لنفسه وعياله كسوة او فاكهة أو غيرهما الا اشترى قبل ذلك لشيوخ العلماء مثل ذلك ، وما قبل ابو حنيفة لأحد من الامراء هدية أو جائزة .

وكان وهو التاجر الثري يخرج عن أكثر ماله للفقراء وما عداه لا يراه حقاً له ، وكان اصحابه يعجبون من صنيعه ، ويقولون : هذا الرجل (أي ابو حنيفة) وبيته عريان الامن البواري ، يوزع الالوف ويعرض عن اسباب المجد .

قال لأبي يوسف وقد غاب عن حلقته فترة من الزمن: ما شغلك عنا ، قال : قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي ، فلما انصرف الناس دفع الي صرة وقال : استمتع بها فاذا فيها مائة درهم قال لي : الزم الحلقة فاذا فرغت فاعلمني ، فلزمت الحلقة فلما

مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى، ثم كان يتعهدني وما بخل قط . ولا اجزته بنفاذ شيء .

قال أبو يوسف : وكان يعولني وعيـالي عشرين سنة ، وإذا قلت له : ما رأيت اجود منـك يقول : كيف لو رأيت حمادا وما رأيت اجمع للخصال المحمودة منه .

وكان أبو يوسف يذكره ويقول : اني لأدعو له قبل أبوي ، ويقول : تغمد الله أبا حنيفة برحمته ، وجازاه خيراً فانه اطعمني الدنيا والآخرة اطعاماً .

تلك خلته مع تلاميذه جميعاً: ابي يوسف ومحمد وزفر والحسن.

لقد كان يحب تلاميذه وأصحابه حباً لا حـد له حتى كان الذباب إذا وقع على احد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه .

ولم يكن يقبل عبارات الشكر حين توجه اليه ، بل كان يغتم لمن يشكره على شيء اعطاه اياه. ويقول : اشكر الله تعالى فانما هو رزق ساقه الله اليك .

وكان يجمع الأرباح ليشري بها حوائج المتعلمين يدفـع اليهم الدنانير قائلا : انفقوا في حوائجكم ، ولا تحمدوا إلا الله سبحانه وتعالى فانها ارباح بضائعكم مما يجريه الله لكم على يدي .



وصفه أصحابه فرسموا له صورة رائعة :

يقول أبو يوسف عنه : شديد الذب عن المحارم، شديد الورع ان ينطق في دين الله تعالى بلا علم ، يحب أن يطاع الله تعالى، ولا ينافس أهل الدنيا فيما بين ايديهم ، طويل الصمت ، دائم الفكر مع علم واسع ، لم يكن مهذاراً ولا ثرثاراً ، إذا سئل عن مسألة كان له بها علم أجاب وإلا . وكان مستغنياً عن الناس لا يميل الى طمع ولا يذكر الناس إلا بخير .

وقال عبد الله بن المبارك لسفيان الثوري :

ما ابعد أبا حنيفة عن الغيبة ما سمعته يغتاب عدوا قال : هو اعقل من ان يسلط على حسناته ما يذهبها .

وقال زفر : إذا تكلم خيل اليك ان ملكاً يلقنه ما يقول .

ويقول جعفر بن الربيع : أقمت عند ابي حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول منه صمتاً ، فاذا سئل في الفقه تفتح وسال كالوادي وسمعت له دوياً وجهارة للكلام .

وقال الامام الشافعي : من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة .

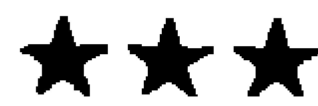
وقال المكي في مناقبه ، كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً معروفاً بالفقه مشهوراً بالورع واسع المال معروفاً بالأفضال على كل من يطيف به صبوراً على تعليم العلم بالليل والنهار ، حسن الليل ، كثير الصمت ، قليل الكلام ، حتى ترد مسألة في حلال أو في

حرام فكان يحسن ان يدل على الحق ، هارباً من مال السلطان .

وقال ابن المبارك : دخل أبو حنيفة على مالك فرفعه ثم قال بعد خروجه : أتدرون من هذا . قالوا : لا ، قال هذا النعمان ، لو قال هذه الاسطوانة من ذهب لخرجت كما قال .

وقال شريك القاضي : كان ابو حنيفة طويل الصمت كثير التفكير ، دقيق النظر في الفقه ، لطيف الاستخراج في العلم والبحث ، ان كان الطالب فقيراً أغناه ، فاذا تعلم قال: وصلت الى الغنى الأكبر .

ويقول جعفر بن عبد الرحمن وقد شاركه في التجارة ثلاثين عاماً : جالست انواع الناس من الفقهاء والعلماء والزهاد والنساك فلم أر أحداً أجمع لهذه الخصال جميعاً من ابي حنيفة وفي طول ما صبحت أبا حنيفة ، وخالطته ، لم أره يعلن بخلاف ما يسر ، ولم أر أحداً يتوقى ما لا خطر له مثلما كان يتوقاه ، وكان إذا دخلت عليه شبهة من شيء اخرجها من قلبه ولو بجميع ماله .



أما أمره في نفسه فهو عجب من العجب :

ختم القرآن سبعة آلاف مرة ، وكان ربما ختم القرآن في رمضان ستين ختمة ، ختمة في بياض النهـــار وختمة في سواد الليل ، وقيل كان يقرأ القرآن في ركعة واحدة أو ركعتين في

الليل وقيل انه كان يصلي العشاء والفجر بوضوء واحد أربعين عاماً .

قالوا : كان حسن الليل يقطعه في الصلاة وقراءة القرآن .

وكان اذا أراد ان يصلي من الليل تزين حتى يسرح لحيته ويتعطر ، ويلبس ثوبه الغالي الذي تبلغ قيمته الف وخمسمائة درهم ويقوم الى الصلاة : وكان يقول : التزين لله عز وجل أولى.

وكان يرتفع بنفسه عن فضول الكلام ، فاذا حلف صادقاً في عرض كلامه تصدق بدرهم، ثم زاد الضريبة على نفسه فصارت ضريبة اليمين ديناراً .



اما امره مع الامراء فعجيب ، رفض أن يتولى القضاء مرتين ، مرة في عهد بني امية ، ومرة في عهد بني العباس ، ووصل اليه من المنصور ثلاثون الف درهم على دفعات فقال له : يا أمير المؤمنين اني ببغداد غريب وعندي ودائع الناس ، وليس لها عندي موضع ، فاجعلها في بيت المال ، فأجابه ، فلما مات أخرجت ودائع الناس من بيت المال قرأوها ، فقال المنصور : خدعنا أبو حنيفة .

وضربه المنصور مائة وثلاثين سوطاً ، ومات وهو في سجنه ممتنعا عن ولاية القضاء قالوا له : لقد أمر لك بعشرة آلاف

درهم ، قال الله تعالى للعيال وانما قوتي انا في الشهر درهمان فما جمعي لما يسأل الله تعالى عنه ؟.

وقالت له أمه وهو يضرب : ما خير علم يضيعك كل هذا الضياع،قال أيا اماه انهم يريدونني على الدنيا وانني أريد الآخرة وانني اختار عذابهم على عذاب الله. والله يا أمي لو أردت الدنيا لوصلت اليها ولكني أردت أن يعلم الله اني صنت العلم ولم أعرض نفسي لهلكه ، والله ما اوجعتني السياط قدر ما ألمتني دموع أمي .

وكان أمره في التجارة مثالاً للورع والاحسان :

أما ورعه فقد ارسل لشريكه متاعاً في ثوب معيب يبيعه ويبين ما فيه من العيب فباعه ولم يبين عيبه فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المباع وكان ثلاثين الف درهم وفاصل شريكه . ومن ورعه ان رآه يزيد بن هارون جالساً يوماً في الشمس عند باب انسان فقال له يا أبا حنيفة لو تحولت الى الظل فقال : لي على صاحب هذه الدار دراهم فكرهت ان استظل بظل حائطه فيكون ذلك جبر منفعة .

ولقد ترك لحم الغنم لما نفقت شاة في الكوفة الى ان علم بموتها ، لانه سال عن أكثر ما تعيش فقيل له سبع سنين فترك اكل لحمها سبع سنين .

اما إحسانه فترسمه تلك الصورة التي لا بد لها مشابهات

كثيرة في حياته :

جاءته امرأة تطلب ثوب قز فأخرجه لها فقالت له : اني امرأة ضعيفة وانها امانة فبعني هذا الثوب بما تقوم عليك . قال : خذيه بأربعة دراهم ، فقالت : لا تسخر بي وأنا عجوز كبيرة .

فقال : اني اشتريت ثوبين فبعت احدهما برأس المال إلا اربعة دراهم فبقي علي هذا الثوب بأربعة .

وكان من حبه للخير لا ينتظر حتى يشكو إنسان اليه . وله في ذلك قصتان :

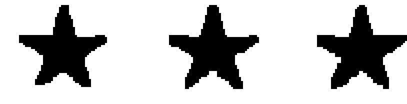
جاءه احدهم الى مجلسه وكان قد أصابه الفقر ولكن عجز عن أن يسأله : وكان ابو حنيفة يراقبه ، فلما انصرف مضى وراءه حتى عرف داره فلما جن الليل جعل ابو حنيفة في كمه خمسة آلاف درهم وطرق باب الرجل ، وقبل ان يفتح الباب قال له : ايها الرجل قد وضعت عند بابك شيئاً هو لك وانطلق ابو حنيفة مسرعاً قبل ان يتمكن الرجل من فتح بابه .

أما الرجل الآخر فقد رآه رث الثياب فلما قام الناس قال له : ارفع المصلى وخذ ما تحته فرفع الرجل المصلى فكان تحته الف درهم قال : خذ هذه الدراهم فغير بها حالك .

قال الرجل : لست احتاج اليها وأنا موسر ..

قال ابو حنيفة : أما بلغك الحديث : [ان الله يحب أن يرى

أثر نعمته على عبده] غير حالك حتى لا يغتم به صديقك .

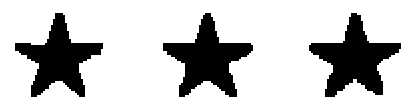


وكان أمره مع ابنه أمر حازم ، تقدم مرة ليصلي بالناس فأخذ أبو حنيفة بمجامع ثوبه فأخره وقدم غيره : فقال حماد : يا أبت تفضحني .

قال بل أردت ان تفضح نفسك ، فمنعتك ، إذ لو صليت لقال قائل :

أعيدوا صلاتكم خلف هذا .

فتسطر في الكتب وتبقى عاراً الى يوم القيامة .



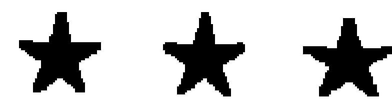
هكذا استطاع ان يصل مثل ابي حنيفة الفارسي الذي هو من الموالي الى أرقى درجات العظمة الحقيقية ، هذا الفتى الخزاز كما كان يسميه ابن ابي ليلى ، يصل بفهوم الاسلام الى تلك المكانة التي كان يحسده عليها الكبراء ، لقد كان ابو حنيفة يردد إذا ما أخذته هزة المسائل :

أين الملوك من لذة ما نحن فيه ، والله لو فطنوا لقاتلونا عليه ، ومن حق ان يقول عمر بن عبد العزيز : ما ذنبي ان كانت الموالي تسمو بأنفسها ، لقد كان مثل ابي حنيفة هو رد الفعل

لهذه النعرة من الاستعلاء العنصري التي عرفهـــا العرب فهي جاهلية ذمها النبي : يا أيها الناس : ان الله قد اذهب عنكم حمية الجاهلية وتعاظمها بالآباء .

وهذا هو العلم الاسلامي ، ليس ملكاً للعرب، ولكنه ملك للمسلمين كلهم ، لقد عاش للعلم يعطيه كله ، وعاش للناس ينفق عليهم ماله ، بين تلميذ فقـــير وامرأة محتاجة وصاحب ينقص رزقه ، وهو سرعان ما يقدم الخير ويقول : هذا المقدار جاء به ابو حنيفة اليك من وجه حلال فليفرغ بالك .

هذا شيخ أهل الرأي ، الامام الأعظم ، النعمان بن ثابت ، عاش للاسلام ، للفقه ، للحرية الانسانية والكرامة ، للخــير والعطاء ، انفق ماله ، وانفق قدرته العقلية والروحية ، كلها لله وحده خالصة ، وكانت وصيتــه دوماً « كن لله في سرك كما أنت في علانيتك فلا يصلح العالم الا بأن يجعل سره كعلانيته » .



ولد أبو حنيفة بالكوفة عام ٨٠ هـ ٦٩٩ م ومنها انتقل الى بغداد وبها توفي ١٥٠ ه وحج خمساً وخمسين حجة ، ولقي في المسجــد الحرام كل عام تقريباً علمـــاء الاسلام : ابن جريج ، والاوزاعي ، والليث ، في المدينة لقي مالك ، ومنهم أخــــذ وأعطى حتى ترك لنا اجاباته عن مائة الف مسألة في الفقه .

وتوفي ١٥٠ ه — ٧٨٧ م .

المراجع : فلسفة التشريع للدكتور صبحي محمصاني
: محاضرات في تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور محمد يوسف موسى
: ابو حنيفة للاستاذ عبد الحليم الجندي
: الأئمة الأربعة : للدكتور احمد الشرباصي

تجديد الفكر الاسلامي وتصحيح مفاهيمه

في مراجعة لتطـــور الفكر العربي الاسلامي يلتفت النظر بقوة الى عدد من الشخصيات البارعة ، ذات الطابـــع القوي الواضح ، في مقدمتهم ابن حزم والغزالي وابن تيمية وهم يمثلون مرحلة تالية لمرحلة بناء السنة والفقه والعقائد :

فقد عرف الفكر الاسلامي في مجال بنـــاء السنة وتحقيقها : البخاري ومسلماً ، وفي مجال بنـــــاء الفقه : مالكاً وأبا حنيفة والشافعي وابن حنبل .

وفي مجال بناء العقيدة: واصل بن عطاء والنظام والاشعري.

اما امثال ابن حزم والغزالي وابن تيمية فلم يكونوا متخصصين في منهج من هذه المناهج العلمية ولكنهم كانوا شيئاً آخر يمكن ان يطلق عليه اسم « مصححي المفـــاهيم ومجددي بناء الفكر الاسلامي » وتلك مهمة ضخمة لم يتصدر لها الا قليـــــل ، من ابرزهم هؤلاء العمالقة الذين ظهروا في مراحل مختلفة متوالية وفي وفي فترة من ادق فترات تبلور الفكر الاسلامي وسعيه الى بناء

منهج شامل يضم مختلف التيارات ويشجب مختلف الانحرافات التي اثارتها الدعوات الباطنية والمخاصمة للاسلام اساساً، هو منهج أهل السنة والجماعة .

ويمثل كل واحد منهم تحدياً واضحاً لخطر من اخطار الغزو المتصل من المذاهب والدعوات المعارضة ، كما يبدو منهج كل منهم في كلمة واحدة هي : « التماس مفهوم القرآن أساساً » شجباً لكل انحراف يحاول اصحابه صرف الفكر الاسلامي عن مجراه الأصيل ومنهجه الطبيعي .

كان المفهوم الذي دافع عنه ابن حزم هو : الوقوف عند النص في مقابل الاسراف في تجاوزه والمبالغة في الاستنتاج منه وتحميله الكثير المختلف مما يحتمل وما لا يحتمل – على حد تعبير الاستاذ طه الحاجري – فقد استفاضت في عصره نزعة تدعو الى التوسع في تحميل آيات القرآن ما تطيق وما لا تطيق واجتلاب الأخبار والآراء من هنا وهناك والتكثر من ذلك لاقحامها في تفسير القرآن .

فدعوة ابن حزم اساساً : معارضة التأويل والتماس المفهوم القرآني الواضح والوقوف عنده . وفي رأي ابن حزم ان القياس والرأي قد باعدا بين المفهوم الاساسي، وبين التفسير الذي وصل اليه الفقهاء ، وان ذلك كان مصدر الفساد الذي تعرضت له الحياة الاجتماعية في البيئة الاندلسية ، فكانت دعوته هي صدى تيار القياس الذي اصبح وسيلة في ايدي بعض الفقهاء تكاد تخرج

بالناس عن الحدود والضوابط التي رسمها القرآن ، لتبرر اوضاع الحضارة والحياة الاجتماعية التي خرجت عن مبادىء الأخلاق والضمير في قرطبة .

وقد رأى ابن حزم ان القياس والاستحسان قد خرجا عن الحدود التي وضعت لهما بحيث اصبحت الأمور أشبه « بالفوضى التي لا ضابط لها » .

وقد رسم ابن حزم مفهومه على هذا النحو :

« جملة الخبر كله ان تلزموا ما نص عليه ربكم تعالى في « القرآن » بلسان عربي مبين لم يفرط فيه من شيء تبياناً لكل شيء ، وما صح عن نبيكم صلى الله عليه وسلم برواية الثقات من ائمة اصحاب الحديث رضي الله عنهم ، مسنداً اليه عليه السلام ، فهما طريقتان توصلانكم الى رضى الله ربكم عز وجل .. واعلموا ان دين الله ظاهر لا باطن له ، وجهر لا سر تحته ، كله برهان لا مسامحة فيه ، واتهموا كل من يدعو الى ان يتبع بلا برهان ، وكل من ادعى للديانة سراً وباطناً فهي دعاوى ومخارق ، واعلموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ولا اطلع أخص الناس به من زوجة او ابنة أو عم أو ابن عم او صاحب ، على شيء من الشريعة كتمه عن الاحمر والأسود ورعاة الغنم ، ولا عنده عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن ، غير ما دعا الناس كلهم اليه ، ولو كتمهم شيئاً لما بلغ كما أمر ، ومن قال هذا فهو كافر ، فاياكم وكل قول لم

يبين سبيله ، ولا وضع دليله ولا تعرجوا عما مضى عليه نبيكم صلى الله عليه وسلم .

ويقول : ان كلام الله تعالى واجب ان يحمل على ظاهره البتة ، إلا أن يأتي نص او اجماع أو ضرورة على ان شيئاً منه ليس على ظاهره ، وانه قد نقل على ظاهره الى معنى آخر فالانقياد واجب علينا لما أوجبه ذلك النص او الاجماع أو الضرورة ، لأن كلام الله تعالى وأخباره وأوامره لا تختلف ، والاجماع لا يأتي الا بحق ، والله تعالى لا يقول الا الحق ، وكل ما ابطله برهان ضروري فليس بحق .

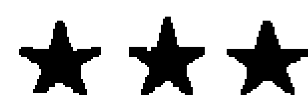
وقد كشف ابن حزم عن جوهر رأيه ومفهومه في موسوعته الضخمة « المحلى » واستطاع ان يجدد شباب الفكر الاسلامي والفقه الاسلامي وأن يقدم آراء ناصعة جديدة دفعت تيار الثقافة العربية الاسلامية الى الامام واعادت صياغة مفهوم الفكر العربي الاسلامي على نحو يجري مع العصر المتطور والبيئة المتغيرة دون ان يخرج عن ارضيته الأساسية وقاعدته الأصيلة .

ومن اجتهاده الذي جدد به الفكر الاسلامي قوله :

ان كل مسلم عاقل بالغ من ذكر أو انثى ، حر أو عبد تلزمه الطهارة والصلاة والصيام فرضاً بلا خوف من احد من المسلمين وتلزم الطهارة والصلاة المرضى والأصحاء ، ففرض على كل من ذكرنا ان يعرف فرائض صلاته وصيامه ، وكذلك يلزم كل من

ذكرنا ان يعرف ما يحل له ويحرم عليـه من المأكل والمشرب والملابس والفروج والدماء والأموال والأعمال فهذا كله لا يسع جهله أحد من النـــاس ، ويجبر الامام ازواج النساء وسادات الارقاء على تعليمهم ما ذكرنا ، اما بأنفسهم واما بالاباحة لهم لقاء من يعلمهم ، وفرض على الامام ان يأخذ الناس بذلك وأن يرتب اقواماً لتعليم الجهال ..

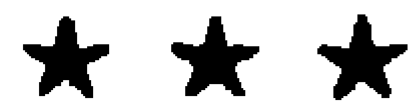
في مجال الفكر الاسلامي نجد دعاة ومجددين ينظمون تاريخه كله . أما الدعاة فهم أولئك الأبرار الذين ينطلقون في الأرض ينشرون كلمة الله ويذيعونها في الآفاق . وقد حقق هؤلاء نتائج بالغة الاثر والاهمية وتم على ايديهم طوال تاريخ الاسلام دخول عدد كبير في الاسلام. لم تكن اداتهم في ذلك غير شخصية مؤمنة تحمل طابع الايمان والثقة بالله ، وتملك لساناً صادقاً في التعبير عن عقيدة سمحة يسيرة، تؤدي القدوة فيها عملاً اضخم من كل كلام في الاقناع بشخصية المسلم .



اما المجددون ومصححو المفاهيم فقد حفل بهم تاريخ الفكر الاسلامي ، ولم ينقطع تواردهم وظهورهم في كل عصر، وبيئة ، يدعون الناس الى التماس قيمهم من القرآن اساساً . ويردون على الشبهات المثارة ، ويصححون المفاهيم التي تكون قد انحرفت نتيجة دخول مفاهيم غريبة عليها في محاولة للقضاء على القـــيم

الأساسية التي يتسم بها الفكر الاسلامي .. وفي مقـدمة هؤلاء ابن حزم والغزالي وابن تيمية .

اما ابن حزم فقد جابه موجة الجمود والتقليد التي كانت تسود عصره ، وجدد الفكر الاسلامي ملتمساً اصوله عـن القرآن والسنة الصحيحة . وآراؤه واعيـة ايجابية قوامها الصراحة والاحتكام الى العقل ومقاومة التقليد .



اما الغزالي فقد واجه عناصر عديـدة من خصوم الفكر الاسلامي كالباطنية والدهرية وفلاسفة الالهيات وعلماء الكلام وشجب مفاهيمهم جميعـاً وأعلن ان اسلوب القرآن هو أعلى الاساليب وابلغها وادقها واقربها الى مختلف العقول والنفوس ، وأنه اصدق من اسلوب المتكلمين وانفع وأعم وأشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة ، وأن علم الكلام علاج موقت نشأ في ظروف معينة للرد على شبهات وشكوك مثارة ، ولا حاجة للطبائع السليمة والعقول المستقيمة اليه ، أما « القرآن » فالغذاء الصالح والماء السائغ يحتاج اليهما كل انسان وينتفع بهما ولا ضرر منه ولا خطر بينما ادلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع بـه آحاد الناس ويستضر به الأكثرون .

وواجه الغزالي الفلسفة فأثبت حقها في مجال الفلسفة الطبيعية والرياضية وهاجم « الفلسفة الالهية » وحدها .

وقال إن أغلب هذه العلوم (الفلسفة) الطبيعة والرياضة أمور برهانية وانه لا يخدم الاسلام انكارها ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والاثبات ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية .

اما الفلسفة الالهية ففيها اكثر اخطائهم وقال انهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ويرجع ذلك الى ان الالهيات ليست كالعلوم الأخرى « الرياضة والطبيعة » وليس لها مقدمات ومحسوسات ومبادىء و« لهذا كثرت فيها اغلاطهم وتخيلاتهم « وقال ان خطر الفلسفة على اذهان الناشئة هو أن يجدوا اصحابها مع رزانة عقولهم وغزارة علمهم منكرين للشرائع والنحل جاحدين لتفاصيل الاديان والملل وقد الحدوا وانكروا الدين تطرفاً وتكايسا » ووجه هدفه الى « تهافت عقيدة فلاسفة اليونان ، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات وان هذه المسائل ليست حقائق علمية .

وحصر الغزالي خلافه معهم في ثلاث مسائل : (١) قولهم بقدم العالم . (٢) قولهم بأن الله – سبحانه – لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الاشخاص . (٣) انكارهم بعث الاجساد وحشرها .

وقال ان هذه المسائل الثلاث لا تلائم الاسلام بوجه .

ومن هنا فان الحملة التي توجه دوماً للغزالي بأنه خصم الفلسفة

هي دعوى باطلة وانما هاجم الغزالي الفلسفة الالهية الاغريقية الوثنية ، التي لا تتفق مع عقيدة التوحيد وكشف عن أثر هـذه الفلسفة في نفوس من يتمسحون بها ليثيروا الشكوك والأوهام حين ينكرون الأديان والشرائع. ولم يهاجم الغزالي إلا ما يصادم الشريعة من افكارهم على نحو علمي بين فيـه ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم وتهافت عقيدتهم .

وقد استطاع الغزالي بقدرته الفكرية العريضة ان يستصفي الفكر الاسلامي من الدعوات المنحرفة التي اتصلت به عـن طريـق الشعوبية والباطنية في محاولة لتغيير مفهومه او هدم مقوماته . فرد على كل هذه الفرق وكشف عن دسائسها وشبهاتها الخفية الدفينة وكان مجمل دعوته التماس مفهوم الفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي في القرآن نفسه باعتباره المصدر الأصيل الذي بدأت منه رحلة الفكر نفسه ، وبحسبان ان منهجه واسلوبه هو اصفى الاساليب واقومها وابسطها وابعدها عن التعقيدات فضلاً عما له من « منطق » خاص ، يتصل بالفطرة والذوق ـ وبذلك أعاد الغزالي صياغة الفكر الاسلامي من جديد .

وقد اختار الغزالي منهج التعليم والثقـافة بدلاً من اسلوب « الجدل الكلامي » وناقش المسائل على اساس « العقل المتأدب بالشرع » .

وهو يمزج علـم النفس بالأخلاق والدين ويرى ان هدف الدراسات النفسية هو أن تكون وسيلة الى تهذيب النفس ويرى

ان دوافع السلوك في الانسان هي: الطعام والجنس والمال والجاه.

وقد سبق الغزالي بهذا الرأي ما ذهب اليه فرويد وادلر وأولهما رد السلوك الانساني إلى الغريزة الجنسية. والثاني الى غريزة السيطرة .

وإذا كان الغزالي قد واجه مشكلات عصره ووضع النهج القويم لعلاجها ، فانه من خلال ذلك قد واجه أكبر معضلات الفكر الاسلامي كله ، وهو العمل على تكامل الفكر الاسلامي بالتقاء الفقه بالتصوف والفلسفة والدين والعقل والقلب . وقد عمل الغزالي على اطلاق الحركة للعلم والفلسفة والعقل داخل اطار الفكر الاسلامي لا خارجه .

ويرى الغزالي ان للعقل مهمة كبرى لا شك فيها ولا ريب ، هي ادراك التناقض في الآراء والقضايا النظرية واستبعاد الاحكام المتناقضة في ميدان العلم وفي ميدان الآراء الدينية .

وبالجملة فان الغزالي قد أعاد صياغة الفكر الاسلامي من جديد ملتمساً مصدره الأساسي من القرآن الكريم : « عقيدة وعبادة ومعاملة وخلقاً » .

من أهم قوانين الفكر الاسلامي ظهور مصلح مجدد يصحح المفاهيم كلما اضطربت ويعيد بناء هذا الفكر من خلال مفهوم « القرآن » نفسه بحسبانه حجر الاساس والمصدر الأصيل لمفاهيم الاسلام .

وقد ظهر عدد من هؤلاء المصلحين والأئمـــة والمفكرين على فترات متعددة خلال حركةالتاريخ الاسلامي والفكر الاسلامي في مقدمتهم : ابن حزم والغزالي وابن تيمية .

واجه الغزالي تحديات الغزو الصليبي ، باعادة صياغة الفكر الاسلامي على اساس « الوسطية والتكامل » بصهر الاتجاهـــين اللذين كانا يسودان الفكر الاسلامي ويحاول كل منهما ان يعتبر نفسه ممثلاً للاسلام دون الآخر : الفقه والتصوف . اما الفقهاء فقد كانوا يقفون عنـــد حدود النصوص ، بينما كان الصوفيـــة يحاولون تجاهل النصوص فلما جاء الغزالي فمزج الفقه بالتصوف والعقليات بالروحيات ، وفق مفهوم الاسلام نفسه تكاملا بينهما ووسطية بعيداً عن الجمود والانحراف، ثم سرى منهجه وتوسع، غير ان سقوط بغداد في ايدي المغول والتتار في منتصف القرن السابع كان بعيد الأثر في غزو فكري جديد ـ فقـد سيطرت مرة أخرى انحرافات جديدة في مجال مفهوم التوحيد بالذات وغلبت الدعوة الى الحلول والاتحاد بانحراف يتعارض مـــع مقومات الاسلام وأصوله .

وكانت فلسفة الباطنية المعادية للسنة ـ التي هـــي أساس الاسلام ـ هذه الفلسفة قد خلقت مفاهيم جديدة أخذت تزداد قوة على مرور الزمن وتحاول ان تغلف قيم الاسلام الاساسية حتى كادت هذه المفاهيم المنحرفة ان تأخذ مكان المفهـوم العقائدي الصحيـــح .

وكان الغزو الشعوبي يعمل أصلاً على تدمير أعظم حصون الاسلام ، والفكر الاسلامي وهو « التوحيد » ومن ثم فشت البدع والمحدثات ، وغلبت افكار الفلسفات اليونانية وافكار المجوسية وتغلغلت في العقائد والعبادات والوان السلوك ولا سيما في مجال التصوف وما يتصل به من رموز ودعاوى وتلبيسات ، وغلبت على العلماء نزعة التقليد مع التعصب المذهبي ، وكانت الافكار الوافدة من الفلسفات الهندية واليونانية حول الحلول والاتحاد من أخطر هذه الآراء .

وكان معنى هذا كله انحراف مفهوم الاسلام انحرافاً خطيراً عن « القيم الاساسية » في القرآن وهي حجر البناء في الفكر الاسلامي العربي .

واصبح التحدي الناتج عن هذا الركام الهائل من الافكار والمذاهب والفلسفات الدخيلة دافعا إلى ظهور مصلح جديد متكامل الفهم للاسلام (عقيدة وشريعة وأخلاقاً) قوي العزيمة والارادة لتمزيق هذه الشبهات ودحض المحاولات المتوالية لصبغ الفكر الاسلامي بلون غريب بعيد عن طابعه الأصيل ، وكان تقي الدين احمد بن عبد الحليم الشهير بابن تيمية وهو حامل لواء الوسطية في مواجهة الانحراف ، والتكامل في مواجهة التجزئة . والحركة في مواجهة الجمود ، وفق سنة ثابتة وقانون صارم يتمثل في مجرى الفكر الاسلامي منذ نزول القرآن ، ويجري وفق

اعادة صياغة الفكر الاسلامي على أساس مضامين القرآن وأسسه الأصيلة .

وقد هاجم ابن تيمية كل انحرافات الفكر الاسلامي الخارجة عن مفهوم القرآن ، وأعلن ان الاساس الأصيل لهذا الفكر انما يتمثل في الكتاب (القرآن) والسنة مفسرة له وموضحة وقال ان الكتاب (القرآن) ليس علم عقائد بالخبر والنقل وحسب بل بالدليل والبرهان . وان النبي فسر القرآن كله لانه هو الذي عليه ان يبينه ويوضحه ، وبيانه من اركان تبليغ الرسالة .

وقد تلقى الصحابة تفسير القرآن كله وعلمه ، وعلى الانسان ألا يتبع إلا الدليل من الكتاب أو السنة أو آثار السلف الصالح ، ويستأنس بأقوال التابعين أساساً وربما جاز التقليد في فروع الدين من غير أصوله لأن العقيدة أصل الدين .

ويرى ابن تيمية ان « منهاج القرآن » ليس هو منهج الفلاسفة ولا المتكلمين ولا الماتدريدية ولا الاشاعرة ، بل هو غيرها ، لأن العقائد لا تؤخذ إلا من النصوص ولا تؤخذ أدلتها إلا من النصوص ، فأصحاب هذا المنهج يؤمنون بالنص وبالادلة التي يومىء اليها النص ، لأنه وحي أوحي به إلى النبي وان الأساليب العقلية المنطقية مستحدثة في الاسلام ولم تكن معروفة قطعاً عند الصحابة والتابعين .

ولا سبيل إلى معرفة العقيدة والاحكام وكل ما يتصل بها

إلا من (القرآن) والسنة المبينـــة له والسير في مسنادهما ، فما يقرره القرآن وما تشرحه السنة مقبـول لا يصح رده ، فليس للعقل سلطان في تأويل القرآن وتفسيره أو تخريجه إلا بالقـدر الذي تؤدى به العبادات ، وسلطان العقل هـــو في التصديق والاذعان ، وبيان تقريب المنقول من المعقول . وعدم المنـافرة بينهما فالعقـــل يكون شاهداً لا حاكماً ويكون مقرراً لا ناقضاً ولا رافضـاً ويكون موضحاً لما اشتمل عليـه القرآن من الادلة » .

هذا هو « منطق القرآن » الذي ينطلق منـه مفهوم الفكر الاسلامي وهو غير منطق أرسطو الذي سيطر فترة ما ، وعند ابن تيمية ان منهج الفلاسفة مضطرب حين سعوا إلى بناء طريقهم على ترتيب الأقيسة العقلية فقد فاتهم ان العقل وحده عاجز عن ادراك حقائق الدين ، ولا بد من النص ، وعنده ان العقل يتجه إلى القرآن ويتفهمـه بالفكر ، أي بموازنة آيات القرآن بعضها ببعض ، فيكون تأويل القرآن من القرآن، لا من أقوال الفلاسفة والمتكلمين ويأخذ ابن تيمية على الفلاسفة طريقهم في التفكـير والمقدمات التي يبنون عليها النتائج التي وصلوا اليها . ويرى ان القرآن والسنة قد أشارا إلى « المقدمات » التي تهـدي الى سواء السبيل .

وجملة منهج ابن تيمية : « ان الفساد لم يأت من قبل النصوص

فهي حق في معناها ولا تحتاج الى تأويل، وانما جاء من حملها على معان فاسدة ليست معانيها المرادة بها ، وبذلك حرر ابن تيمية الفكر الاسلامي من الأزمة التي مرت به حين يقوم من يدعو إلى رأي منحرف فيستغل النصوص ويلوي اعناقها والاسلام بعد ذلك سمح رحب ، سائر بالحياة ، متصل بها ، مفتوح الآفاق على الفكر الانساني كله .



يرى الكثيرون ان « ابن خلدون » لا يعدو كونه مؤرخاً اسلامياً ، أو واضع علم الاجتماع الاسلامي ، وتلك حقيقة اعترف له بها عدد كبير من الباحثين الغربيين المنصفين ، بعد ان انكره بعض أهله من الباحثين العرب وأوسعوه ذماً وانتقاصاً .

غير انني لا أرى ابن خلدون منفصلاً عن مجرى الفكر الاسلامي العربي ، ولا استطيع تناوله إلا من خلال تحديات عصره وجيله . فقد جاء ابن خلدون في القرن الثامن الهجري وقد تغير « عالم الاسلام » تغيراً كاملاً، بعد أن مرت به جحافل الصليبيين والتتار وصارعته وبعد ان غلب عليه طابع جديد ساير مرحلة العصر العثماني غلب فيه الجانب الوجداني الصوفي على الجانب العقلاني ، وبدا كأنما يواجه الفكر الاسلامي أزمة من أزماته .

وقد كان ابن خلدون على مستوى الثلاثة الكبار (ابن حزم والغزالي وابن تيمية) في تجديد الفكر الاسلامي حين هاجم

أسلوب الجدل اللفظي والمماحكات اللفظية في التأليف والشرح والتعليم ، وأنكر منهج التقليد ودعا إلى التماس منابع الفكر الاسلامي في الاسلام نفسه . وأنكر الطريقة التي شاعت في عصره ،طريقة الجمع والاختصار واعتماد كل عالم على علوم من سبقه والوقوف عندها . ودعا إلى طريقة التماس المصادر الأساسية . وعقد في مقدمته فصلا هاجم فيه كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم وقال انها مخلة بالتعليم ، ونقد التعليم في عصره وبيّن الطرق الصالحة فيه وهو آخر الادواء التي عرفها عصرَه .

وكان ابن خلدون على قدر وافر من الاحاطة بالحركة العلمية في العالم الاسلامي كله . فلم يتقوقع ويقف عند بيئته وحدها بل أحاط وواصل الاحاطة بكل الحركات العلمية في بلاد المسلمين من مشرقها إلى مغربها وفي بلاد اوربا أيضاً .

وقد كان ابن خلدون وسطاً بين رأي ابن رشد في الفلسفة ورأي الغزالي في التصوف فلم يذهب الى الفلسفة ذهاب ابن رشد ولم يعارض التصوف ، وأخذ فيه بمنهج الغزالي .

وإذا كان الفكر الغربي قد أفاد من حصيلة الفكر الاسلامي في مجال منهج العلم التجريبي ، الذي انشأه المسلمون ، فان عصارات ضخمة من الفكر الاسلامي في مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية ، قد حصل عليها الفكر الغربي وحاول الادعاء بأنه مبتدعها أصلا وكتابات ابن سينا والغزالي

وابن خلدون والماوردي وعشرات غيرهم قـد كانت (الأصول المؤصـــلة) لعشرات من النظريات العلمية الحديثة في مجـال الفكر .

وآراء ابن خلدون في طليعة هذه الحصيلة فهو :

أولاً – اكتشف نظرية الأجيال الخاصة بظهـور الاسرار ونهوضها قبل أن يعرفهـــا (اوتوكار لونيس) في أواخر القرن التاسع عشر .

ثانياً – عرف ابن خلدون قانون (التشبه بالوسط) قبل ان يعرفه العالم الطبيعي (دارون) بخمسة قرون .

ثالثاً – اكتشف مبدأ وجود السادة قبل أن يكتشفه العالم الالماني أرنست هيجل بأكثر من خمسة قرون أيضاً .

رابعاً – سبق ميكافيل ومونتسيكو وفيكو في وضـــع أصول الاجتماع .

خامساً – انـــه اكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية قبل كونسيدران وماركس وباكونين بخمسة قرون .

سادساً – اكتشف مبدأ الحتمية الاجتماعية قبـــل رجال الفلسفة الاسبانية وعلم النفس بقرون عديدة ، وقبل مونتسيكو وأعلن تبعية المجتمعات لقوانـــين ثابتة في القرن الرابع عشر الميلادي .

سابعاً ـ ادرك ان علم الاجتماع يضم مظاهر كثيرة كعلم السياسة والاقتصاد والعلم والتعليم وبعده بخمسمائة عام قال الفكر الغربي ان العلوم كلها مظاهر من علم الاجتماع .

ثامناً ـ قوى الروح التجريبية والنظر العلمي الواسع الأفق .

الخليل بن احمد

(الخليل بن احمد عمرو بن تميم الفراهيدي)

مكتشف قواعد النحو وسر الموسيقى وعلم العروض

(١٠٠ — ١٧٠) هـ .

« اني لأغلق علي بابي فما يجاوزه همي ، الرزق عن قــدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال ، والفقر في النفس لا في المال ، لا تبكوا ، فوالله ما فعلت فعـــلاً أخاف عل نفسي منه » .

الخليل بن احمد

الخليل بن احمد

- ١ -

« لقد حصرت الانغام ومقاديرها وانواعها فضممت كلا إلى نوعه ثم حصرت أوزان الشعر العربي بتوفيـــق الله : : فمالي لا أفكر في حصر ألفاظ اللغـة العربية بشكل علمي تام كامل لا يغادر منها فيه لفظ » .

هذه هي الفكرة البارقة التي كانت تملأ نفسه، والخواطر التي تدور في أعماقه وهو في طريقه من البصرة إلى خراسان ليعيش في ظل صداقة حبيبة إلى نفسه في شخص «الليث بن مظفر نصر ابن سيار » ، ثم لم يلبث ان وضع مقومات هذا العمل الضخم ، ورسم خطوطه ، وترك أمره إلى « الليث » الذي اتمه، ذلك هو كتاب « العين » الذي يعد دائرة معارف ضخمة وضع مقدمتها وخطتها : (الخليل بن احمد .....) .

قال حمزة الاصبهاني : « ليس في دولة الاسلام التي أخرجت

أبدع العلوم التي لم يكن لها عند العلماء العرب أصول ، أبرع من الخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه ، ولا على مثال تقدمه احتذاه ، وانما اخترعه ممن له بالصفارين من وقع مطرقة على طست ، ليس فيها حاجة ولا بيان يؤديان إلى غير حليتها أو يفسران غير جوهرهما » .

إنها ثلاثة أعمال ضخمة قام بها « الخليل بن احمد » : عبقري اللغة العربية دون منازع :

هي رسم حركات الحروف لأول مرة بعد أن كانت العرب تضع نقطاً فوق الحروف ، « وعلم العروض » الذي حطم بـــه نظرية القائلـين بأن النظم العربي لا ضابط له ويدخل في هذا اكتشافه « سر الموسيقى » وأصلها ، أما عمله الكبـير فهو أنه أول من صنف معجماً عربياً هو « كتاب العين » حصر فيه كل ما يمكن ان يتركب من ألفاظ العرب ورتبـه على حروف الهجـاء .

ان (الخليل بن احمد عمرو بن تمـيم الفراهيدي) أخرجته البصرة كما أخرجت عدداً كبـيراً من أعلام الفكر الاسلامي ، درس الفقه واللغة على أبي أيوب السجستاني ورأى الفرزدق في صباه ، كما تلقى على « عاصم الاحول » «والعوام بن حوشب » .

ذهب في شبابه إلى بلاد الروم مجاهداً للدفاع عـــن ثغور الاسلام ، وقد أحب علماء العربية والنحـــو ، وأمضى ثلاث سنوات يجلس اليهم فيسمع منهم ولا يشترك في الجدل والمناظرة ،

وعاصر شيخ العربية [أبا عمرو بن العلاء]، وحضر مجلسه وكان قد مضى على أبي عمرو أكثر من خمسين سنة يدّرس اللغة ، وقد اغراه بعض أصحابه أن يجادله ، وينتصر عليه فيتحدث عنه الناس ويرتفع اسمه ، ولكنه رفض ذلك ، وآثر ان يظل منه بمنزلة التلميذ مهما بلغ به العلم ، وكان الخليل محباً للوحدة ، راغباً في الصحراء ، يخرج من المدينة اليها ، حيث ينفرد بنفسه ويدير في عقله افكاراً ومعاني كانت ارهاصات لاكتشافه قواعد النحو وضوابطه .....

ذلك أنه بدأ يضع قواعد جديدة فيه لم يكتشفها اصحاب العربية ، ولم يلبث ان انقطع عن النـاس كلية يخرج في الصباح إلى الصحراء فلا يعود إلا في الغسق يسير على غير هدى ، وهو في خلال ذلك يدون شيئاً في صحيفة معه .

ولم تلبث التهويمات أن تكشفت عن شيء واضح ناصع وصفه في قوله : « ان أبا الأسود الدؤلي ضبـط حركات الحروف من فتح وضم وسكون بوضع نقاط بأعلى الحروف أو اسفل منها أو عن يمينها أو شمالها ، وقد اختلطت النقاط المميـزة للحروف بالنقاط المميزة للكلمات .

وقد أردت ان أسهل على النـاس بأن أوجد ما يضبط بـه الناس الكلمات دون الحاجة الى تغيير الحبر ودون أن يضطربوا من كثرة النقاط واستعمالها .

والأمر الذي خطر في بالي هو ان ارسم فوق كل حرف محرك صورة حرف المد الذي يقابل حركته ، فان كانت حركة الفتح وضعنا الفاً صغيرة ... وان كانت الضم وضعنا واوا صغيرة ، وان كانت الكسر وضعنا ياءً صغيرة ، فلما أذاع الخليل طريقته استقبلها الناس كعاداتهم دائماً عند استقبال كل جديد ، بوجوم بالغ ، وقالوا هذه بدعة وخروج عما الف الناس .

وقد دافع الخليل عن طريقته حتى اقنع الكثير من مخالفيه، وكانوا قد خافوا على نص القرآن أن يغير بهذه البدعة .

ومضت فترة من الزمن فاذا الخليل يخرج على النـاس بشيء جديد . ذلك انـه كان يسير في السوق فسمع أصوات المطارق على الطسوت ، هنالك اكتشف سر الموسيقى وأصلها ولم يقف عند هذا ، بل قاده ذلك إلى وضع أصول علم العروض .

قال الخليل : ان هناك ثلاث نقرات :

الأولى — دقة وسكون « تن »

الثانية — دقتان وسكون « تتن »

الثالثة — ثلاث دقات وسكون « تتتن »

وقال : إن هـــذه النقرات اذا تتابعت وتداخلت كونت الموسيقى،وان اختلاف تداخلها وتتابعها هو الذي يولد اختلاف النغمات .

ومضى الخليل يتصل بأهل الغناء واستاذهم « ابو رافع » ، ومضى يعيش في ألحانهم ، ويغشى مجالسهم ومعه لوح يكتب فيه رموزاً لا يفهمها أحد سواه .

ولم يلبث ان قال كلمته الخالدة : « السكون في الشعر هو السكون في الموسيقى » .

واداه ذلك إلى أن يصل إلى « العروض » ، فقد كان الشعر العربي قبله لا ضابط له ، فمضى يحصر أصول الانغام والتواقيع موقناً بأنه يستطيع وضع مقاييس الشعر. وكان في خلال تأملاته تلك يعكف في منزله على بئر ، وقالوا انهم كانوا يدخلون عليه الدار فلا يرون منه إلا قامته.... أما رأسه فقد اخفاه في فوهة البئر ، ويسمعونه يخرج أقوالا لا معنى لها يكررها ، ويقتربون منه ، فيرون رأسه وقد تدلى في البئر منفوش الشعر .

فلما سئل في ذلك ، قال : إن مقاطع الشعر تظهر واضحة في الصدى الذي يحدثه البئر ، وانتقل بعد ذلك إلى مرحلة أخرى في عمله هذا، حيث رجع إلى أشعار العرب،فأخذ يقطعها معتبراً الحرف الساكن آخر المقطع وقابل بين المقاطع ، وانتهى من ذلك بوضع أصول الشعر والنظم .

فلما أتم بحثه قصد المسجد الجامع وعرضه على الناس : ذلك هو علم العروض الذي انهال الناس عليه لتعلمه فوقف نفسه على افهامه للناس .

ومن قوله في ذلك ان العرب استخدموا التفاعيل الثمانيـة خمسة عشر بحراً مـع انها تعطي أكثر من ذلك حين تجمع وتركب .

ومضى الخليل يركب بحوراً جديدة ويخرج بهـا شعراً من أوزان جديدة .

- ٢ -

واكتشف (الخليل بن أحمد) فكرة المعجم بكتاب(العين) رامياً إلى ضبط اللغة وحصرها ، فقد رأى أن اللغة العربية تتألف من تسعة وعشرين حرفاً لا يخرج عنها أية كلمة ولا أي حرف منها ووصل إلى اليقين من أن الكلمات العربية تنحصر بين الثنائي والخماسي ، فلا تقل ولا تزيد إلا بحروف زوائد لا دخل لها في المعنى الأصيل .

واستطاع من خلال الحروف التسعة والعشرين وفيما بين الثنائي والخماسي في الكلمات أن يحصر اللغة بتتبع دوران كل حرف في كل بناء من هذه الأبنية .

يقول الدكتور حسين نصار : فرتب الحروف أولاً ، وابتكر نظاماً جديداً قائماً على الأصوات ، فالاصوات اللغوية أصوات شبيهة بانغام الآلات الموسيقية فأقـــام دراسته حول الأصوات اللغوية أو الحروف ، ثم رتب الابنية فيما بين الثنائي والخماسي وجعل هذه الأبنية أساس تقسيم الكتب إلى أبواب .

وكانت فكرة الخليل عامة ترمي الى حصر اللغـــة جميعاً واستيعاب كلام العرب الواضـح والغريب ، بينما كانت فكرة المعاجم في اللغات الأخرى خاصة ترمي إلى حصر موضوع معين.

وقد كشف حسين نصار عن بطلان الادعاء الذي رمي به « الخليل » وكذب انه تعلم من (حنين بن اسحق) اليونانيـة وذلـك على أساس استنتاج تاريخي لا ينقض ، وهو ان الخليل توفي عام ١٧٥ هـ بينما ولد حنين بعد عام ١٩٤ هـ فهما لم يتعاصرا فضلاً عن انهما لم يتقابلا .

وقد شهد المؤرخون للخليل بأنه ابتكر طريقــة « تدوين المعاجم » وانه صاحب الشكل المستعمل منها إلى الآن فقــال (حمزة بن الحسن الاصفهاني) : « إن دول الاسلام لم تخرج أبدع العلوم التي لم يكن لها عند العرب أصول إلا بالخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه ولا على مثال تقدمه أخذه وانما اخترعه » .

وقد جهد في ذلك العمل جهداً بالغاً فقد شافه الأعراب في البادية فأحاط من ذلك بما لم يحط به أحد ، وقد انبعث لهـــذا العمل من تحد خطير وواضح،فقد رأى ان العرب قد ضعفت فيهم السليقة العربية ، بعد ان تبلبلت الألسنة وفشا اللحن وأخذت المقاييس غير العربية تسيطر .

فكان من ذلك عمله في اللغة ، ثم عمله في الشعر .

اما في اللغة فوضع « كتاب العين »، واما في الشعر فقد جمع شعر العرب من كل فج ورتبه ترتيباً عجيباً وجعله طوائف وارجع كل طائفة إلى اصل ، ووضع لكل أصل تفعيلات يعرف بها ويتميز بها وبلغت هذه الأصول خمسة عشر أصلا سماها بحوراً وجعل لكل بحر اسماً يناسبه .

فلما أظهر ذلك للناس دهشوا له وعجبوا .

وكان الخليل هو أول من علل أسباب النحو وأدخل فيه القياس ، ولم يكن قبل ذلك علماً له أصول وقواعد ما عدا جملا قصيرة وضعها (ابو الاسود الدؤلي) ومن خلال هذه الأعمال حفظ لغة القرآن من الاضطراب ، ووضع للغوي مقاييسه وللشاعر مقاييسه وقد امتد هذا العمل بتلاميذه واتسع نطاقه فاكمل النضر بن شميل كتاب العين، ومضى سيبويه في اتمام عمله في النحو .

- ٣ -

اما حياة الخليل فلم تكن صفوا كلها . كانت حياة فقيرة يملؤها ورع عجيب فهـو لا يقبل العطاء ولا يريد أن يكون خادماً للملوك والأمراء ، حتى قالوا : [انه اقام في خص من اخصاص البصرة لا يقدر على فلسين] وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال . وآية خلقه انه كان يستمع في حلقات العلم دون أن يشارك في الجدل ، يقول سفيان الثـوري : من احب ان ينظر الى رجل خلق من الذهب والمسك ، فلينظر إلى الخليل بن احمد كما وصفه ابو حاتم بقوله :

قد صاغه الله من تبرٍ ومن ذهب

وصاغ راحته من عارض هطـل

وقد كان سمح الوجه ،صافي الذهن، عبقرياً ، لا يعادي احداً ولا يتشفى ، بل يتغاضى دائماً ويتسامى عن صغائر الأمور .

كانت آية ذهنه : انه يحاول أن يستخرج من الظواهر أصولا تجمع في قانون واحد . وبلغ من ورعه وزهده وقناعته عما في أيدي الناس قوله :

« اني لأغلق علي بابي فما يجاوزه همي » .

رفض دعوة أمير الاهواز وفارس [الامير سليمان بن حبيب المهلبي] الذي بعث اليـه بهدية في مائة الف درهم ويدعوه الى أن يقدم اليه فيلازمه وينادمه ويؤدب أولاده .

رفض الخليل الفقير الذي لم يكـن في بيته ثمن كسرة من الخبز هذا العرض، وقال لرسول الامير : « أرايت هذه الكسرة من الخبز ، انها زادي الوحيد ولكنهـا كافية لسد رمقي ، ما دام عندي منها فلست بحاجة إلى سليمان ، اما هـذه الدراهم الكثيرة فعند الامير من الشعراء من هم بحاجة اليها » .

وكان لهذا التصرف أثره البعيد في نفوس طلابه، وتحدث به الناس في البصرة ، ولكنه لم يكن لينظر الى ذلك بل كان يربأ بنفسه ان يكون عبداً لأمير . ويرفض ان يبيع علمـه وعزته وعقله بالمال .

كانت نظرته إلى الحياة أعمق من أنيكون عبداً للمال، وكان يحتقر الظواهر ويمتهن التجمل ومن شعره قوله :

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حـول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

ويقول : اكمل ما يكون الانسان عقلا وذهنا، إذا بلغ ثلاثاً وستين سنة ،وأصفى ما يكون ذهن الانسان في وقت السحر .

ولقد خرج الخليل في أيامه الأخيرة من البصرة الى خراسان. بدعوة من تلميذه [الليث بن المظفر] أمير خراسان يشيعه ثلاثة آلاف رجل ساروا معه حتى بلغوا « المربد » فأوقفهم وخطب فيهم بما يشبه الاعتذار عن خروجه ، قال :

« كانت هذه أيام سد فيها باب المعاش علي ، وتضرر الأهل والولد ، وكثر اللوم فلم يثنني عن عزمي إلا دعوة رجل صالح عالم فقد أراد ان يوفر لي الراحة في الشيخوخة بأجر اتقاضاه على علمي ، فيسهل العيش على الأهل .

وكان « الليث بن المظفر » كاتباً وعالماً وقد تلقى الخليل بالحفاوة والتكريم ، ولكن الخليل كان مشغولا بحصر تراكيب اللغة والفاظها فيما عرف بعد بكتاب « العين » الذي كتب مقدمته ومنهاجه وتركه لليث ، بعد ان قال له — فقد شخت يا بني ولم يعد عندي من الحول والقوة ، وأبدى استعداده لقراءة كل ما يحرره .

ويجيب على كل سؤال ، وقد أهداه الخليل مذكراته ، وملاحظاته وتقييداته من اللغة ليستفيد بها .

وقد حصر في [كتاب العين] لغة العرب ، ثم لم يلبث ان هتف به هاتف الحج ، فسافر الى (مكة) ، وقصد منها الى (البصرة) التي استقبلته مكرمة إياه ، حيث أقام بقية أيامه . وفي هذه الفترة التقى بتلميذه [سيبويه] الذي كان يكتب كل

ما يقال ، والذي كثر تردده على مجالس الخليل حتى أحبه ، وقال له عبارته الخالدة .

[مرحباً بزائر لا يمل]

كان الخليل يسأل ، ويسأل ويكتب سيبويه في ألواحه ، وقد وجد فيه ما لم يجد في تلاميذه حتى قيل ان الأمر بلغ بينهما إلى حد ان كانا يتكلمان فلا يفهم أحد ما يقولان وقد جمع سيبويه أقوال استاذه في النحو واخرج مصنفاً دعاه « قرآن النحو » .

ومن تلاميذ الخليل : الأصمعي والنضر بن شميل والليث بن المظفر وسيبويه .

ومن تصانيفه : العين في اللغة ، العروض ، الشواهد ، النقط ، الشكل ، النغم .

- ٤ -

وصف الخليل بأنه ذلك الرجل الصالح الوقور : الزاهد في أمر الدنيا فما يطمع منها في شيء حتى انه أقـــام في خص من اخصاص البصرة لا يقدر على فلسين ، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال وكان « النضر بن شميل » يقول : أكلت الدنيا بعـــلم الخليل وهو في خص لا يشعر به .

ويقول : اكمـــل ما يكون الانسان عقلاً وذهنا إذا بلغ الأربعين ، وهي السن التي بعث فيها محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويقول : أصفى ما يكون الانسان ذهنا وقت السحر .

وكان سفيان الثوري يقول : « من أحب ان ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن احمد .

وكان من الراغبين عن الدنيا ، الراغبـين إلى الله يحج سنة بعد سنة .

ومن قوله : أربع تعرف بهن الآخرة :

« طلب الصفح قبل الاستقالة ، وتقديم حسن النية قبـل التهمة ، والبذل قبل المسألة ، ومخرج العذر قبل العتب » .

وعن الاصمعي يقول : قال الخليل : العلوم أربعة ، علم له أصل وفرع ، وعلم له أصل ولا فرع له ، وعلم له فرع ولا أصل له ، وعلم لا أصل له ولا فرع . فأما الذي له أصل وفرع فالحساب ، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف. وأما الذي له أصل ولا فرع له فالنجوم ، ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم يعني الاحكام والقضايا على الحقيقة .

أما الذي له فرع ولا أصل له فالطب وأهله منه على التجارب إلى يوم القيامة والعلم الذي لا أصل له ولا فرع ، فالجدل ، يعني الجدل بالباطل .

« وسيبويه » هو أكبر تلاميذ « الخليل بن احمد » ، وقد ذكره الناس ونسوا استاذه . وقد عرف الخليل بالذكاء البالغ والقدرة على استخراج الأصول من الفروع الدقيقة ، ويروى في ذلك أن رجلاً مات وعنده دواء لظلمة العين ينتفع به ، فلما افتقر الناس إلى ذلك الدواء جاؤوا الخليل .

فقال الخليل : أله نسخة معروفة ، قالوا لا : قال فهل آنية كان يعمله فيها قالوا : نعم قال : جيئوني بها فجاؤوه بها فجعل يشم الاناء ويخرج نوعاً حتى أخرج الاخلاط جميعاً وأخذ يتعرف اقدارها إلى ان اهتدى الى ذلك ثم وجدت النسخة في كتب الرجل فوجدت الاخلاط كما اهتدى اليها .



ثم جاء ختام حيـاته متسقاً مـــع طبيعته العامة الحاذقة ، المندفعة إلى البحث وإلى تجميع الأصول، ذلك أنه رأى الجارية تخاصم البائـع وهي تطالبه بدراهم أخذها منها بمغالطته إياها ، فأراد أن يقرب نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البائع فلا يمكنه ظلمها ، ودخل المسجد وهـــو يعمل فكره في ذلك ، فاصطدم رأسه بالسارية الضخمة فوقـع واحدث صوتاً شديداً وانقلب على ظهره وتدحرج إلى الأرض مضرجاً بالدماء .

وكانت هذه نهاية الرأس المفكر الذي أخرج للنـاس علماً وفكراً سيظل أثره باقياً ما بقيت العربية . فلما اجتمع النـاس حوله قال لهم عبارته الأخيرة :

« لا تبكوا ، فوالله ما فعلت فعلاً أخاف على نفسي منـه ، وكان لي فضل فكثر صرفته إلى وجهة وددت بعـــد ذلك اني كنت صرفته إلى غيرها ، وما علمت اني كذبت متعمداً قط ، وأرجو ان يغفر لي التأول » .

توفي عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) بعد ان عاش حيـــاة خصبة عريضـة .

الاشعري

(ابو الحسن علي بن اسماعيل)

(١٧٠ – ٢٣٠) هـ.

– ناصر السنة –

« اشهد اني لا اكفر احداً من أهل القبلة، لان الكل يشيرون الى معبود واحد ، وانما هذا كله اختلاف العبارات »

الأشعري

الاشعري

- ١ -

يروي الامام السبكي في كتابه طبقات الشافعية الكبرى عن الأشعري يقول: أقام على الاعتزال أربعين سنة حتى صار للمعتزلة اماماً ، فلما أراده الله لنصر دينه وشرح صدره لاتباع الحق ، غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً ثم خرج الى الجامع وصعد المنبر وقال :

« معاشر الناس انما تغيبت عليكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي شيء على شيء فاستهديت الله تعالى فهداني الى اعتقاد ما اودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب التي الفها على مذهب أهل السنة إلى الناس » .

وقيل انه قال : « من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا فلان ابن فلان كنت أقول بخلق القرآن وان الله لا تراه الابصار

وان افعال البشر أنا افعلها ، وانا تائب مقلع »، ذلك هو منطلق حياة ابي الحسن الاشعري وقمـــة تحوله ، وأخطر موقف في حياته ، انتقل به الفكر الاسلامي من مرحلة إلى مرحلة فأصبح علم الكلام سلاحاً من أسلحة السنة. وتحرر من كثير مما أضر به من مفاهيم المنطق اليوناني ، وأعـاد للمعرفة الاسلامية مفهومها الجامع بين العقل والقلب بعد ان غلا المعتزلة بأمر العقل غلواً كبيراً ، وقد جاء مذهب الاشعري مفهوماً وسطاً متكاملاً بين افراط المعتزلة وتفريط القدامي من أهل السنة .

ذلك ان أهل السنة قبل الاشعري كانوا يرون انـــه يجب الوقوف عند دليل النقل دون التأويل فيه ، أو التحول عنه إلى الادلة العقلية المنطقية . ولقد كان ابو الحسن الاشعري تلميـذاً لابي علي الجبائي اربعين عاماً في مجال الاعتزال ، وكان شيخه يبعث به إلى المجالس نائباً عنه ، مما أفاده قوة في الجدل ، وعمقاً في المراجعة ، والسجال ، غير ان إيمانه العميق وتفتـح روحه وعقله إلى مفهوم الاسلام ، قد أزال من أمامه غشاوة الجمود على ما وصل اليه المعتزلة من مفاهيم ، وتحررت نفسه وتطلعت إلى تحول أكثر عمقاً وأكثر صلة بالسنة ، ويبدو ان بعض المسائل التي طرأت على عقله ولم يجد عند المعتزلة جواباً عندها دفعته الى أن يتجه إلى الله سبحانه سائلا إياه أن يهديه إلى الطريق المستقيم وان يكشف له نور الحق ، وكانت نقطة التحول انه رجع إلى القرآن ، هنالك اعتزل الناس وقبع في بيته يحقق وقـد ألهمه

الله الحق .

ولا بد انه قد مر بمرحلة طويلة من التخلخل النفسي بين مذهب المعتزلة وبين مفاهيمه التي كانت اقرب اتصالا بالسنة وأعمق إيماناً بالله وأصح فهماً للقرآن حتى ليقال انه لم يكن راضياً كل الرضا عن طريقة الاعتزال لغلوها في التأويل وترجيح المعقول عن المنقول ، فالتمس طريقاً يوفق به بين المعتزلة واصحاب الحديث ، ويجمع به المسلمين على رأي واحد ، فاعتمد على الحجة العقلية واشبع رغبة العقل للمعرفة وحافظ على المنقول في نفس الوقت وكساه ثوباً جديداً .

اتخذ الاشعري في مفهومه الذي أطلق عليه « مذهب أهل السنة » طريقاً وسطاً فلم يذهب مذهب المعتزلة الى تمجيد العقل والايمان بأن له سلطة لا تحد ، وان له الحكم على كل ما يتصل بالذات والصفات وما وراء الطبيعة ، وان له الكلمة الاخيرة النافذة في كل موضوع ، ولم يبالغ في مجافاة التأويل كما كان يبالغ السلف من أهل الفقه والحديث ولم ير أن الانتصار للدين والدفاع عن العقيدة الاسلامية يستلزمان انكار العقل وموته وازدراءه .

فدافع عن السنة بأساليب العقل ، ولم يسلم للعقل بكل ما ليس من حقه ، فأعاد الى النفوس والعقول الثقة بالاسلام ، ودافع عن العقيدة الصحيحة ، وأزال سطوة الاعتزال عن العقول والافكار وحرر مفهوم السنة من الجمود ، وقد أعانه على الوصول

إلى الحق انـه تحرى مفهـــوم القرآن أساساً ، وجعله منطلقه وهداه . واثبت ان الدين وعقيدته مؤيد ان بالعقل وان العقل الصحيح يؤيد الدين الصريح ولا صراع بينهما ولا تناقض .

وقد ارتضت مفهومه كل المذاهب : الشافعية والمالكيـة والحنابلة والاحناف كما ارتضاه المتصوفة ، وقـــد بلغ من سعة الافق انه كان يصوب المجتهدين في الفروع ، وقال : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها هي التمسك بكتاب ربنـا وسنة نبيه وما روي عن الصحابة والتابعين وائمة الحديث ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول بـــه احمد بن حنبل قائلون لانـه الامام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفـــع به الضلال .

يمكن القـــول بأن صيحة ابي الحسن الاشعري هي تطور طبيعي لمفهوم العقائد ، تحررت به من « الانحجاز » الذي وقف به المعتزلة عند اعلاء مفهوم العقل ، وما تلاه من « انحراف » عن مفهوم المعرفة الاسلامي : قلباً وعقلاً ، أو جمعاً بين المعقول والمنقول ، فكان لا بد من ظهور مدرسة وسطى بين الفريقين تجمع بين منهج المعتزلة ومنهج أهل السنة في ظل القرآن وتعود أساساً الى الاسلام ، فقد جعل الاشعري العقل خادماً للنصوص ، ولم يجعل النصوص محكومة بالعقل فهي فـــوق العقل ، والعقل أداة تقريبها والدفاع عنها (وقد رأى الاشعري ان كل ما جاءت به السنة حجة تثبت به العقائد) .

- ٢ -

يؤمن الاشعري بأن القرآن كلام الله قديم بمعانيه حادث بألفاظه ، ومعجز للبشر بنظمه (أسلوبه) والله سبحانه قد تحدى البشر من ناحية الاسلوب فعجزوا عن مثله وعن مثل سورة منه وعن بعض سورة من مثله ، والايمان عنده هو التصديق بالقلب ، أما القول باللسان والعمل بالاركان ففروع من الايمان ، واثبت القدر لله خيره وشره ، وأثبت صفات الجلال لله من قدرته وعلمه وارادته وحياته وسمعه وبصره وكلامه وان الله تعالى موجود تجوز رؤيته .

وهو يرى «النظر والكلام» ليتم الاعتقاد عن معرفة وبصر، لا عن مجرد انقياد وتقليد ، ولا بأس عنده من الخوض في أمور شاعت بعد نقل الفلسفة اليونانية ، بل يرى ان مثل هذا النظر واجب لرفع الشبهة وتثبيت الحجة ، وازالة الحيرة والشكوك من النفوس في سبيل الرد على المبتدعة والمخالفين .

وقد اعتبر (الاشعري) الإنسان خاضعاً لارادة الله المباشرة في جميع شؤونه، فالعبد يريد ما يشاء ولكن الله هو الذي يخلق

عمل الفرد متى سمح به، والفعل خلق من الله وكسب من العبد، وهو منسوب إلى العبد مجازاً ليس إلا ، ولو كان العبد خالقاً لفعله لشارك الله في الخلق .

والعدالة الالهية لا تنافي الجبر ولا تعارض عقيدة الحساب بل تتسق معها اتساقاً تاماً إذ هي تعرف المالك في ملكه، فكل ما يصدر عن الله عدل لانه مطابق لمشيئته فافعال الله خير وقضاؤه وقدره عدل وحسابه في اليوم الآخر عقاباً أو ثواباً حق، وان ما نسميه شراً انما هو كذلك بالنسبة إلى مصالحنا ليس إلا، هذا الشر النسبي أو الخاص أمر لا بد منه في هذا الكون من أجل تحقيق الخير العام .

وهكذا أخضع الاشعري العقل للمسببات ، واخضع النفس للمبادىء الاخلاقية التي نص عليها القرآن، دون الغاء حكم العقل.

والاشعري في تقدير الباحثين لم يبدع رأياً ولم ينشىء مذهباً، وانما هو مقرر لمذاهب السلف مفاضل عما كان عليه صحابة رسول الله .

- ٣ -

وبالجملة فان الاشعري أثبت ثلاثة أشياء هامة : (١) أثبت القدر لله خيره وشره ونفعه وضره . (٢) وأثبت صفات الجلال من قدرته وعلمه وارادته وحياته وبقائه وسمعه وبصره وكلامه ووجهه ويده . (٣) واثبت ان القرآن كلام الله ، قديم غـــير مخلوق، وان الله تعالى تجوز رؤيته وان ارادته نافذة في مراداته.

وفي هذا حرر الفكر الاسلامي من إنكار المعتزلة الصفات الالهية وانكارهم رؤية الله يوم القيامة وانكارهم الشفاعة والغفران الالهي دون قيد أو شرط ، وكان في ذلك تقنيط للنـاس من رحمة الله ، وهذا هو الغلو العقلي الذي انكره الاشعري ووجده مخالفاً لمفهوم القرآن حيث أنه لا يلائم طبيعة الانسان الذي هو في حاجة إلى الرحمة فكان تحرر المفاهيم الذي قام به الاشعري حافظاً للسنة .

ولقد كان مدار فكر الاشعري ومنطلق مفهـومه : ان « القرآن » هو اساس الدين ومداره ، حوى العقيـدة بأصولها

وفروعها وانه قد حرره مما وجهته اليه الفرق وأوله كل منها على حسب مذهبه .

وله عدد من المؤلفات التي رد فيها على المخالفين وفي كتابه [تفسير القرآن والرد على من خالف البيان من أهل الافك والبهتان] يقول :

«ان أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن على آرائهم وفسروه على اهوائهم تفسيراً لم ينزل الله به سلطاناً ولا رووه عن رسول رب العالمين ولا عن السلف المتقدمين » ويرى الباحثون ان تفسير القرآن هو أهم معالم دراساته وفكره وغاية ما وصل اليه وان مختلف كتبه تفصيل لهذا التفسير ، ومنها مقالات المسلمين ومقالات المخالفين الخارجين عن الله ومقالات الملحدين .

وقد افترق الاشعري عن المعتزلة في أمور أربعة : صفات الله ، والقضاء والقدر ، والسمعيات (كالشفاعة وعذاب القبر) وعدم تكفير أحد من أهل القبلة :

وقد كانت مفاهيمه (أولاً) جامعة للمسلمين بعد فرقة ، (ثانياً) محررة للنفوس من قلق المفاهيم العقلية الصرفة ، (ثالثاً) عائدة بالمسلمين إلى مفهوم الفطرة وبساطة الاسلام ويسره ، (رابعاً) قادرة على دحض حجج الخصوم بأسلوبهم العقلي .

- ٤ -

عقيدة أهل السنة والجماعة كما كتبها الامام الاشعري

الاقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون من ذلك شيئاً وان الله سبحانه إله واحد فرد صمد ، لا إله غيره ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وان محمداً عبده ورسوله وان الجنة حق والنار حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور وان الله سبحانه على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وان له يدين بلا كيف قال : (خلقت بيدي) ، وكما قال (بل يداه مبسوطتان) وان له عينين بلا كيف كما قال: (تجري باعيننا) وان له وجهاً كما قال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) .

وان أسماء الله لا يقال أنهما غير الله ، كما قالت المعتزلة والخوارج ، ونقر لله علماً كما قال : (أنزله بعلمه) ، وكما قال

(ما تحمل من انثى ولا تضع إلا بعلمه) ونثبت السمع والبصر ونثبت لله القوة، كما قال (أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) .

ونقول انه لا يكون في الأرض من خير ولا شر إلا ما شاء الله وان الاشياء تكون بمشيئة الله وكما قال المسلمون : ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون .

ونقول : ان أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله أو يكون أحد يقدر ان يخرج من علم الله او أن يفعل شيئاً علم الله انه لا يفعله . ونقر بانه لا خالق إلا الله وان سيئات العباد يخلقها الله ، وان اعمال العباد يخلقها الله عز وجل ، وان العباد لا يقدرون ان يخلقوا منها شيئاً .

وان الله وفق المؤمنين لطاعته وخذل الكافرين ولطف بالمؤمنين ونظر لهم وأصلحهم وهداهم ولم يلطف بالكافرين ولا هداهم وان الله يقدر ان يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين وان الخير والشر بقضاء الله وقدره .

ونقول : ان القرآن كلام الله غير مخلوق والكلام في الوقف واللفظ ، من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع ولا يقال : اللفظ بالقرآن مخلوق ولا يقال : غير مخلوق .

ونقول : ان الله يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون ، ولا يراه الكافرون ، لانهم عن الله

محجوبون . قال الله (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) . ولا نكفر احداً من اهل القبلة ، بذنب يرتكبه كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر ، والمسلمون بمـا معهم من الايمان يؤمنون ، وان ارتكبوا الكبائر ، والايمان عندنا هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره وحلوه ومره ، وان ما اخطـأهم لم يكن ليصيبهم وان ما أصابهم لم يكـن ليخطئهم والاسلام هو ان تشهـد بأن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله على ما جاء في الحديث والاسلام عندهم غير الايمان . ويرون الصبر على حكم الله ، والأخذ بما أمر الله ، والانتهاء عما نهى الله عنـه واخلاص العمل والنصيحة للمسلمين ، ويدينون بعبادة الله في العابدين والنصيحة لجماعـة المسلمين ، واجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والعصبية والفخر والكبر والازراء على الناس والعجب . ونرى مجانبة كل داع الى بدعة والتشاغل بقراءة القـرآن وكتابة الآثار والنظر في الفقه مـع التواضع والاستكانة وحسن الخلق ، وبذل المعروف وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية وتفقد الماكل والمشرب .

فهذه جملة ما يأمرون بـه ويستعملونه ويرونه وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول واليـه نذهب وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل واليه المصير » .

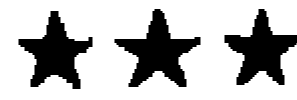
- ٥ -

يعطي الاشعري لشخصيته وحياته نموذجاً رفيعاً من أكرم نماذج المفكرين المسلمين وهو باجماع مؤرخيه كان ورعاً تقياً سمحاً وكان منصرفاً الى الزهد والعبادة فمن أخبـاره انه كان يصلي صلاة الصبح بوضوء العتمة وكان لا يحكي عـن اجتهاده شيئاً إلى أحد .

قال : ابو عمران موسى بن احمد بن علي الفقيه : قال سمعت ابي يقول: خدمت الامام أبا الحسن بالبصرة سنين وعاشرته الى ان توفي رحمه الله فلم أجد اورع منه ولا اغض طرفاً ولم أر شيخاً أكثر حياء منه في أمور الدنيا، ولا أنشط منه في أمور الآخرة.

وقال بندار بن الحسن ، وكان خادم الاشعري بالبصرة : كان ابو الحسن يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبي بردة ابي موسى الأشعري على عقبه ووصفه عبـد الكريم القشيري فقال: انه امام من أئمة اصحاب الحديث تكلم في أصول الديانات على مذهب أهل السنة ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة وكان على المبتدعين والروافض من أهـل القبلة والخارجين على

الملة سيفاً مسلولاً . وقال السبكي انه شيخ طريقة أهـل السنة والجماعة وامام المتكلمين وناصر سنة سيـد المرسلين والذاب عن الدين والساعي في حفظ عقائد المسلمين سعيا يبقى أثره الى يوم يقوم الناس لرب العالمين .



ولد بالبصرة ۱۷۰ هـ وتربى في احضان جده العظيم ، ابي موسى الاشعري ، ولما توفي والده وهو لا يزال صغيراً تزوج أمه أكبر شيوخ المعتزلة : ابو علي الجبائي فنشأ في احضان المعتزلة ومضى على طريقتهم حتى بلـغ سن الاربعين ، وبرع في الجدل والاستدلال والمناظرة حتى تعرض لذلك التحول الخطير ، وقد بلغت تصانيفه (٥٥ مصنفاً) وفي رواية انها زادت علىالمائتين ، ومن تصانيفه المتعددة: الفصول في الرد على الملحدين والخارجين على الملة ، وخلق الأعمال ، والرد على المجسمة ، والرد على ابن الراوندي في الصفات والقرآن ، والتبيين عن أصول الدين .

وآية عظمة الاشعري وسمو خلقه انه حـين أعلن تصحيح مفاهيمه ، لم يهاجم احداً باسمه ، ولا دخل في خصومات، بل انه يقول : أشهد اني لا اكفر أحداً من أهل القبلة لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد وانما هذا كله اختلاف العبارات .

وقد اقر الاشعري بأن اللهسبحانه أرشده الىالسنة ونصرتها

وان خاطراً من النبي صلى الله عليه وسلم جرى في نفسه كان يردد : انصر المذاهب المروية عني فانها الحق ، وان الله سيمدك بمدد من عنده ، ويقال انه رأى ذلك في المنام ، وقد وصف بأنه شيخ بهي المنظر ، يقضي العجب من فصاحته وسماحته ، إلى ما عرف عنه من الزهد في الدنيا واليسر . وقد حرصت كل المذاهب ان تنسب الاشعري اليها فاعتبره الشافعية منهم وسلكه السبكي في طبقاتهم وروى عنه الصوفية كثيراً من الاخبار ونسبوه الى زمرتهم . ونشأت عنه مدرسة ضخمة وما تزال عقيدته حتى اليوم تسيطر على شطر كبير من العالم الاسلامي .

(توفي ٣٣٠ هـ — ٩٤٢ م) .

البيروني

ابو الريحان : محمد بن احمد

(٣٦٤ — ٤٤٠)

« تأصيل المنهج العلمي »

« ان النجاح والتوفيق موهبة من الله غير مكتسبة بـــل يختص بها قوما دون قوم ، ان حـــل الازمات الاقتصادية لا يكون مادياً بوجه من الوجوه بل هو معنوي محض » .

البيروني

البيروني

- ١ -

يقول العلامة : ادوارد سخاو : « البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ وأكبر ظاهرة في تاريخ العلم في الحضارة الإسلامية ولعله مما يفسر هذا الحكم الخطير ما يرويه ياقوت عن النيسابوري يقول : دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه وقد حشرج نفسه وضاق به صدره فقال لي في تلك الحال :

« كنت قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة » .

فقلت له اشفاقاً عليه : أفي هذه الحالة ، قال لي : يا هذا ، اودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيراً من ان اخليها وأنا جاهل بها ، ... فأعدت عليه ذلك وحفظه ، وعلمني ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا في الطريق سمعت الصراخ .

★ ★ ★

كان البـــيروني باحثاً فيلسوفاً رياضياً من أصحاب الثقافة الواسعة ، أبرز سماته وهي سمة جميع علماء المسلمين : « الربط بين العلم والدين » . بمعنى أن يكون العلم في خدمة الانسان ومن خلال الأخلاق والتقوى ، رأى ياقوت فهرستا لكتبه في الخزانة العظمى بالمسجد الجامع بمدينة مرو يقع في ستين ورقة بخط دقيق الحروف ، ووصف ابو الفرج المالطي (ابن العبري) كتبه بانها كانت محكمة غايـــة في الاتقان ، وصف بأنه أعظم شخصية رياضية برزت على مسرح الحضارة الاسلامية ، فقـــد كان أبرز مفاهيمه هو طبع العلوم التي يعمل فيها المسلمون بطابع الاسلام وتحريرها ونقلها من المفهوم الاغريقي الاستاتيكي للكون الى المفهوم الاسلامي الديناميكي .

ورقي بالعلم من مرحلة« الترجمة والنقل » الى مجال«الابداع» فكان عمله علامة على بزوغ الطابع الاسلامي وتألق المنهـــج العلمي التجريبي الاسلامي ، فقـــد درس ما وجده في التراث الاغريقي والهندي ، فعلق عليه وصححه وحرره وأضاف اليه اضافات جديدة. وسلك للوصول إلى آرائه طريق الدرس والبحث والاستقصاء ، وكان علامة على المنهـــج الحسي والتجريبي في مواجهة المنهج الاشراقي الذي كان سائداً والذي انحرف بالمسلمين من بعد بينما أخذ الغربيون بمنهجه فأنشاوا الحضارة المعاصرة .

فقد حدد البيروني منهجه العلمي في التزام الرجوع الى المناهج الأصلية ، وقد نفذ هذا هو في ابحاثه تنفيذاً صارماً كما يورد ذلك

مؤرخوه [1] . واتخذ « البحث والتجربة » سبيله الى تحصيل المعارف وانكر تقبل الآراء المسلم بها من غير تمحيص أو تحقيق، وعمد الى امتحان الاشياء بعقله واخضعها للتجربة [2] .

وهذا هو سر تميز البيروني وتبريزه كواحد من الطبقة الأولى للشخصيات البارزة ، فقد رفض « مسلك المعاصرين له الذين كانوا يقيمون علمهم على المذهب الاشراقي الذي انتشر بين الصوفية وتقوم دعائمه على أن منابع المعرفة لا تكون إلا عن طريق المجاهدة والرياضة والمكاشفة ، نعم رفض البيروني القول بأن المعرفة تستفاد عن طريقة رياضة النفس بوسائل الزهد عن المتاع الدنيوي (وحدها) وحرر مفهوم المعرفة على النحو الذي أقره المفهوم الاسلامي جامعاً بين العقل والقلب ودعا الى ضرورة الاستفادة بكسب العلم عن طريق العقل .

وقد كان هذا التحول عن طريق البيروني امراً طبيعياً ، فقد رفض الفكر الاسلامي مفهوم الفكر اليوناني حيث تختلف جذوره ومفاهيمه عن روح الفكر الاسلامي وطبيعته أشد الاختلاف ، وأبرز هذه الفوارق « ان الروح الاغريقية تمتاز بالذاتية أي بشعور الذات الفردية بكيانها واستقلالها عن غيرها من الذوات بينما الروح الاسلامية تعني بالذات في كل ، فليست الذوات المختلفة أجزاء تكونه بل هو كل يعلو على الذوات كلها،

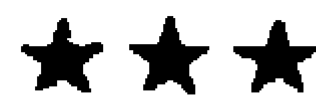
---

(١) راجع الاستاذ ابو الفتوح التونسي في كتابه عن البيروني ابو الريحان.

(٢) نفس المصدر .

وليست هذه الذوات إلا من آثاره ومن خلقه يسيرها كيف يشاء ويفعل بها كما يريد [1] » .

ومما يتصل بأصالة منهجه العلمي الاسلامي أنه قرب قضايا علم الفلك من اشارات القرآن فكان بذلك من أول من ربط بين أصول القرآن الكلية وبين خفايا العلوم واسرارها .



أما في مجال الاضافات التي قدمها في مجال العلوم فيمكن القول انه اضاف الكثير :

(أولاً) : أنه عمل قانوناً جغرافيا كان اساساً لأكثر القسموغرافيات الشرقية ، وقد استند الى قوله سائر المشرقين في الكليات .

(ثانياً) : بحث في تقسيم الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية وكان ملماً بعلم المثلثات وكتبه تدل على انه عرف قانون تناسب الجيوب .

(ثالثاً) : عمل تجربة لحساب الوزن النوعي واستعمل في ذلك وعاء مصبه متجه الى أسفل ، ومن وزن الجسم بالهواء والماء ، تمكن من معرفة مقدار المزج ، ومن هذا الأخير وزن الجسم بالهواء حسب الوزن النوعي .

---

(١) احمد السعيد الدمرداش .

(رابعاً) : كتب عن الارقام الهندية وتغـــير قيمها بتغير مواضعها .

(خامساً) : حل كثيراً من المسائـل الهندسية التي لا تحل بالبرجل والمسطرة وحدهما وصنف في الفلك دائرة معارف .

(سادساً) : فسر ظهور الماء من الآبار بأنه المـــاء في مثل الاواني المستطرقة بلغ في احداها مستوى هو لا شك بالغ مثله في كل آنية متصلة بها أخرى.

(سابعاً) : قارن بين سرعة الصوت وسرعة الضوء وقال : ان سرعة الضوء غاية في الكبر .

(ثامناً) : حدد الثقل النوعي لعدد من المعادن والاحجار تحديداً دقيقاً لا يكاد يذكر الفرق بينه وبـــين الوزن الحديث اليوم وهي معادن: الذهب والزئبق والنحاس والحديد والصفيح والرصاص والياقوت والزمرد واللؤلؤ والبلور .

ولقد عرف البيروني بالصبر في تحصيل العلم والفرح بـه إذا جاءه بعد انتظار، تحقيقاً لمنهجه في الاستقصاء والبعد عن التقليد.

وقد روى الرازي عـن ماني شيئاً فاستمر البيروني أربعين سنة يبحث عن مصادر هذا الشيء لكي يصل الى الحقيقة، ظنا منه ان الرازي قد خدع به ، فلما علمه أعلن ذلك في صراحة ، وكان إذا وصل الى طلبته من مصادر العلم يفرح فرحاً كبـيراً ويقـول :

« غشيني من الفرح ما يغشى الظمآن من رؤية الماء ».

ومن مفاهيمه العميقة قوله ان كلمة (الله أعلم) التي يقولها العلماء أحياناً ، ليس فيها مساعحة بالجهل « أي ان من يقولها لا يعفي نفسه من الجهـل بالأمور فيما ينبغي ان يكون من علـم الانسان » .

وكان من عادته إذا عرض لنظرية الا يورد من الأمثـلة الا النزر اليسير ، وذلك حتى يدفع الباحث من بعده على ان يجتهد في الوصول الى مرحلة أكبر .

يقول : اني أخلي تصانيفي من المثالات ليجتهد الناظر فـيما أوردته منها ، متى كان له دربة واجتهاد ، وهو محب للعلم ومن كان من الناس على غير هذه الصفة فلست أبالي به فهم أم لم يفهم .

- ٢ -

ومن أعظم الاضافات التي قدمها البيروني نظراته في الاقتصاد التي كشف عنها الدكتور محمد يحيى الهاشمي في اطروحته عـن منابع كتـاب الاحجار وقد استمدها من كتـاب البيروني [الجماهر في معرفة الجواهر] ، قـال انه اكتشف له نظرية اقتصادية كلها تماس قـوي مع النظريات الاقتصادية الحديثة أقرت بقيمتها الدوائر الغربية ، فقد دعا (البيروني) الى اتخاذ قيمة ثابتة للمعاملة في المبادلات لتسهيل تبادل المصالح ، وقـد اشتق (البيروني) فكرته من حاجة المخلوقات إلى المعيشة ، كما تحدث عن الضرر الذي ينجم من الغلو في تقدير الذهب والفضة واختزانها وقـال لأول مرة : ان قيمة الذهب هي ليست من معدنه بل بحسب الاعتبار « وضعا لا طبعا » .

يقول : لما سهل على الناس تكاليف الحياة وتصاريف المعاش بالصفراء والبيضاء ، انطوت الافئدة على جمعها ومالت القلوب اليها واشتد الحرص على ادخارهما والاستكثار منها وحل محلها من الشرف والأبهة وضعا لا طبعا واصطلاحاً فيما بينهم لا شرعا ،

لأنهما حجران لا يشبعـان من جوع ، ولا يرويان من صدى ولا يدفعان بأساً ولا يقيان من أذى » .

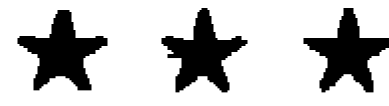
وقد عالـج البيروني معضلة كنز الأموال وعـدم تركها للتداول، لأن الحركة هي من ضرورات الحياة فاذا وقفت هذه الحركة كانت أزمـة اقتصادية هائلة ، وأنكر البيروني كنز الأموال واستدل بالآية القرآنيـة : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها) الآية ، ويشير البيروني الى حكمة الله في خلقهما ، لانتفاع الناس بترددهما في ايديهم اثمانا لمصالحهم فاذا ما كنزا انقطع انتفاع الخلق بهما وخولف أمر الله ومشيئته فيهما .

ويعتقد البيروني ان الذهب والفضة إذا خرجا من معدنهما صارا كالزروع المحصورة والانعام المذبوحة لا يسوغ غير أكلها وانفاقها وكذلك هذا المال ليس له بعد الاستنباط غـير الطبع عينا وورقا وترديده في الأيدي ، لهـذا السبب يرى البيروني حكمة تحريم الأواني الذهبية لانها تصير غير منتفع بها في الوقت الذي جعلت لأجل تسهيل التبادل في المصالح البشرية .

وتحدث في مجال الاقتصاد عـن معنويات الأمم كالفتوة والمروءة وقـال : إن المروءة تقصر على الرجل في نفسه وذويه والفتوة تتعدى الى غيره .

وقال ان حل الأزمات الاقتصادية لا يكون مادياً بوجه من الوجوه بل هو معنوي محض ، فلو غرس في قلوب الناس معنى

تلك المروءة والفتوة لما أطاق بشر أن يرى غيره يتقلب في الآلام وهو وحده يتنعم بشتى الخيرات ويعلم ان الدرهم الذي بيده والمال الذي جمعه يجب ان يتداول ويجب أن يمشي ولا يقف في أرضه».



ولا شك تعطي هذه النظرية براعة البيروني وعمق فهمه، واتصال فكره بجوهر الاسلام وتكشف عن جانب آخر من مجال عظمته ومناحي عبقريته .

- ٣ -

وفي مجال التاريخ كانت له أعماله : وفي مقدمتها : [الآثار الباقية عن القرون الخالية] وكتابه الفذ : [تحقيق ما للهند من مقولة] الذي انتفع به الاوربيون انتفاعاً لا حد له في دراساتهم عن الهند حتى قال عنه « بروكلمان » ان هذا العالم الفذ يعد نسيج وحده في الأدب العربي وقد أدى للدراسات الاوربية خدمات جلى وقد أتاحت له رحلته إلى الاقسام الاسلامية من الهند فيما يطلق عليه (الباكستان) اليوم معرفة واسعة ، حتى انه درس اللغة السنسكريتية واتقنها من أجل استكمال دراساته واتقانها في مجال التاريخ والثقافة والأديان .

وإذا كان كتابه (القانون المسعودي) يعد أعظم موسوعة في الفلك والهندسة والجغرافيا فان كتابه (الآثار الباقية) يعد أعظم موسوعة في التاريخ والجغرافيات فقد أجرى فيه مقارنات واسعة بين علوم اليونان والهند والعرب وبين عقليات الأمم وبين الأديان وفرقها وتاريخها حتى وصف بأنه اوسع العلماء شمول علم في نطاق الحضارة التي ينتمي اليها .

وله من خلال هذا البحث منهج علمي في التحقيق التاريخي يصوره مؤرخوه قوامه :

(١) تمحيص مادة البحث .

(٢) كراهية للعصبية التي « تعمي الأعين النـواظر وتصم الآذان السوامع وتدعو الى ارتـكاب ما لا تسامح بارتـكابه العقول .

(٣) بذل الجهد للتحرر من المؤثرات في احكامه .

(٤) موقف لاحتياط أمام التاريخ القـديم المأثور « فيقرر بحق انه لا سبيل الى الحكم على تاريخ الامم الماضية وأحوالها عن طريق الاستدلال بالعقل ولا بالقياس على المشاهد ولكن لا بد من نقد هذه الأخبار والمقارنة بينها لتصحيحها بعد تنزيه النفس عن الاسباب المائلة دون إدراك الحق » . وهو لا يقبـل الكلام المطلق الذي ليس معه حجة أو برهان تطمئن النفس اليه وهو لا يصدق الأمور التي تعلل بأسباب غير منطقية أو بأسباب غير واضحة مطردة الفعل [1] » .

وكان من أبرز مفاهيمه العلمية في مجـــال البحث التاريخي – وغيره – حرصه على الاطلاع على ثقافات الامم الأخرى من مصادرها الاصلية من غير اعتماد على الترجمات ومن أجل هذا تعلم السريانية والعبرية ....

---

(١) راجع الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريده (الثقافة) والتوانسي في كتابه عن البيروني .

- ٤ -

ولد ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني عام ٣٦٤ هـ بضاحية جرجان بخوارزم ، ونشأ في بيئة فارسية فتعلم العربية والفقه وسمي بالبيروني نسبة الى بلدة بيرون من بلاد الهند ولانه أقام بها فترة طويلة ، وقد دفعه اتجاهه العلمي إلى التمكن من اللغة العربية والفقه وسرعان ما برز في عديد من العلوم : فكان جغرافياً ومؤرخاً وعالمـــاً طبيعيا وفلكياً ثم اتيحت له فرصة الرحلة الواسعة ، وكانت له مهارة عجيبة في معرفة اللغات فقد أجاد عديداً منها .

وقدصحب البيروني صديقه ابن سينا فترة ترددا خلالها على مكتبة نوح بن منصور الساماني أحـــد أمراء الدولة السامانية وجرت بينهما مراسلات علمية ،وقد تأثر بآراء الفارابي والكندي والمسعودي ووسع في نظرة الرازي التي كانت تدعو إلى التحرر من نفوذ الفلسفة اليونانية وآراء ارسطو .

وقد كان لا يُرى إلا مكبا على تحصيل العـــلم عاكفاً على التصنيف فلا تفارق يده القلم ولا عينه النظر ولا عقله التفكير .

- فهو فلكي ممتاز بشهادة علماء الفلك من الفرنجة والغرب .
- وهو في الجيولوجيا ممتاز بشهادة علماء الجيولوجيا المعاصرين.
- وفي التاريخ مؤرخ محقق مدقق واسع الاطلاع .
- وفي الرياضيات عالم ضخم اقتبس منه نيوتن وجريجوري كثيراً من القوانين الرياضية .
- وفي الجغرافيا يعد أبا للجغرافية البشرية .

وقد خلف البيروني بضعة ومائة وثمانين كتاباً ضاع منهـا الكثير ، ومن أبرز ما بقي منها :

« القانون المسعودي : (أكبر موسوعة في الهيئة والنجـوم والفلك) .

« والآثار الباقية عن القرون الخالية ، ومقاليد علم الهيئة ، والجماهر في معرفة الجواهر وله :

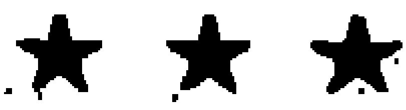
تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة .

قال ياقوت في معجم الادباء: أما سائر كتبه في علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فانها تفوق الحصر وقال البيهقي : ان تصانيفه زادت على حمل بعير .

وقد عرف البيروني بالذكاء وسعة الحيلة ، كما عرف بالتنكر للمطامع،وقد عاش في رعاية أمير جرجان (قابوس بن وشمكير) الذي يسر له ان يضع كتابه المشهور [الآثار الباقية] ثم انتقل

إلى بلاط السلطان محمود الغزنوي وأتيح له أن يطوف الهند ويجوب بلدانها ، حيث رافق فتوح الغزنويين وجمع معلومات صحيحة عنها .

وقد كشف البيروني عن أنه يمارس العلم خالصاً لوجه العلم ، لا للتقرب به الى الملوك ، ولا لتكسب الحياة عند الناس ، حتى انه عند ما أجازه السلطان مسعود بن محمود حين ألف كتابه المحيط بأوائل علوم الفلك والقانون المسعودي رد جائزته فلقد أجازه « بحمل فيل » من نقده الفضي فلم يقبل أبو الريحان الصلة السنية التي تتناهى دونها آمال الكثيرين ورد المال الى الخزانة بعذر الاستغناء عنه ، وفي رواية أخرى ان السلطان وجه اليه ثلاثة جمال تنوء باحمالها من نقود الفضة فردها البيروني قائلاً : انه يخدم العلم للعلم لا للمال .



وإذا كان البيروني فارسي العرق ، فانه عربي الثقافة قرآني الروح ، وقد تعصب للغة العربية واحبها يقول : « ديننا والدولة عربيان توأمان ، ترفرف على احدهما القوة الالهية وعلى الاخر اليد السماوية » يقول لويس ماسينيون « لقد فهم البيروني تمام الفهم الدور العالمي للغة العربية بوصفها بين اللغات السامية أهم لغة حضارة وادرك مقدرتها على التركيز والتجريد ، وتراكيبها

عـــن طريق الاشتقاق بدلاً من الزوائد وقيمتها في توحيـد المتكلمين بها » .

ولم يكن يكترث البيروني برأي الناس ولا بقالتهم فـــيما يعتقد أنه الحق . وقد اعترف به العلمــاء الغربيون الذين قدروا أثره وفضله : يقول ما يرهوف : ان اسم البيروني أبرز اسم في موكب العلماء الكبار الواسعي الافـــق الذين يمتاز بهم العصر الذهبي في الاسلام .

ويقول ارثو ابهام بوب [1]. غير ممكن أن يكتمل أي تاريخ للرياضيات أو الفلك أو الجغرافيا أو عـــلم الانسان أو مقارنة الديانات دون الاقرار بمساهمته العظيمة في كل عـــلم من تلك العلوم ، ولقد كان البيروني من أبرز العقول المفكرة في جميـع العصور وكان يتميز بالصفات الجوهرية التي تخلق العالم،فالبيروني بذلك مظهر من مظاهر الشمول وعدم التقيـد بالزمن شأن العقول العظيمة ، وانه لفي الامكان تجميـع عـدد كبير من الاقتباسات عن مؤلفات البيروني كتبها منـذ الف سنة وهي تسبق كثيراً من المناهج ومن المواقف العقلية الـتي يفترض انها اليوم حديثة وقال جورج سارطون في كتـابه : « المدخل الى تاريخ العلم » .

ان النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي هو عصر

---

(١) المجلد التذكاري للبيروني – الهند – ١٩٥١ .

البيروني ، ذلك لأن أبا الريحان في هذه الحقيقة التاريخية كان علماً لامعا في آفاق المشرق والمغرب، فالبيروني هو الذي وضع أسس علم الجغرافية البشرية وبعض العلوم الرياضية في وقت كانت اوربا فيه ما تزال تستعمل النظام الروماني في التقويم الزمني وكانت معلومات الاوربيين في الهندسة لا تتجاوز هذا المستوى الهزيل الذي كان معروفاً قبل « فيثاغورث » في حين ان بلاد العرب وقتئذ كانت شعلة متوهجة تنبعث منها أضواء ساطعة من العلوم الرياضية الراقية .

ويقول يوسف شخت : الحق ان شجاعة البيروني الفكرية وحبه للاطلاع العلمي وبعده عند التوهم، وحب الحقيقة وتسامحه واخلاصه، كل هذه الخصال كانت عديمة النظير في القرن الوسطي فقد كان البيروني في الواقع عبقرياً مبدعاً ذا بصيرة شاملة نفاذة.

ويقول بارتولد : ان آراء البيروني في المعتقدات الدينية وبخاصة الأديان الهندية لحرية بعناية قراء اليوم ، فقد أدرك البيروني أن المعتقدات الدينية تابعة لاسباب واحدة في كل مكان وكان يهتم بالفرق بين دين الخواص ودين العوام ، ولا يعترض ولا ينقد مطلقاً حينما يشرح العقائد الدينية كما كان يحافظ – ما أمكن – على العبارات التي يستعملها معتنقو كل دين وإذا فارق بين دين ودين فانما يقارن بينهما مقارنة علمية محضة .

ويكاد اجماع العلماء ان يعتقد على ان البيروني « اول » من حث على النظر في العلم وادماجه في جملة العوامل الرئيسية ذات

الأثر الفعال في ارتقاء وانحطاط الجماعات البشرية .

ويرتبط البيروني في كشوفه العلمية بالمنهج القرآني والاسلام ارتباطاً وثيقاً يقول: دلت تجاربي الفلكية والهندسية عن الحياة وطبيعة الكون على وجود عقل مدبر غير محدود ، وان كشوف علم الفلك قد دلت على روائع في الكون خفية ودقائق عجيبة تدل على نظام مبدع وإحكام بارع وقد لا تكفي في تعليله الاسباب الطبيعية .

ومن الاصول التي حققها البيروني « دوران الأرض » وهذه عبارته في تحقيقها :

« اما عن دوران الارض وانقذاف ما على سطحها في الفضاء من حيوان ومساكن فالجاذبية تمسكهم ، فكل شيء على الارض مرتبط مرفوع إلى مركز الارض ، اما ان الارض تدور ولا تدور السماء أو ان الارض ساكنة وحولها السماء تدور ، فأمران مسببان ، فالارض منسوبة الى السماء ، كالسماء منسوبة الى الارض ، والمسألة مسألة نسبية .

ويمكن القول على الجملة بأن البيروني كانت له اضافات علمية بناءة في علوم الجولوجيا والمعادن وفي الرياضيات والفلك وفي الجغرافيا والعلوم الطبيعية وفي الاقتصاد وان أعظم اضافاته تحرير منهج المعرفة الاسلامي في العلم وتطبيقه على النحو الذي يكشف عن ذاتية المذهب التجريبي الاسلامي بعد أن تحرر من

مفاهيم اليونان وانه جرى على طريقة القرآن في الربط بين الدين والعلم وجعل الايمان الصحيح ودعم الصلة بين العبد وربه سبيله في استخلاص النتائج وانفتاح المغلق وكان يؤكد هذا المعنى حين يقول :

« ان النجاح والتوفيق موهبة من الله غير مكتسبة بـــل يختص بها قوماً دون قوم » .

(توفي ٤٤٠ هـ ١٠٤٨ م) .

الحسن بن الهيثم

٣٥٤ – ٤٢٩ هـ

(منشىء علم الضوء الحديث)

«ليس ينال في الدنيا اجود ولا أشد قرابة الى الله من ايثار الحق وطلب العدل . لما كملت لادراك الامور العقلية انقطعت الى طلب معدن الحق» .

ابن الهيثم

الحسن بن الهيثم

– ١ –

إذا ذكرنا هذا « النابغة العملاق الكبير » في مجال الفكر العربي الاسلامي ورد بالخاطر ثلاثة أعمال كبرى كان فيها رائداً ومؤثراً ومضيفاً جديداً ، وتاركاً أبعد الأثر في الثقافة العربية الاسلامية بل والعالمية ، تلك هي :

١ – انه واحد من واضعي المنهج العلمي الحديث بوصفه منهجاً عربياً اسلامياً أصلاً .

٢ – انه أول من تحدث عن « بناء السد العالي » .

٣ – انه منشىء علم الضوء الحديث ولا يقل أثره فيه عن أثر نيوتن في الميكانيكا .

وقد رسم [ابن الهيثم] اصول المنهج العلمي الحديث في كتابه المناظر ، وأشار الى ان العناصر العامة في هذا المنهج هي:

[الاستقراء ، القياس ، الاعتماد على المشاهدة ، التجربة والتمثيل] ، يقول :

« ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في مجال الأبصار ، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه في كيفية الاحساس ، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، ونتحرى عن سائر ما يميزه وننتقده ، وطلب الحق الذي به يثلج الصدر ونصل بالتدرج واللطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين ، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنسجم به مواد الشبهات وما نحن مع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الانسانية ومن الله نستمد العون في جميع الأمور » .

وهكذا يكشف ابن الهيثم ، عن غاية « المنهج العلمي » في نظره وهو :

(١) استعمال العدل لا اتباع الهوى .

(٢) التجرد عن الهوى والانصاف بين الآراء .

(٣) وجود ما يثلج الصدر في الوصول الى الحقيقة .

وقد عرض العالمـــان الكبيران الدكتور مصطفى نظيف والعلامة قدري طوقان الى مفهوم ابن الهيثم ، وكان جملة ما ذهبا اليه : ان ابن الهيثم قد عمق تفكيره الى ما هو أبعد غوراً ممـا يظن أول وهلة ، فأدرك ما قال به من بعده « ماك » و « كارل بيروسون » وغيرهما من رجال العلم الحديث في القرن العشرين ، وأدرك الوضع الصحيح لنظريته العلمية وأدرك وظيفتها الحقـة بالمعنى الحديث وغاية الرأي عندهما انه اتجه الى الوجهـــة التي يتجه اليها التفكير العلمي الحديث وعندهما انه سبق في طريقته العلمية وبحوثه وكشوفه العلمية «بيكون» في طريقته الاستقرائية وسما عليها وكان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً .

ومن أبرز أعمال حياته الفكرية ما كتبـــه في البصرة قبل قدومه الى مصر وذلك قوله : « لو كنت بمصر لعملت في نيلهـا عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص فقد بلغني أنه ينحدر من وضع عال وهو في طرف الاقليم المصري ».

وهو بهذه العبارات قد تنبه الى فكرة « السد العالي » ومن عجب أنه جاء مصر عام ٩٩٥ م أي منذ أقل من ألف عـام ، فقد دعاه الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي بعد أن سمع كلمته عن مقدرته في أن يعمل عملاً لتنظيم ماء النيل .

وهذه القصة قد شابها شيء كثـــير من الغموض ولم يتوسع

المؤرخون والباحثون في ايراد تفاصيلهـــا ، فقد قدم ابن الهيثم مصر واستقبل استقبالاً طيباً ، بعد أن أرسل له الحاكم أموالاً وهدايا ورغـّبه في الحضور ، ويروى أن الحاكم خرج لاستقباله خارج القاهرة وأكرمه وأعد له نزلاً طيبـــاً ، وأتاح له الفرصة أيامــاً .

ثم اجتمع به محدثاً اياه فيما قال من أمر النيل .

فشرح ابن الهيثم فكرتــه على النحو الذي تصوره قبل ان يتوجه الى الموقع ثم ُهيئت له الوسائل والرجال فسار في جماعة من الصناع المحترفين لأعمال البناء ، وتتبع مجرى النيل وكأنه في بعثة هندسيــة بالمعنى الحديث – على حد تعبير الدكتور مصطفى نظيف – حتى وصل الى أسوان وتجاوزها الى موضع وصفه القفطي مؤرخه بأنه « معروف بالجنادل » فأجرى معــه معاينة المكان من جانبيه « فلم يجد الأمر متفقـــاً وفكرته الهندسية التي خطرت له ففكر وقدر فلم يجد مندوحـــة من العودة الى القاهرة .

هذا ما ذكره المؤرخون ، فلما عاد الى القاهرة قابل الحاكم ووصف له الأمر ، فتظاهر الحاكم بقبول عذره وولاه منصباً ، وكان للحادث أثره السيء في نفس ابن الهيثم ، حتى انه خشي من الحاكم – وقد كان معروفــاً بالبطش – فتظاهر بالجنون ، وأشاع ذلك عن نفسه ، حــتى بلغ الحاكم فعزله وصادر أمواله وأمر بحبسه في منزله وجعل عليه من يخدمه .

ولبث في هـــذا الموضع حتى توفي الحاكم وتأكد هو من وفاته ، عند ذلك عاد الى الظهور والاشتغال بالعلم .

وليس هناك من الأسانيد مـــا يصور فكرة ابن الهيثم التي تخيلها ولا الواقع الذي وجده على الطبيعة فرده عن فكرته .

ولا شك أن حرصه على أن ينقل معـــه عدداً من الصناع المحترفين للبناء انما يدل على أن المشروع كان في تقديره من قبـــل بناء سد أو خزان ، ويبدو أنه بنى فكرته على ما بلغه من أن النيل ينحدر من مكان مرتفع فلعـــله حين عاين المنطقة التي بلغها لم يجدها على النحو الذي كان يتخيله أو أنه واجه الجبال العالية فردته عن عملية البناء ، إذ أحس بأن العمل من الصعوبة بمكان .

وربما كان ابن الهيثم قد كوّن فكرة عـــن شخصية الحاكم واضطراب أعصابه ومواقفه المعروفة التي بلغت الغايـــة في الغرابة ، فخشي إن بدأ العمل ألا يتمه أو إن أتمـه لا يجيء على النحو الذي تتحقق معه الصورة الكاملة أو غير ذلك مما دار في خاطره ، وهو الرجل الغريب عن المنطقـــة الجرداء ولم يكن هناك من الأجهزة ما يكفل له سلامة العمل أو من وسائل الحياة ما يكفل له حسن الإقامـــة ، لذلك فكر وقدر ، ثم تحول عن « تنفيذ » الفكرة ، وان كان لا زال في أعماق نفسه مؤمناً بها

- ٢ -

و« ابن الهيثم » كما يبدو من وقائع حياته رجل عالم مخطط، فكره أكبر من قدراته ، وأدواته ، ومجاله في العمل العقلي أكبر من مجاله الانشائي، ومن هنا كانت دقته في ابتداع المذهب العلمي في البحث القائم على الاستقراء والدليل ، لم يسبق « باكون » الى ادراك عنصر (الاستقراء) فحسب ، بل سما عليه لأنه أدرك العناصر الأخرى التي لم يدركها (باكون) من بعده ، وعند الدكتور نظيف [مؤرخه الكبير] أنه أدرك طريقة الأخذ بالاستقراء والقياس والتمثيل والاعتماد على الواقع الموجود .

أما عمله الأهم والأعظم فهو ، ابداع « علم البصريات » ، فقد قلب الأوضاع القديمة وأنشأ علماً جديداً أبطل فيه علم (المناظر اليوناني) وعارض نظرية اقليدس وبطليموس في أن العين ترسل الشعاعات البصرية الى الأجسام المرئية وهو أول من قال (ان الضوء له وجود في ذاته مستقل عن وجود البصر) .

وكان أول من رأى أن الابصار يكون به وقد استقصى ظاهرة الامتداد على السموات المستقيمة وظاهرة الانعكاس

وظاهرة الانعطاف ، وقال : إن ما ذهب اليه المتقدمون من أن الشعاع يخرج من البصر غير صحيح، وقال : ان الضوء له وجود في ذاته مستقل عن وجود البصر .

قال العلامـــة بيرهوف « ان علم البصريات وصل الى اعلى درجة بفضل ابن الهيثم ، وأثبت « كيلر » أبرز علماء البصريات أنه أخذ معلوماتـــه في الضوء ولا سيا فيا يتعلق بانكساره في الجو من كتب ابن الهيثـــم ، كما اعترف بذلك العالم الفرنسي « فيادور » .

وكتابه [المناظر] حجة في هـــذا المجال ، فقد بحث في انتشار الضوء والألوان والخداعات البصرية والانعكاس البصري بتجارب علمية في اختيار زوايا الانعكاس والسقوط .

كما فحص ابن الهيثم انكسار الأشعة الضوئية خلال الأوساط الشفافة [الهواء – الماء] واستطاع أن يقترب جداً في النتائج التي حصل عليها من الاكتشاف النظري للعدسات المكبرة التي صنعت في ايطاليا بعد ذلك بثلاثة قرون .

وفي رأي الباحثين أن كتاب المناظر لا يقل مادة وتبويباً عن الكتب الحديثة العالية إن لم يفق بعضها، وقد ضم موضوعات [انكسار الضوء وتشريح العين ، وكيفية تكون الصور على شبكة العين] .

وقد عاش علماء أوربا على دراسة هذا الكتاب عدة قرون،

وبفضله استطاع علماء القرنين١٩ ،٢٠ أن يخطوا بالضوء خطوات واسعة . وأهم ما أحدثه ان جعل من البصريات علماً مستقلاً له أصوله واسمه وقوانينه .

وقد انتفع بمؤلفاته فحول العلم الأوربي الحديث [بيكون، وكيلر ، وفنزى ، وواتيلو] وسحرت بحوثه في الضوء ماكس مايرهوف وأثارت اعجابه الى درجة جعلته يقول [ان عظمة الابتكار الاسلامي تتجلى لنا في البصريات] كما أثر مؤلفه على (ليونارد دافنشي) .

وأبرز مظاهر علمه أنه استدل في جميع بحوثه في الضوء [بالتجربة] واستعان باجراء التجارب بالمعنى الذي نعنيه الآن كما أولى [القياس] اهتمامه الكلي فهو بعد أن يثبت المبادىء الأولية بالتجربة يتخذ تلك المبادىء قضايا يستنبط منها بالقياس النتائج التي تفضي اليها .

وكانت نظرته الى من سبقوه جديدة ، وكان اتجاهه جديداً الى وجهة لم يسبقه اليها أحد فأصلح الأخطاء وأتم النقص وابتكر المستحدث من المباحث وأضاف الجديد من الكشوف.

ولا يقف عمل ابن الهيثم عند هذا الحد فله جوانب أخرى : أبرزها عمله في [علم الفلك] ودوره في دراسات الفلسفة ، ففي الفلك له رسائل تزيد على عشرين رسالة ، ومن رسائله يتبين أنه استنبط طريقة جديدة لتعيين ارتفاع القطب او عرض المكان

على وجه التحديد ، كما بسط سير الكواكب وتمكن من تنظيمها جميعها على منوال واحد ، كما أدخل خط الاشعاع الضوئي بدلاً من الخطوط البصرية ، وكان كل ذلك عامـــلا على تقدم علم الفلك .

وقد كان ابن الهيثم الى ذلك رياضياً بارعاً تتجلى مقدرته في تطبيق الهندسة والمعادلات والأرقام في المسائل المتعلقـــة بالفلك والطبيعة .

وقد صور مذهبــــه في العمل الفكري في عبارات دقيقة تكشف عن نفسيته حين قال : « وأنا ما مدت لي الحيـاة باذل جهدي ومستفرغ قوتي في مثل ذلك – بقصد العلم متوخياً منه أموراً ثلاثة .

أحدها : إفادة من يطلب الحق ويؤثره في حيـــاتي وبعد ممـــاتي .

والآخر : اني جعلت منه ارتياضياً لي بهذه الأمور في إثبات ما تصوره واتقنه فكري من تلك العلوم .

والثالث : اني صيرته ذخيرة وعدة لزمــــان الشيخوخة وأوان الهرم » .

وهكذا يبدو ابن الهيثم نموذجاً من نماذج علماء الفكر العربي الاسلامي الذين عرفوا جميعـــاً باخلاص النية لله ، والتجرد من المظاهر ، وتقدير الحق لوجه الحق وحده ، وقد أورد ابن الهيثم

هذا المعنى مراراً في قوله : « ليس ينال في الدنيا أجود ولا أشد قرابة الى الله من ايثـار الحق وطلب العدل » فهو لم يزل — على حد عبارته — منذ عهد الصبا مروياً في اعتقادات الناس المختلفة وقد درس كل فرقة وكل رأي « موقناً بأن الحق واحد » وأن الاختلاف فيه « انما يكون من جهة السلوك اليه » .

يقول: « فلما كملت لادراك الأمور العقلية انقطعت الى طلب معدن الحق ، فخضت لذلك ضروب الآراء والاعتقـادات ، وأنواع علوم الديانات فلم أحظ من شيء منها بطائل ولا عرفت منه للحق منهجاً ولا الى الرأي اليقيني مسلكاً جدداً ، فرأيت أني لا أصل الى الحق إلا من آراء تكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية » .

وهكذا بلغ مفهوم الحقيقة عن طريق العلم الذي اشتغـل به ، واستحق أن يقنـع بأن ثمرة هذه العلوم هي علم الحق والعمل بالعدل في جميع الأمور الدنيويـة ، والعدل هو محض الخير والذي يفعله يفوز بنعيم الآخرة السماوي » وهو يصور مذهبه العلمي على ذلك النحو الذي يخيل لقارئه أنه مكتوب بلغة النصف الثاني من القرن العشرين :

« كل مذهبين مختلفين تماماً ، إما ان يكون أحدهما صادقاً والآخر كاذباً واما ان يكونا جميعاً يؤديان الى معنى واحد وهو « الحقيقة » ويكون كل واحد من الفريقـين الباحثين القائلين بذينك المذهبين قـد قصر في البحث فلم يقدر على الوصول الى

الغاية فوقف دون الغاية او وصل أحدهما الى الغايـــة ، وقصر الآخر عنها ، وعرض الخلاف في مظاهر المذهبـــين ، وتكون غايتهما عند استقصاء البحث واحدة . وقد يعرض الخلاف أيضاً في المعنى المبحوث عنه من جهة اختلاف طرق المباحث ، واذا حقق البحث وأمعن النظر ظهر الاتفاق وانسفر الخلاف » .

- ٣ -

ان أبرز ما يقوله الباحثون في العلوم أن كتاباً يبحث في تاريخ الطبيعة حتى الآن في العالم كله لا يمكن أن يخلو من اسم (الحسن بن الحسن بن الهيثم أو أبي علي المهندس) .

وقد كانت مؤلفاته هي المرجع والمعتمد في اوربا حتى القرن السادس عشر ، وقالت دائرة المعارف البريطانية : ان ابن الهيثم أول مكتشف ظهر بعد بطليموس في علم البصريات وأن علم المناظر وصل الى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم ، وأن ابن الهيثم كتب في تشريح العين وفي وظيفة كل قسم منها وأنه بيّن كيف ينظر الى الأشياء بالعينين في آن واحد وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئي الى العينين ومع ذلك تقع صورتان على الشبكة في محلين متماثلين ، قال ذلك بينما قال اليونان بأن الأشعة تخرج من العينين إلى الجسم المرئي .

وهو أول من بين أن الصور التي تنشأ من وقوع صورة المرئي على شبكة العين تتكون بنفس الطريقة التي تتكون بها صورة شبكية لجسم مرئي تمر أشعته الضوئية من ثقب في محل

مظلم ، ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذي دخل منـــه النور والسطح تقابله في العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء فاذا ما وقع الضوء حدث تأثـــير انتقل إلى المخ ومن ذلك تتكون صورة الجسم المرئي في الدماغ .

وأبحاثه في المرايا المحرقة تدل على إحاطته الكلية بمبدأ تجمع الأشعة التي تسقط على السطح موازية للمحور بعد اسقاطها عنه .

- ٤ -

وبعد فان أبا علي الحسن بن الحسن بن الهيثم المهندس ، ولد بالبصرة « ٣٨٥ هـ — ٩٦٥ م » وقدم مصر ٤١٥ هـ فأقام بها بضعة وأربعين عاماً حتى توفي بها « ٤٥٩ هـ — ١٠٣٩ م » .

وقد ساهم خلال هذه الاقامة في الحركة العلميـــة على النحو الذي برز في علم الفلك وعلم البصريات وفي الفلسفـــة ، وقام بالتدريس في الجامع الأزهر ، وعمـــل مع الاعلام من أمثال ابن يونس وعمار وعلي بن رضوان وماسويه المارديني .

ولم يكن في وسعة من العيش ، كان يعيش على نسخ المصنفات الرياضية ويعتمد على مسودة كتابين أو ثلاثـــة من الكتب الرياضية ينسخها كل عام فيأتيه من أقاصي البلاد من يشتريها منه بثمن معلوم .

وكان ثمنها يكفيه مؤونة العام ، وقد أتيح لابن الهيثم أن ينشىء في (المقطم) مرصداً جعـل فيه أحـد مشهوري علماء الفلك وهو « ابن يونس المصري » ، كما أجرى بحثـــاً هندسياً

متسلسل الخطوات ، قدر به الجزء من مساحة سطح القمر الذي ينعكس عليه الضوء .

وقد وضعه العلامة [سارطون] في كتابه [مقدمة تاريخ العلوم] بأنه أعظم عالم فيزيقي مسلم ، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا في البصريات في جميع العصور ، وأنه الى ذلك كان طبيباً وفلكياً ، ورياضياً ، وله شروح على مؤلفات ارسطو وجالينوس وكتابه [المناظر] أهم مؤلفاته .

وكان ابن الهيثم فاضل النفس ، قوي الذكاء ، متفنناً في العلوم ، لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلوم الرياضية ولا يقرب منه ، وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد كما وصفه ابن أبي صبيعة في « عيون الأنباء » بأن عدّه من طبقات الحكماء ، وهو رياضي بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى وأبلغ ما يصل اليه من حدود ، كما صوره الدكتور مصطفى مشرفة .

وقد عاش ابن الهيثم الذي تحدثت عنه جامعات أوربا قروناً فقيراً ومات فقيراً ولم ينصفه أحد بل لقي الاجحاف طول هذه الفترة من التاريخ بينما عرفه علماء الغرب وذكروه بمزيد من التقدير والاجلال .

توفي ٤٢٩ هـ / ١٠٣٩ م

اضافات ابن الهيثم

(١) اضاف القسم الثاني من قانون الانعكاس القائــل بأن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتــان في مستوى واحد ، أما القسم الاول من هذا القانون فقد وضعه اليونان ، وهو ان زوايتي السقوط والانعكاس متساويتان .

(٢) صنع مرآة مكونة من بعض حلقات كروية ولكل منها نصف قطر معلوم ومركز معلوم اختارها بحيث ان جميع الحلقات تعكس الأشعة المطلة عليها في نقطة واحدة وقاس كلا من زاويتي السقوط والانكسار .

(٣) كشف ان بطليموس كان مخطئاً في نظريته القائلة بأن النسبة بين زاوية السقوط وزاية الانكسار ثابتة ، وقــال بأن هذه النسبة لا تكون ثابته بل تتغير .

(٤) استعمل لقيــاس زاويتي الانكسار آلة تشبه الآلة المستعملة الآن في أصول تركيبهــا وله جدول أدق من جداول

بطليموس في معاملات الانكسار لبعض المواد .

(٥) أول من كتب عن اقسام العين وأول من رسمها بوضوح تام ، ووضع اسماء لبعض اقسام العين، فمن الاسماء التي وضعها : الشبكية ، والقرنية ، والسائل الزجاجي ، والسائل المائي .

الماوردي

(علي بن محمد البصري)

٣٦٤ - ٤٥٠

(فيلسوف السياسة الشرعية)

« ان بين الفرد والمجتمع تأثيراً متبادلاً ، والفرد لا يكون سعيداً في مجتمع غير سعيد ، ومن صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال امورها لم يعدم ان يتعدى اليهـا فسادها لانه منها يستمد ، والفرد جزء من محيطه العام لا يستقل دونه بتدبير شؤونه ما دامت شؤونه ترتبط بالمحيط ارتباطاً مباشراً ».

الماوردي

الماوردي

– ١ –

يمثـــل « الماوردي » شخصية من أعمق شخصيـات الفكر الاسلامي علماً ، ومن أقدرها بيانا في مجال التعبير عـــن حاجة المجتمع الاسلامي دون الدخول في صراع أو معارضة ، فقـــد كشف طريق الاصلاح وأضاء حوله الأضواء وراى ذلك كافياً لمن يريد ان يتخذه أسلوباً ومنهجاً ، إيماناً بأن بيـان الحق هو في ذاته دعوة اليه وتحريض عليه .

وقد عني بأمور ثلاثة هي لب لباب الاصلاح وتجديد بناء الفكر الاسلامي وتصحيح مفاهيمه هي : السياسة الشرعيـة ، والتربية ، والاخلاق. فاذا قلت ان كثيراً مما توسع فيه المفكرون المسلمون كان هو واضع أسسه فانك لا تعدو الحقيقة ، ترى فيه مطالع الغزالي والجويني وابن خلدون وابن تيمية .

وقد أمدته اتصالاته الوثيقة ببلاطات الامراء وشؤون الحكم وأمور القضاء بمعرفة وخبرة وتجربة ظهر أثرها واضحاً حـين

أعاد تصنيف الفكر الاسلامي ، وصـــاغ الفكر الدستوري الاسلامي ، صياغة عميقة ، كشف فيها عـن مفهوم الاسلام في وضوح وقوة ، وكأنما أراد ان يقول للناس [هذا وليس الذي يعيشونه هو جوهر الاسلام] .

وكان في ذلك آيةمن آيات الشجاعة والمرونة في نفس الوقت، فقد أعلن رأي الاسلام في صراحة ولم يصطدم بالواقع اصطداماً مباشراً بل ترك للزمن والثقافة أثرهما في تغيير الاخطاء وتحرير المفاهيم .

وقد كشفت ابحاثه عن عقلية مرنة مستقيمة وقدرة عميقة في القدرة على الأخذ من الوقائع والجزئيات قواعـــد يربط بعضها ببعض ويتوصل بها الى ابراز ظواهر عامة وقوانين أساسية .

لقد عالج الماوردي المحورين الاساسيين للفكر والمجتمـــع الاسلامي : عالج المجتمع وعالـــج النفس الانسانية ووصل في علاجها إلى أصفى مفاهيم الاسلام نفسه واستطاع ان يتناول كل معضلات عصره ويضع لها الحلول في نطاق عرض شامل متكامل وكأنما قال للناس هذا هو « المثل الأعلى »الذي يجب ان يتحقق، وان ما تعيشون فيه ملىء بالنقص والاضطراب .

وهو أول من قال بفكرة التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع، والموازنة بين حقوق الفرد وحقوق الجماعة من غير تضحية احدهما لحساب الآخر ، كما تحدث عن الحافز الفردي ، وعنده ان الدين في مقدمة عوامل الاصلاح لارتباطه بضمير الانسان يقول :

« لم يخل الله خلقه مذ فطرهم عقلاء من اعتقاد ديني يستسلمون لامره فلا تتصرف بهم الاهواء » .

وقد صدر بحثه من فقه سياسي لا من اساليب الوعظ وكان لتجربته الواسعة ومشاركته في الحياة السياسية والاجتماعية أبعد الأثر في الفهم والتحليل والعلاج، فقد استعمل ملاحظاته الشخصية في مجرى البحث كما روى محفوظاته من الشعر والنثر ، فجاءت كتاباته ذات منهج علمي تجريبي حتى أمكن أن توصف بأنها أول محاولة لتقنين القيم الاسلامية الاساسية في تبويب شامل تناول شكل الدولة ونظام الحكم واحكام وزارتي التنفيذ والتفويض .

وكان من أكبر أعماله انه رسم القواعد التي يصلح بها المجتمع والقواعد التي يصلح بها الفرد .

- ٢ -

(والماوردي)في مجمل آرائه يؤمن بأن صلاح الجماعة يكون بصلاح الفرد وفسادها بفساده ، لأنهما مرتبطان متفاعلان يؤثر احدهما في الآخر ، ويتأثر به [لأن من صلحت حالته مع فساد الدنيا واختلال امورها لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها ويقدح فيه اختلالها لانه منها يستمد ولها يستعد ، ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام امورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثراً] .

وعنده أن صلاح الحياة الانسانية وانتظـام المجتمع البشري يقوم على قواعد ست :

١) ايمان يكبح شهواتهم . ٢) وسلطة يرهبونها .
٣) وأمن عام يتمكنون فيه من العمل لانه ليس لخائف راحة .
٥) وخصب دائم . ٦) وأمل فسيح .

فأما الدين المتبع فانه يصرف النفوس عن شهواتها اذ يصير زاجرا للضمائر رقيباً على النفوس اما السلطان فوجوده ضروري

لنظام العمران ، ووظيفته في الأمة حماية الوطـن من اعدائه ، وعمارة البلدان ، والتصرف في الأموال العامة على مقتضى السنة المشروعة والقضاء على المظالم والاحكام بالتسوية بــين أهلها واختيار الولاة والعمال من أهــل الكفاية والامانة ، أما العدل الشامل فانه يدعو إلى الالفة ويبعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمي الأموال ، ويأمن السلطان .

والعدل عدلان : عدل الانسان في نفسه ثم عدله في غيره ، اما الأمن ففيه تطمئن النفـوس وتنتشر الهمم ويأنس الضعيف ويقر الخائف ، اما الخصب فانه يقوي رابطة الود والتواصل ، ويخفف من حد الحسد بين الناس ، اما الامل الفسيح فهو نعمة من الله ، تدفع على العمل والتعمـير والاصلاح إذ لولا الأمل ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته .

ويرى ان انتظام حياة الفرد يحتاج الى :

اتباع الرشد، ووثاقة الالفة مع الناس والمادة الكافية للحياة وإلا اضطربت حياة الانسان مادياً وروحياً .

والقاعدة المادية للحياة هي « الكسب » الذي يحصـل منه المعاش ، وتقوم على أساسه الحياة البشرية ولا بــد من تنوع الاعمال وطلب الكسب أمر طبيعي وعقلي في وقت واحـد ، ووجوه الكسب عند (الماوردي) اربعة نماء زراعة ونتـاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة ويرى (الماوردي) ان بين

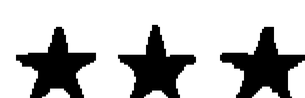
الفرد والمجتمع تأثيراً متبادلا ، والفرد لا يكون سعيداً في مجتمع غير سعيد ، ومن صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال امورها لم يعدم ان يتعدى اليه فسادها لانه منها يستمد ، الفرد جزء من محيطه العام لا يستقل دونـــه بتدبير شؤونه ما دامت شؤونه ترتبط بالمحيط ارتباطاً مباشراً فالانسان دنيا نفسه ، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له، لان نفسه أخص ، فصار نظره الى ما يخصه معروفاً .

وفي مجال التربية وضع الماوردي منهاجاً دقيقاً متكاملاً فدعا الى التعليم ، وقال انه لا ينبغي ان يمنـــع كبر السن من التعليم استحياء لأن العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوي الاسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة،ولأن يكون شيخاً متعلماً، أولى من ان يكون شيخاً جاهلاً ، والجهل بالكبير أقبح ونقصه أفضح،وانه ينبغي على الانسان ان يجعل له حظاً من زمانه،فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بـــد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ، ومن صرف كل نفسه الى الكسب ، حتى لم يترك لهـــا فراغاً ، فهو من عبيد الدنيا واسراء الحرص، ويرى (الماوردي) انه يجب ان يتجنب المتعلم الحفظ دون فهم للمعنى،حتى لا يروي بغير روية ولا يخبر من غير خبرة ، فيكون كالكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة ، قال ابن مسعود رضي الله عنه ؛ كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة ، فقد يرعوي من لا يروي ويروي من لا يرعوي . ويقول (الماوردي) : انـــه ينبغي ألا

يكتفي العالم ، بما تعلم بل عليه ان يزداد منه ، وليكن مستقلاً للفضيلة منه ليزداد منها ، ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهي عنها، ولا يقنع من العلم بما ادرك ، لان القناعة فيه زهد ، والزهد فيه ترك والترك فيه جهل .

وعنده ان العلوم شريفة ولكل منهـــا فضيلة والاحاطة بجميعها محال ، والمتعمق في العـلم كالسابح في البحر ليس يرى أرضاً ولا يعرف طولاً ولا عرضاً، وإذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وحب صرف الاهتمام إلى معرفة اهمهـــا والعناية بأولاها وافضلها ، وعنده أن لكل علم أثر في النفس فمن تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ، ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن تعلم اللغة رق طبعه .

وهو يدعو المعلم أن يرفق بالمتعلمين ولا يعنفهم ولا يحقرهم ، ويبذل النصح لهم ، فان ذلك أدعى اليه واعطف عليه وأحث على الرغبة فيما لديه وفي الآثار : علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف .



وترسم كتابات الماوردي منهجاً اجتماعياً كاملاً حين يتحدث عـــن حاجات الانسان ووسائل الكسب ويجملها في الزراعة والرعي وفي التجارة والصناعة .

ويرى ان الانسان يسلك في تحصيل حاجاته أحد طريقين : [المادة أو الكسب] .

اما المـادة فهي اقتناء أصول نامية بذواتهـا ، وحرفة الزراعة وموضوعها النبات وحرفة الرعي وموضوعها الحيوان .

أما الكسب فيكون بالافعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة (يعني التجارة والصناعة) .

كما قسم سعي الناس الى تحصيل العيش الى ثلاث درجات :

(١) السعي لتحصيل الكفاية . (٢) التقصير في الطلب .

(٣) طلب الزيادة والكثرة .

وقال ان افضل الثلاث وأعد لها هو الأول .

ورفض الماوردي [التوكل] بمعنى ترك العمل والقعود عن السعي تسليما وقناعة بما عند الله، وقال ان هذا المفهوم مما يتشبث به العاجزون والكسالى وقـال : ان التوكل الذي أمر الاسلام به لا يأتي قبل السعي وانما بعده،وان الله انما أمر به عند انقطاع الحيلة ، أي في حالة اخفاق الانسان في مسعاه «التوكل على الله يكون في حالة الفشل»تلك القوة الرحيمة التي لا تضيع الانسان ولا تهمله ، فيكون ذلـك باعثاً على استعادة الثقة بالنجاح أو مهيئاً للانسان سكينة روحية يواجه بها تلك المشاعر السلبية .

و (الماوردي) من أوائل الذين التفتـوا الى علاقة العادات

والتقاليد بتبدل الزمان والمكان فقد قسم الآداب الاجتماعية الى أدب مواضعة واصطلاح ، وأدب رياضة واستصلاح . الأول يشمل العادات والتقاليد التي تواضع عليها الناس فأصبحت مخالفتها مصدراً للذم والاستهجان ومنها ما وجب بالعقل ومنها أدب الرياضة والاستصلاح ، وتتضمن القوانين الأخلاقية التي لا تتبدل بتبدل الزمان والمكان ومنها الصدق والحياء وحسن الخلق ومجانبه الكبر والحسد ، وهنالك ما ليست ثابتة ولا خالدة ومنها مواصفات الخطاب وآداب الكلام وعنده أن هناك جانباً من التقاليد والعادات قابلة للتبديل والالغاء .

وقد تحدث الماوردي عن حماية الفرد من العدوان ، وعرض بالجور وقال : إنه يفسد الضمائر وكشف عن دواعي الصدق ودواعي الكذب وقال ان الاولى لازمة (أي طبيعية وثابتة) والثانية عارضة (أي طارئة ومؤقتة) والصدق يفرضه العقل وتؤكده الشرائع ، فهو الصدق بفطرة الانسان ، ودواعي الصدق نافعة لصدورها عن العقل والأصل في الانسان أن يكون خيراً عاقلا ، ولذلك يمتنع اتفاقه على الكذب لأن دوافعه عارضة ، ولأن الدواعي العارضة لا تستمد مادتها من العقل والفطرة اللذين تتماثل مطالبها ودواعيها من انسان إلى آخر (١) .

---

(١) انتفعنا في هذه المعاني ببحث هادي العلوي عن الماوردي (مجلة العلوم ١٩٦٤) .

- ٣ -

ولد علي بن محمد بن حبيب المكني بأبي الحسن الملقب بالماوردي عام ٣٦٤ هـ في البصرة ونشأ بها وتلقى تعليمه على جماعة من علماء عصره ثم انتقل إلى بغداد . وقد جمع في دراسته بين علوم الفقه والفلسفة والتفسير والسياسة ، وألم بعلوم الاجتماع والتربية .

وقد تولى القضاء وبرز في هذا المجال حتى لقب عام ٤٢٩ هـ بلقب قاضي القضاة . وآية تبريزه في مجال القضاء أنه كان متحرراً في مواجهة الاحداث قادراً على وضع الاحكام المرنة فلم يقف جامداً أمام النصوص بل اجتهد وراعى ظروف مجتمعه وعصره ، ويروي ياقوت أن الماوردي سلك طريقه في ذوي الارحام يورث القريب والبعيد بالسوية ، وعندما قال له يوماً أحد الفقهاء : أيها الشيخ اتبع ولا تبتدع رد عليه الماوردي قائلا :

« بل أجتهد ولا أقلد » .

وصفه السبكي في طبقات الشافعيين بأنه كان إماماً جليلاً رفيع الشأن له اليد الباسطة في المذهب والتفنن التام في سائر العلوم .

وقد أمضى الماوردي في القضاء مدة طويلة وجال جولة واسعة بالبلاد المختلفة ووقف على مشاكل الناس وقضاياهم وأمور المجتمع الاسلامي ، حتى إذا ما عاد إلى بغداد وسكن في درب الزعفراني بدأ عمله في كتابة دراساته وتجاربه على النحو الذي عرفته ، بذلك الاسلوب الموضوعي الذي تضمنه كتاباه :

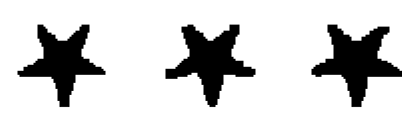
الأحكام السلطانية ، وأدب الدين والدنيا .

وهما ليسا أهم كتبه ولكن له مؤلفات أخرى ما تزال مخطوطة ، فقد امتاز بغزارة إنتاجه وله مؤلفات في الدين واللغة منها تفسير القرآن ويعرف بكتاب (النكت والعيون) والحاوى الكبير وهو مجموعة ضخمة من أحكام الفقه الشافعي في أكثر من عشرين مجلداً ، وله أدب القاضي وأعلام النبوة ، وفي اللغة له كتاب الامثال والحكم الذي يضم ثلاثمائة حديث وثلاثمائة حكمة وثلاثمائة بيت من الشعر ، وله كتاب في النحو وكتاب في قوانين الوزارة ونصيحة الملوك .

وقد درس في كتابه الاحكام السلطانية : نظام الحكم في الإسلام ونظام الدولة في الإسلام ، عارضاً إلى الولاية العظمى وشرط الامامة وولاية القضاء والجهاد والمظالم ، وتكلم عن

ولاية الحسبة وأحكام المحتسب وتكلم عن أحكام الأراضي والاقطاع ، واحياء الموات واستخراج المياه وأحكام الجرائم ، وقد استمد آراءه من المصادر الاسلامية الأصيلة .

أما في كتابه أدب الدنيا والدين فقد عالج به آفات المجتمع ، وتحدث عن أسباب الانحراف في النفوس وعرض للفضائل الاسلامية وكان منطلق منهجه هو علاج النفس جامعاً بين الترهيب والتخويف والتأليف والترغيب ، الترغيب في حسن عاقبة الخير والترهيب في سوء عاقبة الشر .



وفي مجال الفقه عرف « الماوردي » ببراعته في حدود أحكام الإسلام مع استقلال في الرأي وكان جريئاً في الحق حتى أنه عارض رأي الخليفة عندما أمر بأن يزاد في لقب جلال الدولة بن بويه كلمة (ملك الملوك) فأفتى بالمنع وقال : انه لا يقال ملك الملوك إلا لله ، وأن هذه صفة لا تليق إلا بذات الله تعالى وقال : ان هناك أحاديث نبوية تمنع ذلك منها (اشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الملوك ، لا ملك إلا الله تعالى) .

أعلن ذلك في صراحة وانقطع عن مجلس السلطان، فأرسل في طلبه فمضى اليه .

وهو يتوقع المخاطر فقال له جلال الدولة :

« إنني متحقق أنك لو حابيت أحداً لحابيتني لما بيني وبينك من مودة » .

« وانه ما حملك على ما قلت إلا الدين » .

وقد عرف الماوردي بالحلم وضبط النفس والاتزان والتواضع والابتعاد عن الغرور مع حرية الرأي وتجنب الرياء ، كما عرف بالقدرة على تحكيم عقله في استخراج ما يحقق صلاح المجتمع ، دون تعارض مع أصول الإسلام .

وكان لاتصاله بالحكام والامراء نفع كبير فقد ألمّ بالادواء ووضع لها علاجها في كتبه من غير أن يتعرض للوقائع نفسها فقد عاش في فترة كانت الخلافة لا تملك شيئاً إزاء السلطة والامور بيد القواد من الترك والديلم .

ويمكن القول بأن « الماوردي » هو واضع أصول الفكر السياسي أو القانون الدستوري الاسلامي ، هذا العلم الذي توسع فيه خلفاؤه ، وفيه نجد ريح ابن خلدون ومقدمته .

وقد عاش الماوردي ٨٦ عاماً وتوفي ٤٥٠ هـ . ١٠٥٨ م.

ابن حزم

علي بن احمد)

٣٨٤ – ٤٥٦ هـ

(عملاق الأندلس)

« أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب »
« لا يصح لأحد أن يقلد أحداً ولو كان صحابياً »
« احرص على أن توصف بسلامة الجانب وتحفظ من أن توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك » .

ابن حزم

- ١ -

ليس من اليسير فهم [ابن حزم] منفصلاً عن عصره ، فهو في كلمة : « استجابة لتحديات عصره » وعلم من أعلام البعث والتصحيح للأخطاء والانحراف عن مفهوم الاسلام ، وداعية التماس جوهر العقيدة ، وروحها ، مرتفعاً بها الى منابعها الأولى ومصادرها الأصيلة في مواجهة الأخطار التي تعرضت لها في عصره وبيئته .

وابن حزم واحد من هؤلاء الأقطاب الذين نطلق عليهم « مصححو المفاهيم » هذا الرعيل الذي جاء متتابعاً على العصور ، فترة بعد فترة ، ليواجه الأخطار ويرد على الذين بدلوا وغيروا . هذا النوع من النوابغ الذين لم يكونوا فقهاء ، أو مفسرين ، أو علماء في لون واحد ، أو متخصصين في جانب واحد ، بل كانوا أئمة أحاطوا بجوانب الاسلام عقائد وفقهاً وأخلاقاً وكلاماً

وفلسفة وبلاغة ولغة وأوغلوا في فهم كل هذه الجوانب واكتملت شخصيتهم واستحضرت ، وأعطوا لساناً بليغاً ، وعارضة قوية في معــارضة كل الذين انحرفوا بمفهــوم الاسلام أو جردوه من تـكامله ، أو فرضوا عليه مفهوماً وارداً من فلسفات اليونان أو الفرس أو غيرهما .

وابن حزم ابن هذا التحدي الخطير الذي واجهه ، هذا الذي دفعه الى تصدر الحلقة ومصارعة القوى الضالة والمضلة .

ان دعوة ابن حزم تتلخص في كلمة « التماس مفهوم القرآن » والوقوف عند النص ، وهذه دعوة لم يهب قلمه لها سنوات طويلة إلا بازاء الانحراف الخطير الذي وصل فيــه المفهوم الاسلامي في عصره ، بعد أن استفاض القول في القرآن من تحميــل آياته ما لا تطيق ، ومن تأويل للآيات ، في محاولة باطلة لتبرير الواقع الذي انحدر اليه المجتمع الاسلامي ، بينما كان يرى هو والحق أن يتحرر المجتمع من باطـــله ويلتمس مفهوم الاسلام ، لا أن يبرر الواقع بتحريف القيم الأساسية للاسلام .

لقد تعرض المجتمع الاسلامي في عصره لفساد خطــير بعد سقوط الدولة الأموية وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس عامة وفي قرطبة خاصة ، واتخذ الفقهاء من القياس وما اليـــه من الاستحسان وسيلة لتـبرير الواقع ومحاولة اقرار انحراف المجتمع ، وكان موقفه هذا آية الآيات في فهم الاسلام ، وفي الدفاع عن

الاسلام ، وفق قوانينه الأساسية التي تفسح له الطريق حين يضيق الى تحرير الحياة الاجتماعية من تحكم الجمود ، دفعا بها الى النهضة والتقدم ، وهذه القوانين نفسها هي التي تدفعه الى حماية أسسه وقيمه إذا ما تعرضت للخطر ، عندما يراد أن يطبق عن طريق التأويل والتبرير على واقع منحرف على ما حرم الاسلام فعلاً .

وتلك مهمة المصلحين ومصححي المفاهيم .

وفي موقفنا هنا كان الفساد قد دب في المجتمع الأندلسي وبلغ غاية الغايات فلم يكن على قادة الفكر الاسلامي أن يبرروه ، ولكن كان عليهم أن يحفظوا مقومات الاسلام من أن تنهار .

لقد بلغ المجتمع الأندلسي مرحلة الفساد والانحلال، ووصف ابن حزم هذه المرحلة وصفاً دقيقاً واستكنه جوانب الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها الأندلس ، نتيجة سوء سياسة أمراء الطوائف وقال : « ان الناس لم يعودوا يعرفون الحلال والحرام في الكسب » ونعى على علماء الدين موقفهم فقال انهم أصبحوا عوناً على الفساد والطغيان وأنهم صاروا يأكلون على جميع الموائد ويتنافسون في مضمار الشر » .

لقد بلغ أمر مجتمع ملوك الطوائف الذي عاشه ابن حزم غاية الاضطراب استهتاراً وضعفاً وقلة اكتراث بالدين والخلق ،

وشغل الأمراء بجمع الأموال وبناء القصور وفرض الجزيـــة والمكوس على رقاب المسلمـــين ، وضعفوا عن مقاومة خصوم الاسلام الطاغين على القرآن .

في هذا المجتمع المضطرب تورط الفقهاء في التأويل والتحوير والاستنباط ، وكان تورطهم نتيجة نفـــاق ومجاراة للحكام ، فأخضعوا النصوص لهوى الأمراء ، ومن هنـــا كانت صيحة ابن حزم إلى التمسك بظاهر النصوص حيث أنه الفصل الدقيق الذي لا يمكن معه المساومة ولا يجوز فيـه التغيير أو التلاعب .

ومن هنا كان إصرار ابن حزم على دعوته والتمامه اليهـــا البراهين والأدلة وتوسيع نطاقها على الفقه والعقائد جميعاً ، هادفاً إلى القضاء على محنة تأويل النصوص وتبرير المجتمع ، ومن هنـا كانت أصالته وصموده واصراره ومـــا عرف عنه من عنف في الجدل لوجه الحق خالصاً وهو جدل مهما بلغ من العنف فقد كان قائماً على النزاهة العلمية والارادة الصادقة .

لقد أراد ابن حزم أن يحرر الاسلام من أن يكون مطيـــة لمجتمع منحل ، او لهوى الفقهاء ، فحمل مفاهيم « ظاهر النص » سلاحاً قوياً عارض بـه الخطر وهاجم به الانحراف ، وقاوم به الفساد .

وقد كان لابن حزم من براعته العقليـة وعمق فهمه للاسلام

تلك القدرة القادرة على التحرر من جمود تقليد المذاهب المعروف، وتحرره من الخضوع لمفاهيم النصوص التي كانت قد انحرفت عن جادة الحق انحرافاً كبيراً ، فقد نقد المذاهب الفقهية المعروفة وهاجم اعتمادها على القياس .

- ٢ -

لقد كان أبرز معطيات فكر ابن حزم « نظرية المعرفة الاسلامية » التي سبق بها الفكر الغربي بسبعة قرون ، وهو الذي سبق علماء المسلمين إلى إقرار المفهوم القرآني في قيام المعرفة في الاسلام على أساس العقل والقلب معاً ، محرراً النظرة الاسلامية من مفاهيم الفلسفات اليونانية والفلسفات الهندية والفارسية التي تقصر مفهوم المعرفة على العقل وحده أو القلب وحده . فتنحرف وتضل .

يقول [١] : المعرفة تكون (١) بشهادة الحواس (٢) بأول العقل (أي بالضرورة) وبالعقل من غير استعمال الحواس (٣) ببرهان راجع من قرب أو من بعد إلى شهادة الحواس » .

« إن للانسان ست حواس ، والنفس تدرك المحسوسات

---

(١) هذا التلخيص من بحث للدكتور عمر فروخ ــ مجلة المجمع العلمي العربي .

(المادية) بالحواس الخمس كعلمها أن الرائحة الطيبة مقبولة من طبعها ، وأن الرائحة الرديئة منفرة لطبعها ، ولعلمها أن الأحمر مخالف للأخضر ، وكالفرق بين الخشن والأملس ، والحواس الخمس لا تدرك أحوال المحسوسات إلا بالمقابلة أو التفاضل ، أو بأن يعظم الفرق بسرعة ، أي أن يجتمع منه جملة يمكن أن تدركها الحواس ، فالانسان لا يدرك تبدل الظل على الأرض إلا بعد أن ينتقل ذلك الظل انتقالاً يستطيع البصر أن يقدره ، وكذلك لا ترى الانسان يدرك ببصره نمو الشجرة إلا بعد أن تكون قد نمت قدراً تسهل ملاحظته ، ومثل ذلك الشبع والري وكثير من أعراض العالم .

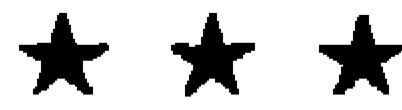
أما الحاسة السادسة فهي علم النفس بالبديهيات يعني أن هناك أموراً يدركها الانسان ذو العقل بداهة من غير أن يعرف دليلاً عليها ، فمن ذلك علمها (أي النفس) بأن الجزء أقل من الكل ، فان الصبي الصغير في أول تمييزه إذا أعطيته تمرتين وبكى ثم زدته ثالثة سر .. وهكذا علم منه بأن الكل أكثر من الجزء » .

ولقد بلغ منهجه في « المعرفة الاسلامية » مبلغاً عالياً من الأصالة ، ومنحه تلك الأصالة الفكرية والشجاعة النفسية التي واجه بها أخطاء عصره ومجتمعه ، فقاوم الخرافات والانحرافات في مختلف جوانب الفكر الاسلامي .

ورفض الاسرائيليات التي تقول بأن الأنهار تنبع من الجنة

(النيل ودجلة والفرات) وقال ان كل من له أدنى معرفة بالهيئة يدري أن مخرج النيل من عين الجنوب ، من خارج المعمور ، ومصبه قبالة الاسكندرية وأن مخرج دجلة والفرات من الشمال .

وأنكر ابن حزم الخوارق على أيدي أحد من الناس وقال : ان الناس جميعاً سواء لا فضل في الخلق أو التكوين لأحد فلا يقدس صالحاً ولا يعتقد قوة خارقة لصالح أو غير صالح. وأثبت تكوير الارض بالبرهان العقلي وقال : لو لم تكن الارض كروية لكان من يسكن في أقصى الشرق يصلي الظهر في أول النهار ضرورة او صلاة الصبح بيسير .

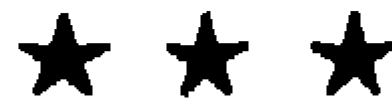


ودعا ابن حزم إلى دراسة الهندسة والمنطق والطب والفلك وقال إنها لا تخالف الشريعة معارضاً آراء الفقهاء في عصره ، وقال : إن بعض هذه العلوم يسند الشريعة ويؤيدها وينفي مزاعم اليهود في أنهم ملكوا من نهر مصر إلى نهر الفرات وقال: إن بني إسرائيل ما ملكوا قط من نهر مصر ولا على نحو عشرة أيام منه شبراً فما فوقه وما ملكوا قط من الفرات ولا عشرة أيام منه .

ورد على الدهرية والقائلين بقدم العالم ، ودحض الفكرة

المأخوذة من اليونان والقائلة بأن الافلاك والنجوم تعقل وانها ترى وتسمع وقال : إن برهان صحة الحكم على أن الفلك والنجوم لا تعقل أصلاً هو أن حركتها أبداً على رتبة واحدة لا تتبدل عنها وهذه صفة الجماد الذي لا اختيار له .

وليس للنجوم تأثير في أعمالنا ولا لها عقل تدبرنا به ، إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعياً كتدبير الماء والهواء ونحو أثرها في المد والجزر ، وكتأثير الشمس على عكس الحر ، والنجوم لا تدل على الحوادث المقبلة .

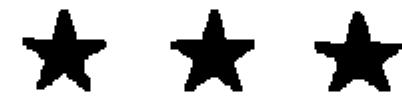


٢ – ويتصل بنظريته في المعرفة ، مفهومه للعقل ، فهو يكرم العقل ولكنه لا يسلم له تسليماً مطلقاً على النحو الذي يقول به غير المسلمين . يضعه في مكانه الحق ، يقول : من أبطل العقل فقد أبطل التوحيد ، إذ لولا العقل لم نعرف الله عز وجل ، وحقيقة العقل عنده « إنما هو تمييز الاشياء المدركة بالحواس والفهم ، ومعرفة صفات هذه الأشياء على ما هي عليه والبرهنة على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصحة النبوة ووجوب طاعة الرسل » .

يقول « أما من ادعى أن العقل يحلل أو يحرم ، أو أن العقل يوجد عللاً لكون ما أظهر الله الخالق تعالى في هذا العالم من جميع أفاعيله الموجودة منها من الشرائع وغير الشرائع

فهو بمنزلة من أبطل موجب العقل جملة ، وهما طرفان أحدهما أفرط فخرج عن حكم العقل ، والثاني قصر فخرج عن حكم العقل ومن ادعى في العقل ما ليس فيه كمن أخرج ما فيه ولا فرق ».

ويرفض ابن حزم أن يحكم العقل على الله نفسه وهو خالق العقل فليس في مقدور العقل أن يستدرك على خالقه ، والعقل لا يحكم به على الله الذي خلق العقل ورتبه على ما هو به (١) .



٣ — ويرى ابن حزم أن الغرض من الفلسفة والشريعة « يجب أن يكون اصلاح النفس حتى تستعمل النفس الفضائل وتكون في دائرة السيرة الحسنة المؤدية إلى سلامتها في المعاد وحسن السياسة للمنزل والرعية » .

٤ — وهو في منهجه العلمي غاية في الانصاف من النفس وتقبل الحق أينما وجده ، يقول : « ان طالب الحق لا يصح أن يعميه التعصب لقوله عن التماسه حيث يكون ، وهو في اخلاصه للحق لا يبغي به الغلب ولكن يبغي به نصر الحق المجرد ، وأن يكون مستعداً لترك قوله إلى قول غيره ان رأى عند غيره الحق السائغ الذي لا يشوبه باطل و كذلك يقول فما يصح عندنا حتى

---

(١) عن دراسة للدكتور زكريا ابراهيم (ابن حزم الأندلسي) .

الآن ، فنقول مجدين مقرين ان وجدنا أهدى منه اتبعناه وتركنا ما نحن فيه » .

ولا يقف ابن حزم عند هذا الحد بل يرى أن العالم والمفكر لا بد أن يضيف جديداً وأن يكون له ذاتيته الخاصة يقول : « ما مذهبي ان أمتطي مطية سواي ، ولا أتحلى بحلى مستعار ، التقليد حرام ولا يحل لأحد أن يأخذبقول أحد من غير برهان» .

ويقول انه لا يجوز لمن يملكون أدوات الاجتهاد والعقل أن يقلدوا إماماً في كل ما يقول من غير ترجيح بدليل على دليل .

- ٣ -

إن مفهوم ابن حزم المتكامل يعتمد أساساً على مدلول نص القرآن والحديث . دون اعتماد على القيـــاس أو التأويل ، فهو لا يحمّل الآيات القرآنية فوق ما تحتمل ، ولا يأخذ الالفاظ بغير ما تدل عليـــه من المعنى العربي الصريح ، وعنده أن المرجع الاصيل في العقيدة الاسلامية هي الدلالة اللغوية ويرى أن فهم الكلام على ظاهره الذي وضع له في اللغة فرض لايجوز تعديه إلا بنص أو إجماع ومن فعل غير ذلك فقد أفسد الحقائق كلها .

يقول في كتاب (المفصل) : ان دين الله ظاهر لا باطن له ، وجهر لا سر تحته ، واعلموا أن رسول الله لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ، ولا اطلع أخص الناس به على شيء كتمه عـن الاحمر والاسود ورعـــاة الغنم ولا كان عنده سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه ولو كتمهم شيئاً لما بلغ كما أمر « وكل من ادعى للديانة سراً وباطناً فهي دعاوى ومخاريق » .

وهو يقرر أن الله قد خاطبنا على قدر عقولنـــا وكلام الله

لا يحتمل تأويلا ولا تعليلا ولذلك فلا تفرقـة بين علم ظاهر وعلم باطن ، والصلة وثيقة بين الظاهر والباطن ، فبينما يفرق بين عالم الشهادة الذي تصدق عليه أحكام العقل وعالم الغيب الذي ليس للعقل عليه سلطان .



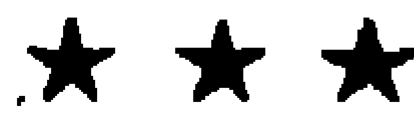
وعلى ضوء هذا المفهـــوم أو المذهب الصريح الواضح الذي استمده من تحديات عصره وبيئته واجـــه كل الفرق كالمعتزلة والاشعرية والشيعة والصوفية ، كما واجه حملات اليهود والنصارى على الإسلام .

ووقف عند جوهر الإسلام وأصوله في هذه المواجهة ، وكان في جدله وسجاله منصفاً وان كان عنيفاً ، كانت نزاهته واضحة في عرض آراء مخالفيه عرضاً أميناً وفي النظر في النصوص نظراً محققاً ، وفي رغبته في الوصول إلى الحق ، لا يبالي أن ينتصر ، بقدر ما يبالي أن يلتمس الصدق ، ولا يمنعـه ذلك إذا وجد مع المراجعة أن صاحبه على الحق أن يعود إليه ويعترف به ، وهو يردد دائماً قوله أنه لا يدعي العصمة من الخطأ .

وهو يؤمن بضرورة مجادلة أهل الباطل وفي منهج القرآن « وجادلهم بالتي هي أحسن » وهو يفرق بين الجـــدل الممدوح والجدل المذموم ، ويقول : إن الجدل الممدوح إنمـــا هو الذي أوصانا به الله « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا

الذين ظلموا منهم » أي بالترفق والانصاف وترك التعسف والبذاء والاستطالة وعنده أن الجدل المذموم هو (١) الجدل بغير علم (٢) ومن جادل ناظراً للباطل ، والجدل المحرم هو الذي ينصر الباطل ويبطل الحق بغير علم » .

وعنده أن الله « قد علمنا الحجة على الدهرية (الطبيعيين) والثنوية (القائلين بالهين) وجميع الملل وأمر بالجدال على لسان رسوله : (وجاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) وقد علمنا رسول الله وضع السؤال في موضعه ، وكيفية المحاجة وما أنكر أحد من الصحابة الجدال في طلب الحق » .



هاجم ابن حزم شك السوفسطائيين الذين يبطلون الحقائق ، وإلحاد الفلاسفة الذين ينكرون وجود إله خالق ويقولون إن العالم قديم وليس له مدبر وهاجم الذين يقولون ان العالم لم يزل وله مع ذلك فاعل وهاجم ثنائية الإله التي يقول بها الزرادشتيون والمانويون وتعدد الآلهة الذي يقول به النصارى المؤمنون بالثالوث ، وهاجم توحيد البراهمة والعقليين الذين يؤمنون بوجود إله واحد ولكنهم ينكرون النبوة والملائكة . وهاجم فرق اليهود ومذهب الصابئة ومن أقر بنبوة زرادشت من المجوس .

وقد مضى ابن حزم في مواجهة هذه الفرق وفق منهج واضح ومفهوم صريح عبر عنه حين قال : « طالب الحق لا يصح ان

يعميه التعصب لقوله عن التماسه حيث يكون ، وهو في إخلاصه للحق لا يبغي به الغلب ولكن يبغي به نصر الحق المجرد ، وهو مستعد لترك قوله هو إلى قول غيره ، ان رأى عند غيره الحق السائغ الذي لا يشوبه باطل. ويقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن، فنقول مجدين مقرين إن وجدنا أهدى منه اتبعناه وتركنا مـا نحن عليه » .

وتلك غاية الانصاف من النفس ، والرفعـة عن التعصب للرأي الباطل.

- ٤ -

تعطي آراء ابن حزم في مجموعها مفهوماً متكاملا عميقاً للاسلام ملتمساً فيه منابعه الاصيلة ، بحيث أصبح أساساً لحركات الاجتهاد والتجديد والتعب المتوالية التي استهدفت تطهير الإسلام مما علق به من الاسرائيليات والاساطير على أساس التماس معينه الصافي المتدفق ، ولقد طوف ابن حزم بمختلف فروع الفكر الاسلامي وترك فيها بصماته واجتهاداته ، فقد ترك ابو محمد آراء ما تزال جديدة غاية الجدة ، حية غاية الحياة ، تكشف عن عظمة الإسلام وارتباطه بالحياة والمجتمع والاقتصاد والتربية ، فليس الاسلام دين عبادات فقط بل هو دين ومجتمع وحضارة ، قادر على الحياة والحركة ، متصل بالتطور تمتد منه جذور العدل الاجتماعي والشورى والاخوة والمساواة ، وهو متصل بالعصر لا يتخلف ، فيه كفاءة الالتقاء بالأزمان والعصور والبيئات .

وفي أكثر من مجال يتحدث ابن حزم عن مفهوم الاسلام ويناقش أخطر القضايا : التعليم اجباري ، والارض لمن يزرعها ،

والمرأة والرجل يتساويان في العلم والثقافـــة ، ولكل مواطن حلتان ومسكن .



(١) « ان كل مسلم [1] عاقل بالغ من ذكر أو أنثى ، حر أو عبد ، يلزمه الطهارة والصلاة ، والصيـام فرضاً بلا خلاف من أحد المسلمين ، وتلزم الطهارة والصلاة المرضى والأصحاء ففرض على كل من ذكرنا أن يعرف فرائض صلاته وصيامـه ، وكذلك يلزم كل من ذكرنا ان يعرف ما يحل له ويحرم عليه من المآكل والمشارب والملابس والفروج والدماء والاقوال والاعمال ، ويجبر الامام ازواج النسـاء وسادات الأرقاء على تعليمهم ، اما بأنفسهم ، واما بالاباحة لهم لقاء من يعلمهم ، وفرض على الامـام ان يأخذ الناس بذلك ، وان يرتب أقواماً لتعليم الجهال » .

(٢) وجائز ان تلي المرأة الحكم وهو قول (ابي حنيفـة) وقد روي عن (عمر) انه ولى (الشفاء) امرأة من قومـــه — السوق ، فان قيل قـــال رسول الله : « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » قلنا انمـا قال ذلك رسول الله في الأمر العام الذي هو الخلافة ، برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام « المرأة راعية في مال زوجها وهي مسؤولة عن رعيتهـــا ، وقد أجاز

---

(١) استعنا في إيراد هذه النصوص بدراسة الاستاذ فتحي عثمان .

في الملكية ان تكون وصية ووكيلة ولم يأت نص في منعها من ان تلي بعض الامور .

(٣) « فان قالوا : فأوجبوا الجهاد فرضاً على النساء ، قيل لهم : لولا قول رسول الله لعائشة ، اذ استأذنته في الجهاد — « لكن أفضل الجهاد حج مبرور » لكان الجهاد عليهن فرضاً ، لكن بهذا الحديث علمنا ان الجهاد على النساء ، ندب لا فرض ، لأنه عليه السلام لم ينهها عن ذلك ، ولكن اخبرها ان الحج لهن أفضل منه . فان قالوا فأوجبوا عليهن النفار للتفقه في الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قلنا : نعم ، هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجال ، وفرض على كل امرأة النفقة في كل ما يخصها ، كما ان ذلك فرض على الرجال ، ولو تفقهت امرأة في علوم الديانة وأحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن والاخلاف للزمنا قبول نذارتها وقد كان ذلك في ذلك .

(٤) « وفرض على الاغنياء من أهل كل المدائن ان يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك ، ان لم تقم الزكوات بهم ، ولا في سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة .

(٥) ولا يجوز إجارة الارض أصلا ، لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ولا للبناء فيها ولا لشيء من الاشياء أصلا ، لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة ، ولا بغير مدة مسماة لا بدنانير ودراهم ،

ولا بشيء أصلا فمتى وقع فسخ أبداً ، ولا يجـوز في الارض إلا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها ، او المغارسة كذلك فقط ، فان كان فيها بنـــاء قل أو كثر ، جاز استئجار ذلك البناء وتكون الارض تبعاً لذلك البناء غير داخلة في الاجارة أصلا ».

ولا شك أن هذه المفاهيم تكشف عن عظمة الاسلام ومفهومه الواقعي للحياة وتكشف عن عقلية ابن حزم النافذة العميقة في فهم الاسلام وابراز جوهره ، لقد حاول ان يعطي الاسلام في عصره وبيئته - كما أعطى العصور المتوالية - مفهوماً تقدميـــاً حياً ، مؤمناً بضرورة اعتماد نهوض الامـــم على مصادر الاسلام الاصيلة ومفاهيمه الصحيحـة ، بالتخلص من قداسة الموروث البالي ، ودحض الشبهات ، والكشف عن الانحرافات وشجبها، وتصحيح المفاهيم والتماس المنابع الاساسية للاسلام .

- ٥ -

مصادر ثلاثة تكون أبعاد « شخصية » ابن حزم :

- مطالعاته الواسعة العميقة .
- رحلاته ومهاجره وما تبعها من تجارب وأحداث .
- لقاؤه لعشرات العلماء ومحادثاتـــه معهم ومصاولاته ومعاركه .

فاذا اتيح هذا الرجل الموصوف بالذكاءوالاستيعاب وحضور البديهة، وعمق النظرة أعطي القدرة على معرفة البواعث وتحليل النصوص والغموض في أعماق النفوس .

فقد نشأ في فترة قلق واضطراب بعد وفاة المنصور بن ابي عامر ، في بيت سؤدد وامارة بعـــد ان انتهى العصر الذهبي للدولة . وعمل وزيراً للمستظهر ولكن امره لم يدم اكثر من شهرين في المرتين عام ٤١٤ ، ٤١٨ ثم انتهت الخلافة الاموية ٤٢٢ وبدأ عهد امراء الطوائف الذي استمر ثمانين عاماً ، وقد عاش

ابن حزم فترةالقلق القوية هذه،وعاين صنوف الظلم والاضطراب السياسية ، وكان أهم ما أهمه وأزعجه تفرق كلمة المسلمين وانقسامهم ، وتوسع علماء الدين في الفتوى تبريراً للواقع المر ، وسرعان ما اعتزل السياسة وانتضى قلمه في رحلة الاصلاح وأولى اهتمامه مصير المجتمع الاسلامي ، فعكف على العلم لوجه العلم وحده « طلبت العلم فلم ابرح به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة » . ولم تكن حياته صفواً كلها بل امتحن بالغربة والمقاومة والخصومة ، فقد أخرج من قرطبة وظل يتنقل من مكان الى مكان لا يقر ، فذهب الى المرية فالحصن ثم عاد الى قرطبة فشاطبة ، فالى القيروان ، وفي كل مكان كان يلتقي بالعلماء فيناقشهم ويصاولهم وبالمكتبات فيلم بها ، ويقرأ ويستوعب حتى آن له ان يعكف في أرض له في بادية (لبة) .

وفي أعوامه الأخيرة ألف أعظم آثاره [المحلى] في أحدعشر مجلداً ، بالاضافة الى مؤلفاته العديدة التي وصفت بأنها بلغت في تقدير صاعد بن احمد وفي رواية الفضل بن حزم أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة . ومهما وصف هذا القول بالمبالغة ، فان ما ترك ابن حزم من آثار لا تزال في أيدي الباحثين يقطع بأنه كان اماماً مجتهداً حجة قادراً على الاحاطة بالغاغاية الفهم ووضوح الرؤية للاسلام في مجال تحديات العصر . وقد اجمع المؤرخون على انه اكثر علماء الاندلس تأليفاً وتصنيفاً، فقد كتب في كل فروع الثقافة وفي كل باب من ابواب المعرفة.

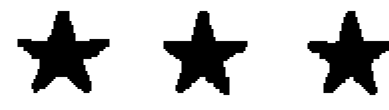
ولقد بدا « ابن حزم » مطالع حياته الفكرية على النحو الذي بدأ به غيره ، مال بالنظر الى فقه الشافعي وناضل عن مذهبه حق وسم به ، ثم عدل عنه الى مفهومه الصريح في الاعتماد على ظاهر اللفظ معتمداً على ما سبقه اليه [داود بن علي] ثم استقل برأيه بعد أن بلغ مبلغه من القدرة ، حفظاً للحديث ، ودراية بالفقه ، واستنباطا للاحكام ، قال :

[انا اتبع الحق واجتهد ولا أتقيد بمذهب] .

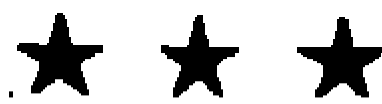
وقد اجمع مؤرخوه وخصومه جميعاً على جلال قدره ، وتعدد جوانبه ، فهو الفقيه الشاعر الاديب المؤرخ ، وهو صاحب الذكاء المفرط والذهن السيال ، قال عنه (الغزالي) : ان مؤلفه عن اسماء الله يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه وقال الشيخ (عز ابن عبد السلام) : ما رأيت في كتب الاسلام من العلم مثل المحلى لابن حزم وقال (الذهبي) صاحب سير النبلاء : ان اعظم الكتب في عصرنا أربعة احدها لابن حزم .

وتعد دراسته المقارنة للاديان من الدراسات الاسلامية المتقدمة السابقة للابحاث الاوربية وقد سلك منهج البحث العلمي وبعد عن الهوى والعاطفة واعتمد على النصوص ، حين راجع التوراة والانجيل في تمحيص دقيق ، ولم تعرف اوروبا المقارنة بين الاديان إلا في منتصف القرن التاسع عشر وقد أشاد الباحثون الغربيون باصالته وانصافه .

وفي مناقشاته للاديان رد على كثير من الانحرافات والاتهامات والاخطاء وكان بين ابحاثه رده على (ابن النغريله اليهودي) الذي الف كتاباً ادعى فيه تناقض كلام الله عز وجل في القرآن واستطاع ابن حزم ان يدحض آراءه في حسم وقوة .



وقد عرف ابن حزم بالأسلوب الرائق البليغ مع حسن البيان حتى وصف بأنه « جاحظ الاندلس » غير منازع ويبدو في كتاباته أثر عقليته المرتبة المنطقية ، حيث يحسن ايراد المقدمات واستخلاص النتائج ، ويتحرر من اللغو والاستطراد والحشو ، وقد عرف بدقته في تحديد معاني الالفاظ قبل ان يدخل في دراسة موضوعه وفي كتابه [الاحكام في اصول الاحكام] أفرد باباً كاملاً للالفاظ الدائرة بين أهل النظر وقدم تعريفاً لكل كلمة من كلمات الاعتقاد والعلم والتقليد والحق والباطل . بل يذهب مؤرخوه إلى انه لا يوجد في مؤلفاته الكثيرة كتاب واحد لم يبدأه بتحديد موضوع بحثه وتعيين خطته في الدراسة والنص على الهدف من تأليفه . حتى في كتابه «طوق الحمامة » عن الحب ، كانت كتابته علمية ، وله براعته الفائقة في تحليل النصوص وجودة الاستنباط ودقة الفهم لها .



وأبرز مقومات فكره : [تحريم التقليد] مؤمناً بأنه لا يحل لأحد ان يأخذ بقول أحد دون برهان يقول : « لا يصح لأحد ان يقلد احداً ولو كان صحابياً » .

وكان ابن حزم لا يقبل ترديد أراء غيره أو الاقتصار فيا يقدم على آراء السابقين ، بل كان دوماً يحن بالجديد ، ويستخدم ذهنه الذكي في توليد الآراء وتفريع المسائل ، وكان مؤمناً بالمنهج الاسلامي العلمي في البحث .

يقول :

« لا بد لطالب الحق من ان يسمع حجة كل قائل ، فاذا ظهر البرهان لزمه الانقياد والرجوع اليه ، والبرهان لا يجوز أن يعارضه برهان آخر ، فالحق لا يكون شيئين مختلفين ، ولا يمكن ذلك أصلاً ، والحق مبين في الملل والديانات بموجب العقل والبراهين الراجعة إلى أول الحس والضرورة » .

وهو في دراسته لآراء الفرق المختلفة ، بعد دراسته للفقه والمنطق والجدل والكلام والتاريخ وعلم النفس ، لا يقف عند تطور الآراء ، بل كان قادراً على دراسة خلفيات هذه المذاهب ومعرفة البواعث والعلل النفسية والاجتماعية .

وهو يصور منهجه في مراجعة الآراء فيقول :

إذا ورد عليك خطاب بلسان ، او هجمت على كلام في كتاب ،فاياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة قبل أن

تتبين بطلانه ببرهان قاطع وأيضاً فلا تقبل عليه اقبال المصدق به المستحسن إياه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع. ولكن أقبل عليه اقبال سالم العقل عن النزاع عنه والنزوع اليـه ، ولكن اقبال من يريد حظ نفسه في فهم ما سمع ورأى » .

ويقول في شأن الحكم على الأشياء :

« ينبغي للعـاقل الا يحكم بما يبدو له من استرحام الباكي ، والمتظلم وتشكيه ، وشدة تلويه وتقلبه ، فقد وقفت من بعض من يفعل هذا على يقين أنه الظالم المعتـدي ، المفرط المظلم ، ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكي مظهراً لقلة المبالاة فيسبق الى نظر من لا يحقق النظر انه ظالم .

- ٦ -

تعطي شخصية (ابن حزم) صورة نفس كريمـــة عفيفة ، تؤمن بالمروءة والاستعلاء على الصغائر ، وتؤمن بالوفاء والمودة ، وهو يجمع دوماً بين الخير والجمال ولا يفصـل بينهما . والفضيلة عنده خير وجمال. وهو لا يكتم عيوب نفسه . بل يكشف عنها في انصاف عجيب من النفس [اني أعـلم من عيوب نفسي أكثر مما أعلم من عيوب الناس ونقصهم] . وهو جامع دوماً بـــين الاحساس بالكرامة وعزة النفس،وبين الوفاء لمن عرف وأحب.

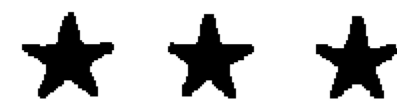
وقد كان آية عزة نفسه انـــه لم يكن يغشى ابواب الأمراء والخلفاء ، ولا يتطلع إلى مثل هذه المصادر وذلك كان شأن مختلف هؤلاء المصلحين من أمثال : مالـك وأبي حنيفة وهو من دعامة الطموح العقلي مؤمناً بأن على المفكر المسلم ان يأخذ بأعلى العلوم ، وان يكون كريماً بالعلم مغدقاً به :

« من شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادر عليه كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيهـــا البر ، وكغارس

الشعراء (شجرة من الحمص ليس لها ورق) حيث يزكو النخل والزيتون والباخل بالعلم ألوم من الباخل بالمال فالبخل بالعلم بخل بما لا يفنى من النفقة ولا يقل مع البذل ، وهو يكره تطلعات الغرور والاستعلاء وحب الشهرة ويدعو العلماء الى شجب مثل هذه التطلعات .

« من عيب حب الذكر أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يذكر بها وكاد يكون شركاً لانه يعمل لغير الله تعالى وهو يطمس الفضائل لان صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير ، لكن ليذكر به » وأهل الفضل عنده « يمسكون عن المدح والذم في المشاهد ، ويثنون بالخير في المغيب » ..

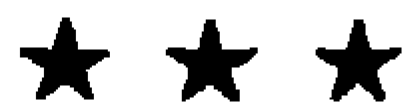
وهو عميق التجربة ، يكشف بنصائحه عن طبيعة قادرة على مواجهة الحياة في قوة ، فيقول « احرص على ان توصف بسلامة الجانب وتحفظ من ان توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك » ويقول « ثق بالمتدين وان كان على غير دينك ، ولا تثق بالمستخف وان اظهر انه على دينك ومن استخف بحرمات الله فلا تأمنه على شيء تشفق عليه » .



وعنده ان الغاية من السلوك الانساني هو [طرد الهم] سواء كان هذا الهم هو الفقر أو الخمول أو المرض أو الجوع ، وحيث

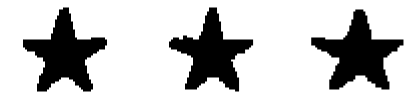
أن العمل (أي الحركة) هي السبيل الى طرد الهم كيفما كان هذا الهم ، فعلى الانسان ان لا يعمل إلا من أجل تحقيق هدف سام لا يخضع لتقلبات الأيام والأحوال ، ويقول : « لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل وباذل نفسه في عرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى » . وعنده ان « ليس بين الفضائل والرذائل إلا نفار النفس وانسها فقط ، فسبيل السعادة الحقيقية أي اطمئنان النفس ، هي الأخلاق الحميدة التي أساسها العمل الصالح . ويدخل في باب العمل لله ، الاشتغال بالعلم ، لأن العلم* طريق الفضائل ، ومن فوائد العلم الكبرى في رأيه انه يكسب الانسان الغبطة بما آن له من وجهه في الأمور الخفية من غيره واكبر قدوة هو « النبي » وعلى الانسان ان يستعمل أخلاقه وسيرته ما أمكنه ، وعلى المرء أن يحتاط ضد الانتكاس الخلقي ، وان يعنى بصحته ، وبأعصابه لانه قد تتغير الاخلاق الحميدة بالمرض والخوف والغضب والهرم ، وعلى الانسان ان يتعود السيطرة على أعصابه » . ويقول :

« وطن نفسك على ما تكره يقل همك ، إذا أتاك مما لم تكن قدرته » .



وعنده انـــه « لا يستنقذ الانسان من الالم ويطرد الهم إلا

بالتوجه إلى الله » . والغاية عنـــده من كل سلوك انساني هــو « طرد الهم » .



وتكشف شمائل ابن حزم عن نفس صافية وعقل واع، وقد كشف عن اعماق طبيعته مرتين :

الاولى في كتابه (طوق الحمامة) وأخرى في كتابه (الاخلاق والسير) على نحو يرسم صورة غاية في السماحة والنبل ، فهو وفي غاية الوفاء لمن عرف ولو لحظة ، باق على الوفاء بالرغم من تبدل الزمان والمكان .

« لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل من يمت إلي بلقية واحدة ، ووهب لي من المحافظة لمـن يتذمم مني ولو بمحادثته ساعة حظا أنا له شاكر وحامد ، ومنه مستمد ومستزيد ، وما من شيء اثقل علي من الغدر ، ولعمري ما سمحت نفسي قط في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقـل ذمام ، وان عظمت جريرته ، وكثرت إلي ذنوبه ، لقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيراً » .

« دعني أخبرك اني جبلت على طبيعتين لا يهنيني معها عيش أبداً، واني لأبرم بحياتي باجتماعها وأود التثبت من نفسي أحياناً لأفقد ما أنا بــه من النكد من أجلها وهما :

وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيـــه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته ولا يتطلع إلى عدم من صحبته ، وعزة نفس لا تقر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه ، واني لأجفى فاحتمل ، واستعمل الاناة الطويلة والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد ، فاذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب ما فيه .

« ما نسيت وداً لي قط وان حنيني إلى كل عهـــد تقدم لي ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء ، وقد استراح من لم تكن هــذه صفته ، وما مللت شيئاً بعد معرفتي به وما رغبت في الاستبدال الى سبب من اسبـــابي مذ كنت ، لا أقول في الألاف والاخوان وحدهم،ولكن في كل ما يستعمل الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم [١] » .

وهو بطبيعته لا يرى من عطاء الله شيئاً يحق له ان يفخر به أو يستعلي بالاشارة اليه بل ان كل ما أعطي الانسان من فضل فهو من عطاء الله .

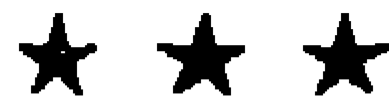
يقول : ان اعجبت بعلمك فاعلم أن لا خصلة لك فيه ، وانه موهبة من الله مجردة وهبك اياها ربك تعالى ، فلا تقابلها بـــا يسخطه ، فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان

---

(١) النص من كتاب (الاخلاق والسير) .

ما علمت وحفظت ، وليعلم ذو العلم انه لو كان بالاكباب وحده لكان غيره فوقه ، فصح أنه موهبة من الله تعالى » وعنده أن هذه النعم من الذكاء والحفظ والبراعة انمـــا « هي عطايا إلهية ليس للانسان أن يفخر بها أو ينسب لنفسه الفضل فيها » .

ويذكر أنه أصيب في وقت من الاوقات بعـــلة اثرت على ذاكرته فلم يكن يستطيع مداومة الحفظ ، ولحسن الحظ تمكن من التغلب على ذلك المرض فاسترجع حافظته واستعاد قدرته على الاستيعاب .



وقد أعطت التجربة الطويلة والأزمات المتعددة ، أعطت « ابن حزم » عبرة بعيدة المدى في فهم الحيـــاة وتعمق النـــاس ، فاستطاع ان يقول من الحكمة مـــا نحن في حاجة أن ننتفع به .

يقول :

● لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل ، في دعاء إلى حق وفي حماية الحريم وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى وفي نصر مظلوم . باذل نفسه في عرض الدنيا كبائع الياقوت بالحصى » .

● « لا مروءة لمن لا دين له ، العاقـــل لا يرى لنفسه ثمنـــاً إلا الجنة » .

● « السعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات » .

● « ان قول رسول الله للذي استوصاه « لا تغضب » وأمره عليه السلام ان يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه جامعان لكل فضيلة لأن في نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها وفي أمره ان يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ردع النفس عن القوة الشهوانية وجمع لازمة العدل الذي هو قائده المنطق الموضوع في النفس الناطقة » .

● « إذا حققت مدة الدنيا لم تجدها إلا (الآن) الذي هو فصل الزمانين فقط ، أما ما مضى وما لم يأت فمعدومان كما لم يكن ،فمن أضل ممن يبيع باقياً خالداً بمدة هي أقل من كر الطرف . »

وهو يطيل النظر في شأن العلم وواجب العلماء ومفهوم العطاء والبذل في العلم :

● « لو لم يكن من فضل العلم إلا ان الجهال يهابونك ويجلونك ، وان العلماء يحبونك ويكرمونك لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه ، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة ، ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء،ويغبط نظراءه من الجهال لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار عنه . ولو

لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنــه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية ومطارح الآمال التي لا تفيد غـــير الهم وكناية الأفكار المؤلمة للنفس لكان ذلك أعظم داع اليه » .

● نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم ، كاطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمى .

● الباخل بالعلم ألأم من الباخل بالمال . لأن الباخل بالمال أشفق في فناء ما بيده والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النفقة ، ولا يفارقه مع البذل .

● أجل العلوم ما قربك من خالقك تعالى ، وما أعانك على الوصول إلى رضاه .

● العلوم الغامضــة كالدواء النقي يصلح الاجساد القويــة ويهلك الاجساد الضعيفة .

● لا آفة على العلوم واهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير اهلها فانهم يجهلون ويظنون انهم يعلمون ويفسدون ويقدرون انهم يصلحون .



ويذكر ابن حزم عيوبه في صراحـــة الرجل القوي الذي لا يخاف أن يوصف بالعجز ، يقول : « كانت في عيوب فلم أزل

بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبيـاء والحكماء في الأخلاق وآداب النفس أعاني مداواتهـا حتى أعان الله على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه تمام العدل ورياضة النفس . فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جمـلة بالكلام والفعل ، وامتنعت عما لا يحـل من الانتصار وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً ، وصبرت على مضض مؤلم كان ربما أمرضني وأعجزني في الرضى ، وكأني سامحت نفسي في ذلك ، ومنها دعابة غالية ، وعجب شديد ، فناظر عقلي نفسي بمـا يعرفه من عيوبهـا حتى ذهب كله ولم يبـق له والحمد لله أثر بـل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع » . « ومنها حركات كانت تولدها غرازة الصبا وضعف الأعضاءفقصرت نفسي على تركها فذهبت ، ومنها محبة في بعد الصيت والغلبة فالذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الامساك فيه عما لا يحل في الديانة .

ومنها إفراط في الانفة ، ومنها عيبان قد سترهما الله تعالى وأعان على مقاومتها وأعان بلطفـه عليها فذهب احدهمـا اليه وكأن السعادة كانت موكلة بي فاذا لاح منـه طالع قصدت طمسه ، وطاولني الثاني منها فكان إذا ثارت مدوده ، (جمع مد) نبضت عروقه فيكاد يظهر ، ثم يسر الله تعالى فكفـه بضرب من لطفه تعالى حتى أخلد .

ومنها حقد مفرط قدرت بعون الله على طيه وستره وغلبته على إظهار جميع نتائجه » . ويقول : لا أُبالي فيما اعتقده حقاً

من مخالفة من خالفته ولو انهم جميع من على ظهر الأرض ، هذه الخصلة عندي من اكبر فضائلي التي لا مثيل لهـــا ولعمري لو لم تكن في لكانت من اعظم متمناي .

وانا اوصي بذلك كل من يبلغه كلامي فلن ينفعه اتباعـه النـــاس في البـاطل والفضول إذا أسخـط ربـه تعـــالى وغبن عقله .

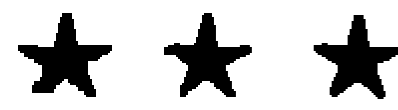
ويقول : من عيب حب الذكر انه يحبط الاعمال إذا أحب عاملها ان يذكر بها » .

ويتصل بهــــذا ما عرف عن ابن حزم من عنف وشدة في معارضة خصومه فقدكانت له تلك الاندفاعة العنيفة في مقارعة الخصوم ، مما دعا خصومه الى التألب عليـــه ، ورمى حياته بالقلق والعزلة ، وكان غاية ما يقوله المدافعون عنه انه انما كان يفعل ذلك استناداً إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء ليبيننه ولا يكتمونه ، ولكن الحجة في هذا لا تقوم إستناداً إلى منهج الاسلام نفسه ، : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن » .

غير أن ابن حزم كشف لنا عن العامل النفسي والبيولوجي لهذه الحدة فقال : « لقد أصابتني علة شديدة ولدت في ربواً في الطحال شديداً ، فولد ذلك علي من الضجر وضيق الحال ، وقلة الصبر أمراً جاشت نفسي فيه ، ان انكرت تبدل خلقي واشتد

عجبي من مفارقتي لطبعي وصح عندي ان الطحال هو موضع الفرح وإذا فسد تولد ضده » .

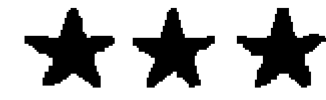
وهو في هذا التحليل يلتقي بمفاهيم العصر في الكشف عن الجوانب الجسدية المكونة للمشاعر والتصرفات .



وفي الجانب الآخر من شخصية ابن حزم نجد : جانب النفس المحبة التي تربط بين العاطفة والعفاف على نحو رائع . فهو رجل كامل الرجولة مؤمن بالله لا يطلق هوى النفس ، ولا يجيب رغبة الحس إلا في حدود الحلال ،مستعلياً على الحرام ،ومتسامياً بالنفس الانسانية إلى طلبة ما أحل الله وقد أحب واحتمل في حبه لوعة عاصفة تأبى على مهاوي الرذيلة وقال وهو الجريء الحر : يعلم الله اني بريء الساحة سليم الاديم صحيح البشرة نقي الحجزة واني أقسم بالله أجل الأقسام اني ما حللت مئزري على حرام قط ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنى منذ عقلت إلى يومي هذا » ، وهو يفرق بين الحب والاشتهاء ، والحب عنده تجانس نفسي يجعل المحب يأنس بحبيبه ويسكن اليه . يقول : « صح عندي ان الحب استحسان روحي وامتزاج نفسي» ، ويقول « إنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق في الصفات الطبيعية وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة .

ويقول « الحسن هو شيء ليس له في اللغة اسم يعبر عنه

ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه ، وهو برد مكسي به الوجه واشراق يستميل القلب نحوه ، فتجتمع الآراء على استحسانه وان لم تكن هناك صفات جميلة » .



وقد حاول ابن حزم أن يرسم منهج وقاية للشخصية الانسانية يحول بينها وبين الاضطراب والانحراف ايماناً منه بأن الغرض الذي يستوي الناس جميعاً في طلبه واستحسانه انما هو « طرد الهم » : وعنده « انهم لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون من ازاحته عن أنفسهم » وفي هذا يقول :

« من أراد خير الآخرة وحكم الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الاخلاق كلها واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله وليستعمل أخلاقه وسيرته ما أمكنه » .

هذه هي القاعدة الأساسية التي يطمح إليها ابن حزم في بناء الشخصية الانسانية عليها : ثم يمضي في الطريق :

« وطن نفسك على ما تكره يقل همك إذا أتاك ما تكره ، ويعظم سرورك إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدرته .

« لا تفكر فيمن يؤذيك فانك إن كنت مقبلا فهو هالك وسعدك يكفيك وان كنت مدبراً فكل أحد يؤذيك .

« الصبر عمن يقدر عليك ولا تقدر عليه مهانة وذل، والرأي لمن خشي ما هو أشد مما يصبر عليه المتاركة والمباعدة .

« والصبر عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك فضيلة وبر وهو الحلم » .

« اجعل الناس كالنار تدفأ بها ولا تخالطها .

« إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها .

« إياك ان تسر غيرك بما تسوء به نفسك فيما لم توجبه عليك شريعة أو فضيلة .

« لا تضر بنفسك في ان تجرب بهـا الآراء الفاسدة لترى فسادها فتهلك .

« لا تحقر شيئاً مما ترجو تثقيل ميزانك يوم البعث أن تعجله الآن ، وان قل فانه يحط عنك كثيراً لو اجتمع .

« اول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر .

«من استخف بحرمات الله فلا تأمنه على شيء مما تشفق عليه .

« حد العدل أن تعطي نفسك الواجب ، وتأخذه ، وحد الجور ان تأخذه ولا تعطيه .

« حد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعاً وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً .

« الفضل أعم والجود أخص ، اذ الحلم فضل وليس جوداً .

« الطمع أصل كل ذل وهم ، والجبن يولد مهانة النفس .

« من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلهـــا ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق .

« اكتم سر كل من وثق بك ولا تفش إلى أحد من اخوانــك ولا من غيرهم من سرك ما يمكنك طيه بوجه من الوجوه . وان تفي لجميع من ائتمنك ، ولا تأمن أحــداً على شيء من أمرك تشفق عليه إلا لضرورة لا بد منها .

« ابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك. ولكل من احتاج اليك وأمكنك نفعه .

« لا تنصح على شرط القبول .

« ولا تشفع على شرط الاجابة .

« ولا تهب على شرط الاثابة ، ولكن على سبيــل استعمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف .

« أقصى غايات الصـــداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وماله لغير علة توجب ذلك وآثرك على من سواك .

« النصيحة مرتان ، فالاولى فرض وديانة ، والثـانية تنبيه وتذكير .

« لا تنقل الى صديقك ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته .

« لا تأس إن ذممت بما ليس فيك بل افرح فان فضلك ينبه الناس عليه .

« ان الاستطالة على من لا يمكنـــه المعارضة سقوط في

الطبع ورذالة في النفس والخلق ، وعجز ومهانة .

« اعلم ان العجب أصل يتفرع منـــه الزهو والتيه والكبر والتعالي .

« طالب المال لعين المال لا لينفقه في الواجبـات والنوافل المحمودة أسقط وارذل من أن يكون له في شيء من الحيوان شبه.

« الاستهانة نوع من انواع الخيانة ، الاستهانة بالمتاع دليل على الاستهانة برب المتاع .

« المقلد راض أن يغبن عقله .

« إياك ومعارضة أهل زمانك مما لا يضرك في دنياك ولا في آخرتك وان قـــل فانك تستفيد بذلـك الأذى والمنـافرة والعداوة [1] .

(١) النصوص من كتاب الاخلاق والسير لابن حزم .

- ٧ -

هو ابو علي محمد بن احمد بن سعيد بن حزم ولد بقرطبة من الاندلس في عام ٣٨٤ هـ ٩٩٤ م ، وكان أبوه من وزراء الدولة الاموية في آخر عهدها بالاندلس ، قضى حياة عاصفة في مجال السياسة ثم اتجه إلى البحث والعلم وآثر الاعتكاف ، أواخر حياته في قرية (بادية لبه) وبها توفي عام ٤٥٦ هـ ١٠٦٤ م ، أولى اهتمامه لكل علوم عصره وكانت له آراء في المنطق والجدل والفقه والكلام والتاريخ وقد نشر آراءه بين طائفة من التلاميذ وعني بالرد على كل الشبهات التي واجهت عصره وخاصة التراث اليوناني والجمود الصوفي ، ومن أبرز مؤلفاته (١) « المحلى » اكبر المدونات الاسلامية وأخطرها . (٢) الفصل في الملل والنحل . (٣) الاحكام في أصول الاحكام . (٤) الاخلاق والسير .

وعرف ببراعة البيان وبلاغة الاسلوب ، حارب التقليد ودعا إلى المحافظة على النص القرآني دون تأويل أو استنباط ، ولم يكن طلبه للعلم بحثاً عن مجد أو سعياً وراء شهرة وانما رغبة

خالصة في المعرفة وقول كلمة الحق، لم يأخذ رأياً إلا بعد تمحيص ولم يرد قولاً إلا وقد اضاف اليه، في صراحة بالغة، وهو صاحب نظرية « المعرفة الاسلامية » ابتدعها قبل ان تعرف اوربا مذهب المعرفة بسبعة قرون ونصف قرن ، وصف بأنــه مجدد القرن الخامس ، واجه خصوم الاسلام في عصره فدحض آراءهم وهزم باطلهم وسبق مؤلفي اوربا بالكتابة في علم الاديان المقـــارن بانصاف قل نظيره ، فكان استجابة طبيعية لعصره وبيئته في مواجهة التحديات التي عارضت الاسلام ، وهو أول من يسمون بمصححي المفاهيم ، عرف بصفاء النفس ورفاهيــة الحس ، ورقة الشعور كان إلى ذلك عفيفاً يجمع بين الوفاء والكرامة واستقلال الفكر يعترف بعيــوبه في شجاعة ويعــالج ادواءه في حكمة ، صريحاً في الحق ، لا يبالي مدح الناس وذمهم . لم يطعن في نزاهة احـــد ولم يكذب خصومه ، يرفض كل انحراف في مفهوم الاسلام سواء إلى إسراف العقليــين أو اسراف الوجدانيــين ، ويأخذ على الشعراء مبالغتهم وعلى المتصوفة انحرافهم وعلى الفقهاء جمودهم ، وعلى خصوم الاسلام تعصبهم ويرفض التقليد .

الغزالي

حجة الاسلام

محمد بن محمد

٤٥٠ — ٥٠٥

« اللهم لا تشغلنا بما تكفلت لنا به ، ولا تجعلنا في رزقك خولا لغيرنا ، ولا تمنعنا خير ما عندك بشر ما عندنا ولا ترنا حيث نهيتنا ، ولا تفقدنا حيث امرتنا، اللهم اعزنا ولا تذلنا ، اعزنا بالطاعة ولا تذلنا بالمعصية ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا اليك ونعوذ بك من الذل إلا لك » .

الغزالي

الغزالي

- ١ -

يقول امام جليل : إذا ذكر ابن سينا والفارابي خطر بالبال فيلسوفان عظيمان ، وإذا ذكر (ابن العربي) خطر بالبال رجل صوفي ، له في التصوف آراء لهــا خطورتها ، واذا ذكر البخاري ومسلم واحمد خطر بالبال رجال لهم اقدارهم في الحفظ والصدق والامانة والدقة .

فــاذا ذكر الغزالي فقــد تشعبت النواحي ، ولم يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد منهم قدرته وقيمته .

خطر بالبال: الغزالي الاصولي الفقيه المتكلم إمام أهل السنة ، الاجتماعــي ، الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب ، الفيلسوف الذي ناهض الفلسفــة ، وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، المربي ، الصوفي ، الزاهد ، وان شئت فقل انه

يخطر بالبال رجل هو : « دائرة معارف عصره »

* * *

ذلك أبلغ وصف للرجل الذي اطلق عليه المسلمون في حياته : « حجة الاسلام » والذي وصف بأنه أحد ثلاثة رجال حملوا الدعوة الاسلامية هم: البخاري والاشعري والغزالي: هذا الرجل الذي عاش حياة قصيرة في حساب الزمن، عريضة في حساب الفكر ، خمسة وخمسون عاماً ألف فيها ما زاد عن مائة من الابحاث والكتب،ولمع اسمه لمعاناً خاطفاً حتى كان يحضر مجلسه ثلاثمائة من أصحاب العمائم يكتبون عنه ، والذي هو في تقدير المؤرخين « مجدد الاسلام في القرن الخامس » وفي نظر الباحثين مؤسس علم النفس الاسلامي ، أو ما أطلق عليه « فقه النفس » وصاحب كتاب (احياء علوم الدين) الذي وصفه الزبيدي بأنه لا يجد له نظيراً في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون . وهو من قال عنه الحافظ العراقي : « ان ذهنه لا يقبل الخطأ »

وما زال كتابه الاحياء يشغل الناس ويثير الخصومات ويلقي مزيداً من التقدير ، فقد اختصر وشرح ونقد وطبع في القاهرة وحدها اكثر من عشرين مرة وترجم الى الانجليزية والفرنسية والاسبانية وما زال مخطوطاً في معظم مكتبات العالم.

مفتاح حياة الغزالي هو المعرفة ، ومركز التحدي فيها هو الدفاع عن الاسلام ازاء الاخطار التي واجهته ، وقد أداه بحثه

عن المعرفة الى التماس كل مذهب ونحلة وفلسفة ، وكانت الحياة الفكرية في العالم الاسلامي اذ ذاك تجيش بتيارات عديدة متضاربة : منها المعتزلة والصوفية والفلاسفة والباطنية والملاحدة وأهل الترف والاباحة وقد استعرت المجادلات والمناظرات والخلافات تؤيدها العصبيات المذهبية والأهواء السياسية ، فلم يلبث الغزالي ان أحس بمدى الخطر الذي يواجه مفاهيم الاسلام الصحيحة ، وجوهره النقي الذي كاد يختفي تحت هذا الركام الهائل من الاضاليل والاهواء التي تتمثل في محاولات الشعوبية والباطنية لطمس هذه المنابع الثرة من القيم المستمدة من جوهر الاسلام. هنالك انتدب الغزالي نفسه لحمل لواء الدفاع عن الاسلام ومجاهدة خصومه وترشيد شبابه وتصحيح مفاهيمه، وتحرير قيمه ، ومن ثم فهو لم يلبث الا قليلاً حتى واجه هذه الأزمة النفسية العاصفة التي تمثلت في الصراع بين واقعه وبين اعماقه . هذه التي صورها في كتابه (المنقذ من الضلال) والتي تمثل أول تجربة للترجمة الذاتية في الادب العربي ، وتتمثل هذه الازمة في الصراع النفسي بين الشك والايمان ، والصراع العقلي بين الموالاة السياسية والرأي الحر .

قطعت هذه الازمة استمرار حياة الغزالي قبل سن الاربعين بعد أن ذاع اسمه وعلا قدره وأصبح مبرزاً في المدرسة النظامية فاذا به يصمت عن الكلام ، ويتوقف عن الدرس ، ويخرج من بلده ، ويتخلى عن مكانته ويوزع ثروته ، ويعتزل الحياة ،طوفاً

بضعة عشر عاماً بين القدس ودمشق والقاهرة ومكة ، معتكفاً في المسجـــد الاموي في دمشق، في المنارة الغربية ، يصعد اليها أول النهار ويغلق بابها عليه حتى المساء، وفي بيت المقدس حيث ينزوي في قبـة الصخرة ، وفيما بينهـــما يمضى في تأليف كتابه (الاحياء) ورسائل أخرى ، ثم يعود الى خراسان مارا ببغداد، يعود خلقاً آخر، وقد تخفف من مطامع الدنيا ومظاهرها، وبعد ان استصفى فكره وكون مذهبه، وزسم منهجه ، ووجد نفسه على النحو الذي ارتضاه منذ عرف الحياة والفكر في (طوس) أول شبابه ، ثم جاء جرجان ونيسابور، وبعد ان التقى باستاذه (الجويني) إمام الحرمين حيث درس الجدل وعلم الكلام والمنطق والبلاغة ، ثم حين اتصل بنظـــام الملك وزير السلطان السلجوقي (الب ارسلان) فانتدبه لرئاســـة المدرسـة النظامية في بغداد اربـع سنين .

في خلال احد عشر عامــاً من العزلة والخلوة وتصفية النفس استطاع الغزالي أن يجد الاجابة عن الشبهات التي قامت في نفسه، لم يكن الغزالي من بعد ذلك (صوفيا) بالمعنى الذي تحمله هذه الكلمة اليوم ، ولكنه كان قــد كون مفهوماً متكاملاً للاسلام ، مزج بين الفقــه والتصوف ، وحرر الفلسفة من وثنيات اليونان ، واعلى من شأن مفهوم القرآن على مفهوم الكلام. ودحض شبهات الباطنية زائــفي الرأي والادعاء والفلاسفـة الذين اندفعوا وراء الطابـع الهليني ، والصوفية الذين انحرفوا الى القول بالفناء المطلق

أو وحدة الوجود ، فخالفهم في ذلك كلـه ، وعارض ما ذهب اليه الحلاج وابن عربي، ودفع الشبهـات التي التصقت بالعقيدة والسنة ، وعـاد بالفكر الاسلامي الى اصالة جوهره بعـد أن اوشكت الفلسفة والتصوف والكلام ان تنحرف به عن غايته ، أو تخرج بـه عن طبيعته السمحة البسيطة ، فاستطاع ان يوقف موجة الانبهار بالفلسفـة اليونانية وما وراءها ، وعاد بالفكر الاسلامي الى الاصالة المستمدة من جوهر الاسلام نفسه.

وكان بيانه في ذلك كلـه واضحاً سمحاً ، بعيداً عن الصناعة اللفظية مع صراحة ووضوح وحجة قائمة ، وقوة بيان ، قوامها دقـة تعبير

يقول الغزالي في تصوير تطوره النفسي العقلي :

لم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجـة هذا البحر العميق واخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل ظلمة ،واتهجم على كل مشكلة، واتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ،واستكشف اسرار مذهب كل طائفة لأميز بين حق وباطل، فقدكان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي، وديني ، في أول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله ، لا باختياري وحيلـتي ، حتى انحطت عـني رابطة « التقليد » وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا.

ويقول : كـل مولود يولد على الفطرة ، فـأبواه يهودانــه وينصرانه ويمجسانه ، فتحرك باطني الى حقيقـة الفطرة الاصيلة وحقيقة العقائـد المعارضة بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات، وفي تمييز الحق عن الباطل اختلافات،فقلت في نفسي أولاً، انما مطلوبي العلم بحقائق الامور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ، فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ثم علمت ان كل ما لا اعلمه على هذا الوجه ولا اتيقنه ، هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقـة به، ولا امان معه .

ويقول : ثم شفـى الله تعالى من المرض وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها عن امن ويقين ، ذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف .

ولقد كان الغزالي دومـاً يتطلع إلى نور الله يقذف في قلبه ليتبـين الحق الى جوار حكم العقل ، ولذلك فقـد كان حفياً بأن يجعل في دعائه وصلاته هذا المعنى : يقول :

اللهم من كان على هوى أو رأي وهو يظن انه الحق ، وليس هو الحق فرده الى الحق حتى لا يضل من هذه الامة احد.

اللهم لا تشغل قلوبنا بما تكفلت لنا به، ولا تجعلنا في رزقك خولا لغيرك ، ولا تمنعنا خير مـا عندك بشر مـا عندنا ولا ترنا

حيث نهيتنا ولا تفقدنا حيث أمرتنا ، اللهـــم أعزنا ولا تذلنا، اعزنا بالطاعـة ولاتذلنا بالمعصية، اللهـــم انا نعوذ بك من الفقر الا اليك ، ونعوذ بك من الذل الا لـــك .

اللهـــم لا تكثر علينـا فنطغى ، ولا تقلل علينا فننسى

وقـد كان كتابه (الاحياء) وما يزال مرجعاً ثرا للباحثين والملهم العميق للمفكرين ، وآية هذا الكتاب أنه جمع المسلمين في عقيدة موحدة ، فقهاء ومتكلمـين وصوفية وأزال ذلك الصراع الذي كان يدفعهم الى الخلاف ، وكانت نقطـة الضعف الوحيدة في الاحياء هي ضعف احاديثه .

وقد وصف الغزالي بأنه إمام وصاحب مذهب،امام في الفقه وصاحب اتجاه في علم الكلام وله موقف في الفلسفة ، وشيخ من شيوخ الصوفية ، وقد الف في الاصول ، وفي الفقه الشافعي،وفي الاخلاق والتربية والتصوف وألف في التوحيد .

أما قراءته فقـد شملت كل ما وجـــد في عصره من علوم وفلسفـــات، وكان مطلعاً بصورة واسعة على الانجيل والآداب المسيحيـــة ، وكان مرنا في مقارنتهـا وهضمها واسع الصدر في مناقشتها وعرضها [١].

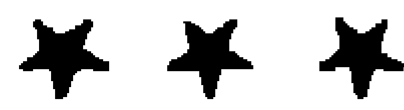
وابرز اعماله انه ربـــط الصوفية بالسنة وحررها من الحلول والاتحـــاد، وقد صدق البارون كارادوفو حين وصفه في كتابه

(١) عبد الكريم النعمان : سيرة الغزالي

مفكرو الاسلام بقوله :

« ليس هو بمتكلم ولا فيلسوف ولا فقيه ولا متصوف ، وكل لوحده ، ولكنه هذا كله مجتمعاً ، فهو يمثل شمول الاسلام وتكامله »

ويمكن القول بأن الغزالي جمع التيارات الثلاثة ودمج بينها : فكان فقيهاً ومتصوفاً وفيلسوفاً وانه اتجه بالتصوف الى انعاش التعاليم الاسلامية التي كانت قد تأثرت بالفلسفة من ناحية وبالفقه من ناحية أخرى، فجمدت وأصابها طابع من الجفاف والخشونة اذهب عنها بهاء روحانيتها واشراقها .



وعمل الغزالي في كلمة هو « البحث عن الحقيقة » وغاية العلم عنده أن تبلغ النفس الانسانية كمالها

- ٢ -

من خلال أعمال الغزالي ودراساتــه نستطيع أن نصــل الى منهــــج فكري متـكامل في فهمه للاسلام : يمكن أن نوجزه في نقــــاط :

أولاً : التماس منهج القرآن كمنطلق لفهم الاسلام .

« ان اسلوب القرآن في القرآن ابلـغ من اسلوب المتكلمين وانفع واعم واشمل للطبقات والمستويات الفكرية المختلفة . وان علم الكلام علاج مؤقت نشأ عن شكوك وشبهات ولا حاجة للطابع السليم والعقول المستقيمة اليه ، اما القرآن فهو الغــــذاء الصالح والمــــاء السائـغ يحتاج اليهما كل انسان ينتفع بهما ولا ضرر منه ولا خطر .

ان آراء المتكلمين تعطي صورة الجــدل مما يعجز عنه العامي وربمـا يكون ذلك سبباً لرسوخ العنــــاد في قلبه ، والانفع هو الكلام الجاري كما يشتمل عليه القرآن فـأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انسان ، وادلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد

الناس ويستضر به الاكثرون، بل ان ادلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي .[1] »

ثانياً : العقل ليس مستقلاً بالاحاطة .

« العقل ليس مستقلاً بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء في جميع المعضلات وانه لا بد من الرجوع الى القلب الذي يستطيع أن يدرك الحقائق الالهية بالذوق والكشف . وذلك بعد تصفية النفس بالعبادات والرياضيات الصوفية »

ويقول : ليست الحقائق التي يؤديها العقل كل ما في الامر فهناك ما يعجز ادراكنا عن الوصول اليها ونحن نقول بها وان كنا لا نقدر على استخراجها بقواعد المنطق ولا بالوصول المعروفة فليس مما يخالف الصواب وجود افتراض قائل بوجود « دائرة أخرى » فوق دائرة العقل وان شئت فقل دائرة التجلي الرباني ونحن وان كنا نجهل سنن تلك الدائرة ونواميسها جهلا تاماً نجد الكفاية في قدرة العقل على الاعتراف بامكانها ».

ان احكام العقل صادقة في العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية وفي كل ما يتعلق بأمور التجربة . أما المعارف الالهية فان العقل لا يحكم فيها الا بالامكان ويكون ذلك بنور يقذفه الله في القلب . على ان للعقل مهمة لا شك فيها هي ادراك

---

(١) لخصه عن الغزالي الاستاذ أبو الحسن الندوى في كتابه (رجال الفكر والدعوة)

التناقض في الآراء والقضايا النظرية واستبعاد الاحكام المتناقضة.

ثالثاً : مفهوم المعرفة

ان يأخذ الحق من أي مصدر كان حتى من أفواه الخصوم وينتصر له ، وان يفصل بين حقائق العلم ومبادىء الشريعة لأن العلم يستند الى العقل والشرع ينبجس من القلب . وسبيل الاولى القياس الفكري وطريق الثانية الايمان الديني

وأن يركز قيمة العلم في العمل الموائم ، لان معيار العلم تميز بين الصحيح والفاسد ، وميزان العمل يفرق بين العمل المسعد والعمل المشقي . والسعادة انما تكون بهما معاً.

رابعاً : نفي السببية

ان الامور تتم بارادة الله لها بالاسباب الظاهرة لنا فاذا القي شيء في النار ، وكان الله لا يريد احتراقا فانه لا يحترق .

خامساً : مفهوم العلم

أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره، وعلم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم ما تجهل ، فانك اذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت ، وعلى المرشد المعلم ان يتجنب مهلكات الاخلاق ، وهي الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه ، وعليه ان يزجر المتعلم عن سوء الاخلاق بطريقة التعريض ما امكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فان التصريح يهتك حجاب

الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف .

وعلى المتكفل ببعض العلوم أن لا يفتح في نفس المتعلم العلوم الاخرى ، بل المتكفل بعلم واحـد ، ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وأن يراعي التدريج في ترقيـة المتعلم من رتبة الى رتبة ، وأن يقصر بالمتعلم على قـدر فهمه فلا يلقـي اليه ما لا يبلغـه عقله اقتـداء بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قـال : نحن معاشر الانبيـاء امرنا أن نـنزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم .

والعلوم انمـا تثبت بطريقين : طريق الاستدلال والتعليم ، وطريق الالهام .

سادساً : الوحدة الفكرية

ان الاخلاص لله يقتضي المسلمين بالانفاق على الاركان الاساسية للدين، وان الخلاف حـول الامور الثانوية ممـا يتعلق بالتفرعات الاعتقادية والعبادية .

سابعاً : مفهوم التوكل :

من الخطأ ان نظن أن معنى التوكل هو ترك الكسب باليدين وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الارض كالخرقـة الملقاة ، فهذا ظن الجهال ، لانك اذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعـا دون الخبز ، أو يخلق في الخبز حركة اليك فقد جهلت صفة الله ، كذلك لو لم تزرع الارض وطمعت في أن يخلق الله نباتاً بغـير

بذور ، فلا يجوز لك ترك الاسباب .

ثامناً : مفهوم الصبر

إن الصبر تختلف اسماؤه باختلاف ما يصبر عليه المرء منـه ، فان كان صبراً عن شهوة البطن سمـي عفة ، وان كان في احـتمال مكروه سمي صبراً وضده الجزع ، وان كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، وضده البطر ، وان كان في الحرب سمـي شجاعة وضده الجبن ، وان كان في كظم الغيظ سمي حلماً وضده التذمر. وان كان في نائبة مضجرة سمي سعة الصدر ، وان كان في اخفاء كلام سمي كتمان السر ، وان كان في فضول العيش سمي زهـداً ، وان كان على قـــدر يسير من الحظوظ سمي قناعـة والصبر عن المحظور فرض وعن المكروه نفل ، وعن أذى الناس فضيـــلة.

- ٣ -

دافع الغزالي عن الاسلام في وجــه الدعوات والتيارات والمذاهب المختلفة التي انحرفت به عن اصله وجوهره ، فتقصى حجج : الدهرية والباطنية والاباحية والبراهمة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة والمتكلمة والباطنيـة والفلاسفة والصوفية وغيرهم من الفرق التي انحرفت بالاسلام عن مفهومه أو سيطرت على ارائهم مذاهب دخيلة ثم عرض الاسلام عرضاً جديداً ، وصاغه صياغة متجددة في ضوء القرآن وعلى قاعدته الاصيلة الجامعة بين العقل والقلب والمادة والروح والعلم والدين والدنيا والآخرة . وكان في سجاله متأدباً بأدب القرآن في المجادلة الحسنة وناقش المسائل على حد تعبير الاستاذ ابي الحسن الندوي على اساس العقل المتأدب بالشرع ، « فحول مجرى النشاط الكلامي من الجدل إلى التعليم العملي ، ومن الاستدلال الاقتناعي إلى التثقيف الروحي.

وقد خدم الاسلوب العلمي في البحث والنقـد ، فشك في العلم التقليدي أولاً ، ثم عمد إلى تحري الحقائق بالبحث الدقيق ،

وجعل نقده بناء فاورد رأي خصومه أولا ثم هدمها ثانياً وشاد الحق على انقاضها » .

ولقد كشف الغزالي عن منهجه في الجدل وآداب المناظرة حين قال : «ان الغاية من الجـــدل والمناظرة هو الحق والحقيقة وليست التغلب على الخصم والتفوق على المناظر، وشرط على المناظر ان يكون مجتهداً يفتي برأيه ، وان لا يناظر الا في مسألة واقعة أو قريبة من الوقوع غالباً ، وأن تكون المناظرة في طلب الحق، كناشد ضالة لا يفرق بين ان تظهر الضالة على يده أو على يد من يناظره ، ويرى رفيقه معينـــاً لا خصماً ويشكره اذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، وأن يناظر من يتوقع منه الاستفادة ممن هو مشتغل بالعلم » .

وقد حرر الغزالي الاسلام من عشاوة أهل الكلام وحرر التصوف من عشاوة الغلاة ، فعـــارض مفاهيم المتكلمين وكشف عن أن آرائهم فقد تعطي صورة العدل مما يعجز عنه العامي وربما يكون ذلك سبباً لرسوخ العناد في قلبه ، وقال انه عمل مرحلي في فترة ما ، ولكنه لا يصلح كأسلوب عـــام في كل العصور والازمنة فهو علاج مؤقت ومختص بمن تنشأ عنـــده شكوك وشبهات ولا حاجة به للطابع السليم وان مثله مثل الدواء .

وكانت حركة الكـــلام قد نشأت في ظل اسلوب المنطق

اليوناني في مواجهة حملات خصوم الاسلام عليه ، وقد انتهى هذا الدور وانقضى في الفترة التي دخل فيها الاسلام الاقطـــار التي توسع فيها ، ولم تعد له مهمة باقية . فكان بقاؤه واستمراره امراً من الامور المعطلة والحاجبة لمفهوم القرآن نفسه .

ولما كان هو من ناحية أخرى يقوم على منطق العقل وحده ، فقد اصاب الفكر الاسلامي بالجفاف وحال دون تكامل مفهومه المرتبط بين العقل والقلب .

وقف الغزالي من الفلسفة موقفاً غاية في الانصاف ، أمـــا بالنسبة لفلسفة الطبيعة والرياضة فلم يتعرض لها وقال : ان هذه العلوم ليس فيها تعرض لاصول الاسلام أو مقوماته وليس في الشرع تعرض لها بالنفي أو الاثبات .

اما الفلسفة الالهية فهي التي عارضها الغزالي ونقضها ووقف ازاءها موقف النقد الصريح ذلك لان الفلسفة الالهيــة اليونانية تقوم اساساً على الوثنية والتعدد وقال : ان في الالهيات اكثر اخطاء الفلاسفة وانهم لم يقدروا على الوفاء بالبراهين على نحو ما شرطوه في المنطق والعلوم الاخرى ويرجع ذلك إلى أن الالهيات ليست كالعلوم الاخرى « الرياضة والطبيعة » وليس لهامقدمات ومحسوسات ومبادىء .

والغزالي لم يهاجم علوم الفلسفة التي تصادم التوحيد وهو

جوهر الاسلام وانما انكر عليهم ما تعارض مع اصول الاسلام : وذلك قولهم بقدم العالم وقولهم بأن الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الاشخاص، وانكارهم بعث الاجساد وحشرها .وقال ان هذه المسائل تتعارض مع اساس مفهوم الاسلام .

ومن هنا فان تلك الحملة التي يثيرهـــا على الغزالي خصوم الفكر الاسلامي هي حملة باطلة وظالمة ، ذلك أن اقرار الغزالي بالفلسفة الالهيــة اليونانية يعني أن تطغى الفلسفة اليونانية على اصول الاسلام كما طغت من قبل على اليهودية والمسيحية .

وموقف الغزالي هذا بالاضافة الى مواقف اخرى لكل المشتغلين بالفلسفة الاسلامية ولابن تيمية وغيرهم دليــل عن تلك الاصالة الصلبة في مقدرة الاسلام على تقبل ما يتفق مع مفاهيمه وقيمه من الفكر البشري، وقدرته ايضاً وصلابته على ان يرفض كل ما يختلف عن هذه القيمة دون ان يستسلم لها أو يقبل احتواءها له.

وعلى ضوء هذا المفهوم يفسر كل ما يردده الغربيون ودعاة التغريب من حملة على الغزالي حين يقولون : « انه طعن الفلسفة طعنة قاضية » نعم انه طعن الفلسفة الالهية الوثنية وحدها وهي ما لم يقبلها الاسلام بحال .

لقد وجد الغزالي كيف اخذت الفلسفة تؤثر على عقليــات النشء والشباب ، وكيف ان حملة الدعوة لها منكرون للشرائع

والنحل جاحدون لجوهر الاسلام وهو التوحيد ، هنـاك كانت حملته على (تهافت عقيدة فلاسفة اليـونان) وتناقض كلمتهم في الالهيات ضربة صادقة سبق بها فلاسفة اوربا انفسهم الذين حملوا من بعد على هذا الجانب من الفلسفة ، ويكفي الغزالي انصافاً انه اعترف بدقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية .

وقد عارض الغزالي قول جالينوس اليوناني « ان الشمس لا تقبل الانعدام » واستدل على ذلك بأن الارصاد لم تدل على أي تبدل في حرارة الشمس . فقال ان ارصاد القدماء ليست الاعلى التقريب ، والشمس قد تخف حدتها ، وينقص حجمها ، دون ان يلاحظ الناس ذلك في مدة قصيرة ، ووصل الغزالي في ذلك الى ما اثبته (جيميس جينز) من ان الشمس في تناقص .

كما رفض الغزالي رأي الفلاسفة الذين قالوا بأن الشر مركب في طبع الانسان ، وقال ان الفطرة الانسانية قابلة لكل شيء ، والخير يكتسب بالتربية وكذلك الشر ، وان الانسان لا يميل بفطرته الى احد الجهتين ، وانما هو يسعد ويشقى ، تبعاً لعوامل عديدة تتعلق بالابوين والمحيط غير حاسب أي حساب للوراثة وما اليها .

وقاوم الغزالي الاباحيين من المتفلسفين الذين يبررون اباحتهم بادلة فلسفية ، كما قاوم الملاحدة الذين لا يؤمنون بحياة أخرى او يرجعون الاشياء الى الطبائع والنجوم ، وقد هاجم الدعوة إلى

الشهوات الحسية ، ونزعة التمتع على اساس الشعور بفنـاء هذه الحياة والشك في الحياة الأخرى [1] » .

وقد رأى الغزالي ان الفلسفة تحجب جوهر الفكر الاسلامي وتطغى عليهومن أجل ذلك حاول ان يحرر هذا الفكر ويعيده إلى البساطة والسماحة .

وقد اشار البارون دي فوي الى ذلك حين قال ان الغزاليقد ثار لنبذ التقاليد وتحرر الاسلام من ربقـة الاسر بشبح الماضي المخيف وظلام الجمود « وعلى الجملة فان الغزالي قد حمـى بقوة الفكر الاسلامي من ان تطغى عليه الفلسفة الهلينية أو تجرفه المفاهيم الصوفية الهندية واليونانية .

هاجم الغزالي الصوفية القائلة بالاتحاد والحـلول ووحدة الوجود واعلن ان التصوف داخل في دائرة السنة وانه يلتمس مفاهيمه من شمائل الرسول وصحابته ومفهوم الزهد في الاسلام بعيد عن مفاهيم الرهبانية والصور الفلسفية المعقدة التي دخلت اليه نتيجة لترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية .

ويتلخص مفهوم الغزالي للتصوف انه ايمان يقيني بالله والنبوة واليوم الاخر ، وحسن الخلق وكرم الاخلاق ، والتقشف في

---

(١) محمد عبد الهادي ابو ريده .

الدنيا والاعراض عن الجاه والمال ، والاقبال بالتفكير على الله تعالى ، وان تكون حركات المتصوفة مقتبسة من نور مشكاة النبوة .

ورفض الغزالي الرأي القائل بأن من وصل الى تطهير النفس حلت له المحظورات ورفعت عنه التكاليف .

– ٤ –

رسم الغزالي منهجاً متكاملاً للتربيـة وعلم النفس الاسلامي قوامه ترابط النفس بالأخلاق والدين وجعل هدفه من معرفـة النفس ان يكون ذلك سبيلاً إلى إصلاحها وإلى تهذيب الأخلاق ورد مظاهر السلوك الانساني الى أربعة دوافع :

شهوة الطعام والحس والمال والجاه .

وإذا كان فرويد قد رد السلوك الانساني الى الغريزة الجنسية وهو تعنت واضـــح ، وإذا رده أدلر الى غريزة السيطرة فان الغزالي قد سبقهما في رده الى شهوة الطعام ومنها يتفرع الى باقي الشهوات . يقول :

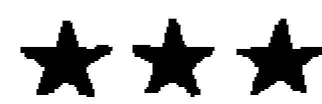
« والبطن على التحقيـق ينبوع الشهوات ، ومنبت الادواء والآفات اذ تتبعها شهوة المرأة وشهـــوة الرجل ثم يتبع شهوة الطعام والمرأة شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة الى التوسع في الشهوة الجنسية والمطعومات . ثم يستتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات .

ثم يتولد بينها آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ، ثم يقضي ذلك بصاحبه الى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء .

وكل ذلك ثمرة اهمال المعدة وما يتولد عنها من بسط الشبع والامتلاء، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل » .

وعنده أن الاعتدال في متعة الطعام تحول دون غايات الشهوة المؤدية الى المنافسة والحسد فهو يؤمن بالاعتدال بديلاً للافراط او التفريط ، وعنده أن الافراط هو ما يقهر العقل حتى يعرف عنه همة الرجال أو قهر الدين حتى يجر الى اقتحام الفاحشة والتفريط في هذه الرغبة هو الضعف وعنده أن « المحمود ان تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع [1] » .

ودعا الامام الغزالي في ذلك الى التسامي ووصفت طريقته بأنه يشغل المرء بأمر يشغله وقال في صراحة انه « ليس المطلوب أمانة الشهوات النفسية بالكلية بل المطلوب هو ردها الى الاعتدال . وعنده أن الشهوة على هذا النحو المعتدل ممتعة ومبلغة للسعادة .



(١) عن بحث للدكتور الاهواني : الغزالي مؤسس علم النفس الاسلامي .

والأخلاق عند الغزالي ليست مقصودة لذاتها وانما الغاية منها تطهير النفس من الأدران وجعلها صالحة للتصوف ، والأصل في الفطرة الانسانية الخير ، أمـــا الشر فهو عرض لهذه الفطرة السليمة .

ويرى الغزالي أن للأخلاق أبعاداً ثلاثة :

البعد النفسي : ويتمثل في علاقة الفرد مع نفسه ومع ربه .

والبعد الاجتماعي : وهو معاملتــه مع النــاس وسلوكه مع المجتمع .

والبعد الروحي : وهو عقيدته ومثله وقيمه .

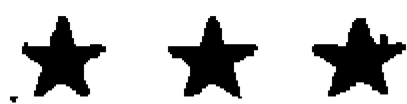
ودعا الغزالي إلى تهذيب ثلاث قوى رئيسيــة هي : قوى التفكير ، والشهوة ، والغضب. فاذا هذبت قوة التفكير حصلت بها الحكمة ، وبها يمكن التفريق بين الحق والباطل في الاعتقادات ، وبين الصدق والكذب في المقــال ، وإذا هذبت قوة الشهوة ، حصل (الحلم) وهو كظم الغيظ ، وكف النفس عن التشفي ، وتحصل (الشجاعة) وهي كف النفس عن الخوف والحرص . فاذا صلحت قوة الشهوة وقوة الغضب وانقادتا للقوة الفكرية العقلية حصلت (العدالة) وهي جماع مكارم الشريعة وطهارة النفس وحسن الخلق .

وقد رفض الغزالي مفهوم الرهبنــة ومفهوم التقشف ونهى عنها نهياً شديداً وقال ان دين الاسلام يأمر بالتقوى أي اجتناب

المحارم، وفرق بين التقوى والرهبنة والتقشف وغلب الاخلاق في مفهوم الخير على مفهوم المنفعة ودعـــا الى الفضائل الفردية والاجماعية معارضاً اتجاه ارسطو في الأخلاق الفردية وهو نفس الاتجاه الذي تبنته الكنيسة الغربيـــة ، وعارض الغزالي الزهد الكنسي ذا الطابع الرهباني الذي يأمر بقمع الغرائز والشهوات، ودعا وفق مفهوم القرآن إلى التسامي بالغرائز واعلائها ، وهو مفهوم يختلف عن مفهوم علماء النفس الحديث . ويحدد القرآن هذا في قوله : « ونفس وما سواها فألهمها فجورهـا وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

ويمكن القول بأن الغزالي حرر عـــلم الاخلاق من مفاهيم الفلسفة اليونانية التي اعتمدها ابن مسكويـه ، والتمس مفهوم القرآن وقال ان محمداً جاء ليتمم مكارم الاخلاق وتعميمها على الفرد والمجتمع ، حاكماً ومحكوماً .

ويرى الدكتور احمد فؤاد الاهواني انهذه النظرة الاسلامية في مفهوم الغزالي تتميز وتختلف عن علم النفس اليوناني الموروث عن المشائية والافلاطونية .



ومفهوم الغزالي في التربية تقدمي وايجابي فيه أصالة الاسلام وفيه ما عجزت النظريات الحديثة أن تتخطاه يقول :

وعلى المتعلم أن لا يبدأ دراسته في علم بتعلم الخلاف الواقع بين أصحاب هذا العلم لأن ذلك يفتر عزمه ، وأن لا يدع فنـــاً من فنون العلم إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على غايتــه ومقاصده ، ثم يتخصص بعد ذلك ، لأن العلوم جميعاً متعاونة ، يفيد بعضها بعضاً،وحتى لا يكون معادياً لعلم ما بسبب جهله له ، ولا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله وأن لا يبتر العلم ، بل يتمه ، لان العلم يجب ان يكون تامـــاً ، نعوذ بالله من نصف متعلم ، ونصف طبيب ، ومن واجب المتعلم إذا بلغ الغاية من العلوم أن يعلم غيره » .

والغزالي هو أول من دعا – قبل ديكارت وهيوم– الى الشك في العلم الموروث حتى يتحقق الباحث باليقــين وهو نور يقذفه الله في القلب .

وعنده أن العلم خير إذا وافق العقــل والشرع ، وشر إذا خالفهما .

وقد جعل للعلم منطقة وللدين منطقة ولكل مزاياهـــا وأحوالها الخاصة ، على أن تتصل النفس البشرية بالمنطقتين ، فهي تتصل بالعالم الحسي عن طريق المعرفة والبرهان،وبالعالم الروحي عن طريق الاختبار الشخصي والكشف .

وقد دعا المعلمين إلى تجنب كل مـــا يثير الشك في نفوس الضعفاء حرصاً على وحدة الهيئة الاجتماعية .

وحدد وظائف المرشد المعلم في أنها تجنب مهلكات الأخلاق (كالكبر والعجب والحسد) والشفقة والرأفة ، وأن لا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى ، وأن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها أو التشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي وأن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريقة التعريض لا التصريح، وبطريقة الرحمة لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف وأن يراعي المعلم التدرج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة ، وأن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله، وأن لا يلقي إلى المتعلم القاصر أمراً غير جلي ولا يذكر له أن وراء ذلك تدقيقاً فان ذلك يشوش عليه قلبه،وأن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله .

ويرى أنه يجب أن يؤذن للصبي بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح اليه بحيث لا يتعب من اللعب فان منع الصبي من اللعب وارهاقه في التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش .

ومن ناحية أخرى يرسم الطريق للطالب فيرى أن عليه ألا يدع فناً من الفنون المحمودة ولا نوعاً من أنواعها إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على نقصه ، لأن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض .

وعلى المتعلم أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة، بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم فان العمر إذا كان لا يتسع لكل العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم .

وقد أخذت الطريقة الحديثة هذا المنهج من الغزالي . ويرى الغزالي أن على المتعلم أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم وان ذلك يراد به شيئان :

أحدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل وقوته .

وأشرف العلوم : العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم ، وأن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل بالقرب من الله .

وقسم الغزالي العلوم إلى قسمين :

قسم يجري مجرى إعداد الزاد والرحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا .

وقسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطهير الباطن من كدرات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة ، وهو علم تهذيب الأخلاق .

وغرض التربية الاعلى هو الدين والاخلاق بمعناهـا الواسع ، ويربط الغزالي بين العلم والخلق .

إن ظهور شرف العلم يكون من قبل العقل ، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، والعلم يجري منـــه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين ، والعلـم وحده لا يغني بدون الاخلاق ، والتربية الخلقية هي في الواقع تربيـة اجتماعية ويجب ألا ينظر إلى الخلق كأنه شيء شخصي محض ، لا يهم سوى صاحبه ، وإنما ينبغي أن ينظر اليه من الناحيـة التربوية والاجتماعية أكثر من النظر اليه من الجهة الفردية ،فقيمة تربية الاخلاق وأهميتها تزداد كلما كانت علاقتها بالمجتمع أكثر وروابطها أقرب .

فاذا كان غرض العلـــم هو كسب العيش وحده فان ذلك يضيق الافق العقلي ويحرم المرء الترقي الصحيح ويجعلـــه آلة لكسب المال ، فالعلم أو المال أو المهارة في فن مـــا ان كانت مقرونة بفساد في الخلق وضعف في النفس ، لا تكسب صاحبها راحة البال ولا تجعل للانسان قدرة في علمه أو مهارة في فنه ، أما من سمت أخلاقـــه وعلت نفسه أو على الاقل لم ينزل عن المستوى الخلقي الذي أوجده العرف ، وكان مع ذلك ماهراً أو متعلماً فهذا لا شك من تروقنا أخباره وينفعنـا علمه وتؤثر في نفوسنا أعماله » .

ويربط الغزالي بين العلم والعمل : فالعلم بلا عمل لغو وهو

حجة على صاحبه . وقد شبه العلم بالسلاح والعمل بالشجاعة ، والسلاح بلا شجاعة لا يجدي ، وعلى أي أحد إذا سئل عما لا يعلم ان يقول : لا أعلم وان لا يستحي إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه .



ويقدم الغزالي للرجل نصائحه في معاملة المرأة مستمدة من مفهوم الاسلام :

« ليس حسن الخلق في المرأة كف الاذى عنها بل احتمال الاذى منها والحلم على طيشها وغضبها ، على ان يكون الرجل بشوشاً مرحاً مع أهله فيطلب قلب المرأة بالمزاح والمداعبة ، وعليه ان لا يقتر في الانفاق وان يتحفها دائماً بالهدايا ، كما ان عليه ان ينظر في حاجة المرأة الى حقوق البدن ونداثه ، وهو أساس التحصن والعفة ، وعلى الرجل ان يتغافل عن مبادىء الامور التي تخشى غوائلها ولا يبالغ في الظن والتعنت وتجسس البواطن » .

وينادي الغزالي بتعليم المرأة ويلزم الرجل بتعليم زوجه مبادىء الدين فاذا قصر وجب على المرأة ان تخرج لتتعلم ، ولا جناح عليها في ذلك . ويعرض لأمر الطلاق فيرى : من أحب ان يكون مشفقاً على زوجه رحيماً بها فليذكر ان المرأة لا تقدر ان تطلقه وهو قادر على ان يطلقها وانها ما دامت في

عصمته لا تقدر على زوج سواه ، وهو قادر على ذلك ، وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وانها تفارق امها واباها واقاربها لاجله ، وهو لا يفارق لاجلها أحداً ، والطلاق إيذاء للمرأة ولا يباح للرجل إيذاء المرأة إلا بجناية من جانبها ولا بد ان تسبق الطلاق مجالس الصلح والتوفيق ولا يجب الطلاق قبل ذلك .

وقد نقد الغزالي المجتمع وألقى التبعة الكبرى في الفساد والضعف والانحلال في الاخلاق على العلماء وقال ان الاطماع قيدت ألسن العلماء فسكتوا فان تكلموا لم تساعدهم اقوالهم فلم ينجحوا .

ولم يتوقف عن كشف اسواء المجتمع بل انه كتب الى الوزراء والامراء ابلغهم فيها وحذرهم ووصف امراض العامة والمنكرات الفاشية في مختلف الطبقات .

وبيّن كيف ان مفهوم التوحيد قد انحرف ، فقد كان في مفهوم المسلمين : ان يرى الانسان الامور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط .

- ٥ -

سبق الغزالي ديكارت بنحو ستة قرون في قوله : ان الشكوك هي الموصلة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال .

وسبق هربرت سبنسر في تصوير الدولة او المدينة بجسم الانسان ، فالغزالي يشبه الملك بالقلب وأصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم ، والشرطة بعصب الانسان والوزراء بحسن الادراك والقضاة بالشعور .

وسبق دافيد هيوم في القول بنفي السببة وان كان الغزالي يرى أن الأمور تتم بارادة الله لها لا بالاسباب الظاهرة بين السبب والمسبب ، بينما يبحث هنا هيوم بحثاً نفسياً ويردها إلى التذكر .

وسبق الغزالي فلاسفة القرن الثامن عشر في كلامه عن قدم العالم .

ولا ريب انه أوضح « منهج الشك للوصول إلى الحقيقة » .

وقد استطاع أن يخرج العقائد بالعبادات، والفقه بالتصوف، كما انه خلص الايمان بالله من الافتراضات والتعقيدات والتهويمات. ونقد ادعياء التصوف نقداً مراً قاسياً ، وحدد مفهومه للتصوف تحديداً دقيقاً حين اشترط ان تكون أفعال المتصوفة موزونة بميزان الشرع ، واحتكم في تصوفه إلى القرآن والسنة وفتح الطريق للتوفيق بين الفقه والتصوف .

ومن الحق أن يقال ان الغزالي شيد عقيدته ومفاهيمه على قاعدة الحياة ، وما اختبره فيها من التجارب ، ولم يفرق مطلقاً بين ما يعتقده وما يعمل به . لقد أخذ الغزالي الطريق الذي لا طريق غيره في تجديد الاسلام وذلك بالتماسه مفهوم القرآن وإعلاء هذا الطريق على كل طريق « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ».ذلك أن طريق الإسلام هو مصدر القوة ، ولقد رأى الغزالي في مواجهة التحديات الخطيرة والرياح التي كانت تهب على العالم الإسلامي ان لا سبيل للمسلمين إلا أن يتحرروا من كل منهج وكل أسلوب وكل فلسفة ، إلا ما يصدر عن منهج القرآن ، وقد كان الغزالي في ذلك « ابن وقته » وثمرة عصره ، واستجابة لأضخم أزمة واجهت المسلمين هي أزمة الحروب الصليبية بعد خطر الباطنية والشعوبية المتمثلة في هذه المذاهب والدعوات التي قاومها بقلمه ونكس أعلامها وكشف للمسلمين زيفها وحرر الفكر الاسلامي من آثارها ، واتجه به الى منبعه الاصيل : التوحيد .

لقد عمل الغزالي على إعادة تركيب الأجزاء في البناء الواحد، حيث ربط هذه الأجزاء بعضها ببعض في تناسق الإسلام وتكامله وتوازنه العجيب حين انحرفت ليستعـــلي هذا الجزء أو ذاك ، ولتتفرع عن قاعدتها ومحورهـــا الذي تدور حوله وترتبط به وهو التوحيد .

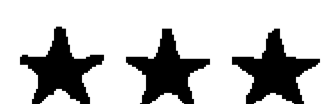
لقد نزع الاردية المعقدة عن جوهر الاسلام البسيط السمح ، أردية الفلسفة والكلام وانحرافات العقليين واضطرابات دعـاة الحلول ، لقد مسح هذا التعقيد والاضطراب عن الجوهر الصافي وكشف عنه نقياً ساطع الضياء .

وأعاد الغزالي الايمان « إلى العقول .بعد ان غلبهـــا التفكير الفلسفي المجرد ، ورد النفوس إلى الفطرة ، بعد ان غلبها التقليد والتعقيد وأعاد المعرفة إلى الربط بين مفهـوم القلب إلى جوار مفهوم العقل .

وإذا كان الاسلام قد انبعث من داخله لتصحيح مفاهيمـه بالغزالي فان الغزالي قـــد حمى الفكر الاسلامي من ان تفترسه الفلسفة اليونانية كما افترست الفكر اليهودي والمسيحي والفارسي والهندي من قبل ولم يسلم من شرها غير فكر القرآن .

ورفع الغزالي الايمان من حضيض السذاجة إلى قوة التفكير العالي ، وقرب الدين من العقل الاعتيادي ، وكشف دقائقه أمام أذهان العامة . وحمى العامـــة من أخطار الفلسفة ومذاهب

الباطنية ، وكشف أمام المثقفين عجز أدلة الفلاسفة عن معرفة مسائل الربوبية وقرر ان السعادة لا تتأتى بالايمان الفلسفي بل بالعمل المؤدي إلى الاتصال بالروح الاعلى .



ولد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ابو حامد حجة الإسلام في طوس (بخراسان) عام ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م ورحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام ومصر وعاد إلى بلدته فتوفي بها ٥٠٥ هـ - ١١١١ م ومن أبرز مؤلفاته « احياء علوم الدين » وكتب أخرى كثيرة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه « المنقذ من الضلال » ، وله « ايها الولد » ، و «تهافت الفلاسفة» ، ويعد حادث هجرته من أبرز احداث حياته وأبعدها أثراً.

عرف مناهج الفلسفة واشتغل بالتدريس ورأس المدرسة النظامية في بغداد ، ثم اتجه إلى التصوف والفقه ، واتجه في آخر حياته إلى الحديث ومات وهو يعلن أن عقيدة أهل الحديث هي العقيدة الناجية في الاسلام وقيل مات وكتاب صحيح البخاري على صدره .

توفي ٢٠٥ هـ - ١١١١ م

المراجع :

رجال الفكر والدعوة : ابو الحسن الندوي

الحياة العالية : أنور الجندي
محمد عبد الهادي أبو ريدة – الثقافة سنة ١٩٤٥
الغزالي والتصوف الإسلامي: الدكتور أحمد الشرباصي
الغزالي : د. عمر فروخ مجلة المجمع العلمي م ٩
تاريخ الفلسفة الإسلامية : دى بور
الغزالي : مجلة المعلم العربي م ١٦ سنة ١٩٦٣ .
الغزالي : دكتور احمد فؤاد الاهواني (المعرفة) ١٩٦٣

ابن تيمية

(تقي الدين احمـــد عبد الحليم)

٦٦١ – ٧٢٨ هـ.

شيـخ الإسلام

« لا تقلدني ولا تقلد مالكا والشافعي وتعلم كما تعلمنا »

« العقل يكون شاهداً ولا يكون حاكماً، ويكون مقرراً ومؤيدا ولا يكون ناقضاً ولا رافضاً »

« ان الفساد لم يأت من قبل النصوص فهي حق في معناها ولا تحتاج الى تأويل ، وانما جاء من حملها على معـــان فاسدة ليست معانيها المرادة بها .

ابن تيمية

- ١ -

يقف ابن تيمية على رأس قمة من قمم الفكر الاسلامي كواحد من المصلحين والمجاهدين ، وهو في تقدير الباحثين رابع أربعة كانوا رمزاً للتحدي ورد الفعل في مواقف التطور الفكري والاجتماعي للاسلام والعالم الاسلامي : وهم ابن حزم والغزالي وابن تيمية والاشعري ، فقد ظهر في عصر مضطرب زاخر بالدعوات والنظريات في مجال الفقه والفلسفة والتصوف في أواخر القرن السابع الهجري ، وأوائل القرن الثامن ، فلم يلبث أن انتدب نفسه لتصحيح المفاهيم ورد الحقائق الى اصولها وكشف الزيوف والعناصر المختلفة المتضاربة ، وعمد في اصرار الى حل تعقيدات التعصب والاوهام والتلبيسات التي أدخلت الى الفكر الاسلامي مفاهيم منحرفة ، وقد استطاع بقوة عارضته وبراعة حواره وعمق جدله أن يفحم خصومه ، وان يرد الامور الى

أصولها وأن يجرد القيم مما أضيف إليها من دخائل في سماحة من غير تصعب، وفي علم من غير سفسطة وفي اعتصام بالحق وحده، مقيماً فكرته على أساس انسانية الانسان، وتحرير الرأي من قيود الشعوبية وأوهام التقليد وتجديدالشريعة وبذلك فتح آفاق الاجتهاد وقضى على التعصب المذهبي، واعاد الحياة الى موازين البحث ولم يكن عمله هذا هيناً ولا بسيطاً ولا مما يفضل أثره في ظل عصر مضطرب يقع في نهاية غزوة من غزوات التتار وفي مقدمة غزوة اخرى ، فقد زحف المغول على بغداد قبل مولده، فما أن بلغ مبلغ الرجال حتى واجه الغزوة الثانية على حدود دمشق وجاهد في مقاومتها .



كانت رسالة (ابن تيمية) هي وحدة الفكر ، والقضاء على الفرقة التي أوجدتها انحرافات المذاهب والدعوات ، مما كان لها أثرها على جذور الفكر الاسلامي وقيمه الاساسية ، فكان آية عمله ان يوثق القيم الاسلامية ويؤكدها حتى يواجه في ضوئها كل النظرات الوافدة والاراء الغريبة والمعروف ان الاراء التي اذاعها ابن تيمية ففتح بها باب الاجتهاد هي الحجة التي احتج بها الجامدون ووصفوه من اجلها بأنه خالف المتعارف عليه بينما هو في هذه النظرات اكثر ايماناً بالاسلام والتصاقاً بالحياة وتحرراً من الجمود ، فقد ابتعث هذه الاراء من مصادر الاسلام ومقوماته الاساسية

مغضياً عن الركام من الاراء الداخلية التي اخفت وجهه الحقيقي، فقد افتى ان الطلاق الثلاث، بلفظة واحدة لا يقع الا مرة واحدة وقال بان من أكل في رمضان معتقداً انه ليل فبان نهار فلا قضاء عليه وقال بجواز الوضوء بكل ما يسمى ماء مطلقاً .

وقال بجواز التيمم لمن خاف فوات صلاة العيد والجمعة باستعمال الماء والقبول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً طويلا كان أو قصيراً « وقال إن سجود التلاوة لا يشترط له طهارة ».

وهو القائل بأن القرآن يفسر القرآن فانه نزل يصدق بعضه بعضاً .

وابن تيمية فقيه ومفسر للقرآن وعالم وكاتب وصاحب رسالة ومعتقد ، وقف نفسه وعاش حياته ملتمساً الحياة من اصول الاسلام ومقوماته الاساسية مدافعاً عن سلامة هذه الاصول وجدارتها بالحياة داعياً الى التجديد والتطور والتحديد والاجتهاد فاتحاً أبواب حقائق الاسلام أمام الناس ، باعتبارها قادرة على الاتصال بالحياة خلال العصور المختلفة والبيئات المتعددة .

واذا كان ابن تيمية قد حارب بالكلمة وقاتل اولئك الذين حاولوا أن يصوروا الاسلام عقيدة جبرية أو مبتدعة تعيش في ظل التواكل والكرامات فقد دفعه الى دعوته تلك الارهاصات العنيفة التي كانت تتجاذب العالم الاسلامي في ظل حملات التتار

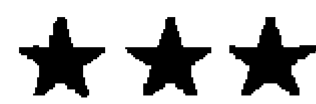
وما تعرض له الاسلام والعالم الاسلامي والخلافة في بغداد من اضطراب .

كان ابن تيمية هو رد الفعل لهذا التحدي الضخم الذي واجه الفكر الاسلامي بتغليب مذاهب ضالة على المفهوم السمح السهل للاسلام ، ومن هنا كانت حملاته على دعـــاة التقليد والتعصب المذهبي ومقاومة ما نسب إلى مفهوم التصوف في الاسلام مما وفد مع ثقافات الامم ، ومحاربة نظريات الحلول ووحـدة الوجود والباطنية كما حارب جمود العلماء عند النصوص دون النظر إلى تطور الامم ودخول عناصر جديدة واحداث جديدة ، كما هاجم الانحلال الخلقي واضطراب الاسرة وانهيار القيم الاساسية في ظل ضربات المغول واستشراء الدعوات الضالة كما حارب تقديس الموتى والالتماس من الأولياء .

وقد آمن بما دعا اليه واحتمل في سبيله كل عنت وعدوان ، وفي خلال اربعين عاماً هز « ابن تيمية » ميادين الفكر ومجالات العلم فانكر على الفلاسفة إغرابهم وبعدهم عن مفـــاهيم الاسلام وانكر على الفقهاء إغلاق باب الاجتهـــاد والوقوف عند قيود المذاهب الاربعة فلا يتخطونها ،وانكر رأي الصوفية وانحرافهم نحو الحلولية أو تقديس الموتى وناهض بدع العقائد والاحـكام والعبادات .

وحارب الخرافات التي تقول بقدرة طائفـة ما على دخول

النار وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه وقال: ان نصوص الشريعة الاسلامية وافية قادرة على الحياة والتطور ، ولم يــترك دعوته حتى في سجنه ، فقد دعا السجناء إلى الله واخـــذ يلقي عليهم دروساً تتناسب مع افهامهم في التماس الطريق الصحيح للحياة بعيداً عن السرقة والقتل .



لقد هاجم (ابن تيمية) كل المنحرفين من رجال عصره ، من الفقهاء والفلاسفة والصوفية والاشعرية وحاربهم جميعاً بالحجة والدليل والبرهان فرموه عن قوس واحدة بالزندقة والكفر ، والبوا عليه الخلفاء والامراء فسجن في القاهرة والاسكندرية ودمشق فلم يكن يخرج من سجن إلا الى سجن وصمد ابن تيمية ولم يتزعزع ولم يرعبه السجن ولم يفت من عزمه ، كان يدخل إلى السجن ليخرج أشد صــلابة وقوة ولا يلبث ان يعاود دعوته من جديد .

عاش في ذلك العصر الذي اخذ فيه التتــار يحطمون فيه المقدرات الاسلامية بعد أن اطفأوا منار الخلافة في بغداد فاحس بالمعنى البعيد الذي توحي به الاحداث : ذلك هو ضعف المسلمين عن فهم دينهم وعجزهم عن التمسك به ممـــا ادى إلى تصدع جبهتهم الموحدة .

هذه الفترة العصيبة أخرجت إماماً عصيباً فكان ابن تيمية حاداً قوي العارضة غاية في الجرأة دعـا في العودة بالاسلام إلى بساطته الاولى ، بعد ان هاله ذلك التمزق في الجبهة الاسلامية وكانت زوايا الصوفية ورباطاتهم وخوانقهم قد انتشرت في كل مكان، واخذت آراؤهم المشوهة المضطربة تبلبل الافكار وقد اخرجت الاسلام من بساطته إلى تعقديات الحلول ووحدة الوجود.

كانت فرق الرفاعية في دمشق وحلب والجيلانية في العراق والشاذلية في مصر كلها تسيطر على الرأي العـام وعلى الامراء وتتصارع فيما بينها ثم تتصارع مع الفقهاء والفقهاء يتصارعون فيما بينهم والصراع محتدم بين الحنابلة والاشاعرة وبين الفقهـاء والمتكلمين وبين المتكلمين والمتصوفة .

وقف ابن تيمية بين هذه الفرق جميعـاً ليدعو إلى السنة الصحيحة ، لم يدخل الميدان إلا وقد احاط بالثقافات المتعددة في مختلف الميادين والم بعلوم الحديث وحفظ المتون وعرف الرجال وجرحهم وتعديلهم واعانته على ذلك حافظـة واعية وذاكرة قوية وذكاء مفرط صدق في وصفه ابن دقيق العيد حين قال :

[رأيت رجلاً جمع العلوم كلها بين عينيه ، يأخذ منها مـا يريد ويدع ما يريد] .

كان له عقلية مرتبة ، حتى انه ليورد في جلسة واحدة أو خطبة واحدة ، العديد من الاسانيد والأحاديث والايات والحكم

التي ينتظمها موضوع واحد .

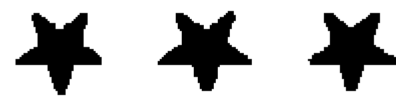
ومضى ابن تيمية يناهض البدعة في العقائد والاحكام والعبادات ويكافح مبادىء الحلولية في التصوف مستنكراً رأيهم في الموتى والاولياء ، كما انكر على المعتزلة مسائل الصفات وانكر على الفقهاء غلق باب الاجتهاد ، والوقوف عند قيود المذاهب الأربعة ، كما عارض الفلاسفة في اغرابهم ومغالطاتهم وبعدهم عن بساطة الاسلام. ولم يقف عند هذا بل اتجه إلى الناحية الايجابية ، فتحرر من قيود مذهب الاشعري في الاصول ومذاهب الائمة الاربعة في الفروع ، وحارب خرافات الاحمدية بدخول النار وغيرها وأفتى في الطلاق بان الطلقات الثلاث من غير تخلل رجعه ، تقع طلقة واحدة .

وبهذا فتح باب الاجتهاد على مصراعيه وكشف عن نصوص الشريعة الاسلامية بحاجات الناس وقال قول الامام احمد : [لا تقلدني ولا تقلد مالكا والشافعي وتعلم كما تعلمنا] وبدأ حملاته على الصوفية المنحرفة ، بان وجه اليهم كتباً يطلب اليهم فيها ان يعدلوا عن مسايرة عقائد الحلول والاتحاد ، مبيناً لهم خطرها على الاسلام وانها بدعة لم تأت في كتاب .

وقد ارسل الصوفية هذه الكتب إلى شيخهم «نصر المنبجي» الذي كان محبباً إلى أرباب الدولة في القاهرة فاستعانوا بالولاة في ان يقدم الشيخ إلى القاهرة ، وادخلوا في روع الأمير (ركن

الدين الجاشنكر) ان ابن تيمية خطر على الدولة ، وقالوا له انه لو أرخي له العنان لاخرج المماليك من الحكم كما فعل ابن تومرت في المغرب فعقدت له مجالس المناظرة في دمشق ناظره فيها صفي الدين الهندي والزملكاني وكانت الغلبة لابن تيمية .

ثم تجددت الحملة عليه عند ما قدم إلى مصر ، وقادها العلماء الذين جمعت بينهم الاهواء ، وقد حكم عليه بان يلقى في الجب معلقاً بحبل فبقي فيه عاماً ونصف عام ثم اخرج منه ما زاده ذلك إلا اصراراً على رأيه وثباتاً على عقيدته ثم حكم عليه بالسجن مرة أخرى بحبس العصاة ثم اعتقل في برج الاسكندرية ثمانية شهور ، وعاد إلى دمشق بعد غيبة سبع سنين عنها ، وسرعان ما دبرت له المؤامرات وانتهت فرصة افتائه بما لا يعجب السلطان فحكم عليه بالسجن في قلعة دمشق خمسة أشهر .



وللسجن مع ابن تيمية قصص : عندما اعتقل في سجن الديلم عام ١٣٠٧ م كان الناس يقصدونه في السجن فيعلمهم ويفتيهم . وقد الف في السجن كتاباً ورسائل ذكر فيها أحاديث واقوالاً من حفظه ولم يرجع فيها إلى كتاب ما ولم يستشر حافظاً .

وقال ابن عبد الهادي : لما دخل الحبس وجد المحابيس

مشتغلين بانواع من اللعب يتلهون بهـــا عما هم فيه كالشطرنج والنرد ، فأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى الله بالاعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء وحضهم على عمـل الخير ، حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والروابط والخوانق والمدارس .

وصار خلق من المحابيس اذا أطلقوا يختارون الاقامة عنده ، وكثر المترددون عليه حتى كاد السجن ان يمتلىء بهم . وقد انتقل ابن تيمية من سجن إلى سجن . فهو في مصر سجين العصاة بحارة الديلم قريباً من الأزهر ، وفي الاسكندرية في برج مطبق له شباكان أحدهما إلى جهة البحر .

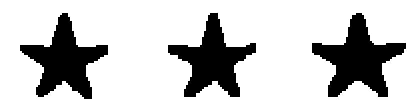
وعندما سجن في دمشق ظـل يكتب ويؤلف حتى رأى خصومه أن يضيقوا عليه فاخرجوا ما عنده من الكتب والاوراق والدواة والقـــلم ومنع من الكتابة والمطالعة وحملت كتبه إلى خزانة الكتب بالعادلية فلما كانت ليلة عيد الفطر نقلوه إلى الجب ولم تطل أيام ابن تيمية بعد هذا التضييق في السجن .

وكان طبيعياً وله صراحته وجرأته وآراؤه المغايرة للتقليد أن يجد هذه الخصومة العارمة من العلمـاء والامراء ولكن ابن تيمية كان صلب العود ، فقد واصل حملاته طوال حياته قوية جبارة يصدر فيها عن عمق اطلاع وسعة فهم واصالة في قيادة المساجلات .

وفي كل مرة من المرات التي عقدت له مجالس المحاكمة ، خمس مجالس ، كان يخرج منتصراً وفي السجن كان يعلم العامة ، ويعكف على كتاباته ومطالعاته حتى انه وضع تفسيره للقرآن وهو في قبو مظلم رطب تحت الارض .

وكان يعاود عرض أرائه واعلانها للناس مرة فمرة ، حتى تسكن الفتنة ثم يعاود الكرة فيستأنف دعوته فتقوم عليه قومة المعارضين .

ولا شك كان للاحقاد التي يوجهها خصوم ابن تيمية ، أبعد الأثر في تألق عقله في سبيل الكشف عن دفاع جديد مما رفع شهرته وعمق علمه وكان من اخطر ما واجهه هو تحريف ارائه والدس عليه .



ولم تكن حياة ابن تيمية صفوا بل كانت حافلة بالمتاعب ففي الفترات التي كان يخرج من سجنه كانت العـــامة تلاحقه بالاذى بل ان بعض العلماء تربصوا له مع بعض الغوغاء ، وانتهزوا فرصة مروره باحد الامكنة الخالية من العمران فضربوه ضرباً مبرحاً واحتمل ذلك صابراً ومضى ، وقيل انه كان اذا خرج إلى المسجد اكتنفه الواشون من كل جانب وسدوا عليه منافذ السبل ، وقد تقبل ذلك وغـــيره من عوادي الايام بصدر

رحب وقلب مؤمن بأنه على الحق.

وبالرغم من هـذا الاضطهاد فانه لم يغفل عن واجبه عند ما هاجم التتار حدود الشام فقد ركب فرسه ومضى يحث الناس على الجهاد وشهد موقعة (شقحب) وكانت حرارة ايمانه من العوامل الهامة في انتصار المسلمين .

وتبدو شمائل هـذا العالم الفارسي وخلقه في تلك المبادرة الرائعة ، فما ان شاع ان التتار قد اصبحوا قريباً من دمشق وانهم يتباهون باحتلالها حتى فزع الناس فزعا شديدا وكاد أهلها يغادرونها لولا وقفة ابن تيمية الذي توسط الناس وخطبهم موصياً بالصبر والثبات حاضا على الجهاد والمدافعة ثم لم يلبث أن أرسل أعوانه (يسدون) منافذ المدينة الخارجية حتى لا يجد الضعفاء فرصة للهرب ثم لا يلبث ان يخرج في جماعة من العلماء والاعيان حتى يلتقي بقائد التتار ، ويتولى ابن تيمية الحديث معه ويغلظ له في القول حتى ظن الناس انه هالك لا محالة ، وقد استطاع بقوة عارضته أن يأخذ منه الامان لاهل دمشق وقد صور المؤرخون شجاعته في هذ الموقف ولباقته على نحو تضرب به الامثال: قال القاضي سرابا الدين في ترجمته لابن تيمية (انه جلس الى سلطان غازان حيث تحجم الاسود في آجامها وتسقط القلوب داخل اجسادها ، جلس ، اليه وأومأ بيده الى صدره وواجهه ودرأ في نحره .

ولما قدم لهم غازان الطعام رفض أن يأكل فلما ساله في ذلك قال له في جرأة :

« كيف آكل من طعامكم وقد طبختموه من اغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس .»

فلما ذل له (غازان) وطلب منه الدعاء دعا في وجهه باجرأ دعاء فقال : « اللهم ان كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك العليا وليكون الدين كله لله ، فانصره وايده وملكه البلاد والعباد ، وان كان قام رياء وسمعة طلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الاسلام واهله فاخذ له وزلزله ودمره واقطع دابره ، حتى قال له اصحابه بعد الدعاء : كدت ان تهلكنا وتهلك نفسك .

وقال كمال الدين المنجا في كتابه الكواكب الدرية : (كنت حاضرا مع الشيخ فجعل يحدث السلطان ويقول قال الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان ويقرب ركبته من ركبة السلطان والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته مصغ لما يقول شاخص اليه لا يعرض عنه ، لما وقع في قلبه من المحبة والهيبة) فلما أعاد التتار عدوانهم وهددوا دمشق في العام التالي ٧٩٠ هـ ركب الى مصر وقابل السلطان الناصر وواجهه في شدة وقال:لو قدر انكم لستم حكام الشام واستنفركم أهله وجب عليكم النصر فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه ، وقد واجه المعركة

في جرأة ، فدرّب الفقهاء على الرمي بالنشاب وعلمهم الفروسية وطرق القتال المختلفة وكان يقضي ليله يدور على الاسوار يحرض الناس على الصبر والقتال. ويعقد مجلسه في الجامع كل يوم يحرض الناس على القتال ويحرم الفرار ويرغب الناس في انفاق الاموال.

وقد حارب الروافض بالسيف في جبل كسروان وعرف في كل مواقفه الحربية بالشجاعة البالغة شأنه في معاركه العلمية — فقد كان بارعاً في ركوب الخيل والطعن وكان لسانه اللبق يدفع عن النفوس الهلع وينشر الشجاعة والحمية في صفوف المحاربين .

وقد وقف في هذه المعارك موقف الموت فكان قدوة للناس الذين كانوا يتدافعون تحت اللواء يقتلون ويقتلون .

كان من أشجع الناس قلباً واثبتهم جناناً حتى في الساعات الـتي كانت تزيغ قلوب فريق من الناس ، وكان اذا حضر في عسكر المسلمين لا يـني يثبت الهالعين ويشجع الجبناء ويبشر المجاهدين ويعدهم بالنصر والغنيمة ويبين لهم فضل الجهاد والمجاهدين وكان اذا ركب الخيل يجول في العدو كاعظم الشجعان ويطعن كاثبت الفرسان ويخوض المعارك خوض الجسور الذي لا يخاف الموت وقد رأى منه الناس في فتح عكا صوراً من الشجاعة تعجز الواصف عن وصفها . لم يقف أمر ابن تيمية عند هذا الحد .

ففي معركة شقحب التي جمع فيها التتار جموعهم وزلزل الناس

زلزالا شديـدا القـسي بنفسه في المعركة وقاتل هو وجماعة من اصحابه وكان يهرول بين خطوط المقاتلين في جبهة القتال ويدعم الصفوف ويشرف على ارسال النجدات فلما انتهت الحرب بالنصر احاط به قومـه ليقبل الزعامة والولاية فاذا به يجيب معتذراً عن قبول الحكم والسلطان.

ويقول : إنما أنا رجل ملة لا رجل دولـة.

حدد ابن تيمية مفهومه للاسلام في أصول واضحة :

أولا : لاسبيل الى معرفة العقيدة والاحكام وكل ما يتصل بها جملة وتفصيلا واعتقادا واستدلالا الا من القرآن والسنة المبينة له والسير في مسارهما فما يقرر القرآن وما تشرحه السنة مقبول لا يصح رده ، وانكاره خروج على الدين ، وليس للعقل سلطان في تأويل القرآن وتفسيره وتخريجـه الا بالقدر الذي تؤدي اليه العبارات وما تضافرت عليه الاخبار واذا كان للعقل سلطـان بعـد ذلك فهو التصديق والاذعان وبيـان تقريب المنقول من المعقول ، وعدم المنافرة بينهما، فالعقل يكون شاهدا ولا يكون حاكما،ويكون مقررا مؤيدا ولا يكون ناقضا ولا رافضا ويكون موضحا لما اشتمل عليه القرآن من الادلـة .

ثانياً : القرآن كلام الله غير مخلوق ولكنه ليس قديما .
والقرآن معنى قائم بذات الله وهو صفة من صفات ذاته القديمة

وغير مخلوق وليس بحرف ولا صوت وان قوله (الرحمن على العرش استوى) يفهم على ظاهره ولا يعلم كنه المراد به الا الله .

ثالثاً : الله خالق كل شيء وليس في الكون شيء بغير ارادته والله ييسر فعل الخير ويرضاه ولا ييسر فعل الشر ولا يرضاه، وان للعبد مشيئة وإرادة كاملتين يجعلانه مسؤولا عما يفعل .

رابعاً : دعا الى فتح باب الاجتهاد في الفقه وافق بخلاف المذاهب الاربعة :

خامساً : اعتمد ابن تيمية في منهجه العلمي على اصول خمسة :

اولها : النص فاذا وجد النص افتى بموجبه ولم يلتفت الى ما خالفه ولا من خالفه كائنا من كان .

ثانياً : فتوى الصحابة .

ثالثاً : فاذا اختلف الصحابة تخير من اقوالهم ما كان اقرب الى الكتاب والسنة .

رابعاً : الاخذ بالمرسل والحديث الضعيف اذا لم يكن في الباب شيء يدفعه .

خامسا : استعمال القياس للضرورة .

سادساً: حل ابن تيمية مشكلة العقل والنقل وتعارض الدليل السمعي والدليل العقلي وقال :

ان الدليلــين السمعــي والعقــلي القطعيــين لا يتعارضان أصلا ، واذا تعارضا كان احــدهما قطعياً والآخر ظنياً والقطعي منهما هو المقدم ، وعارض التأويل معارضة تامــة ودعا الى فتــح باب الاجتهاد في الفروع وافتى هو بالفعل بخلاف المذاهب الاربعة .

- ٣ -

رسم ابن تيمية عقيدة أهل السنة والجماعة مستمداً إياها من رسول الله وصحابته وتقوم على :

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره . وقال : ان أهل السنة في خمسة الأمور وسط هذه الأمة :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » .

وسط بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة .

وقال : إن أهل السنة يثبتون صفات الله تعالى وينفون مماثلتها للمخلوقات وهم في أفعال العباد : وسط بين الجبرية والقدرية ، فالجبرية ينفون فعل العبد أصلاً ، ويقولون انه مجبر على أفعال وان فعله نفس فعل الله . أما القدرية فيقولون : إن العبد يخلق أفعاله ويعملها دون مشيئة الله وقدرته ولذلك سموا مجوس هذه الأمة .

أما أهل السنة فيرون أن للعبد قدرة وإرادة وفعلاً وهبها

الله له لتكون أفعاله حقيقة لا مجازاً مع اعتقادهم بأن الله خالق كل شيء .

وأهل السنة يعترفون بفضل الصحابة ويرتبونهم في الأفضلية ويترضون عليهم بما قاموا من مناصرة الرسول والدعوة الاسلامية ، وأهل السنة يرون أن مرتكب الكبيرة مؤمن ناقص الايمان ، ينقص إيمانه بقدر معصيته ، وأمره في الآخرة ، مفوض إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه . وأهل السنة يرون في مرتكب الكبيرة ناقص الايمان وليس فاسقاً ولا كافراً وإذا مات على كبيرة فهو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا .

ويقر أهل السنة بأن الاجماع هو الأصل الثالث من مصادر التشريع : (الكتاب والسنة والاجماع) وعندهم أن الاجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الخلاف ، والقدر في مفهوم ابن تيمية هو إرادة الله المسيطرة على الكون والحياة والإنسان ، وهذه الإرادة مسيطرة في كل لحظة من اللحظات وعلى كل تفصيل من التفصيلات فلا شيء في الوجود يحدث مصادفة ولا جزافاً ولا شيء يحدث بلا غاية .

(ربنا ما خلقت هذا باطلا) .

وكيف يحدث شيء في غير موعده وبدون حساب (وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة) .

ويقرر ابن تيمية : الايمان بالقدر خيره وشره والايمان بالقدر عنده على درجتين :

الدرجة الاولى :

علم الله القديم وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ . فما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

(مــــا أصابكم من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) .

الدرجة الثانية :

مشيئة الله العامة وقدرته الشاملة وإيجاد الله لكل المخلوقات، والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم . وللعبــاد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهـــم . (لمن شاء منكم أن يستقيم)، (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله). والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل :

وفي ذلك قول الرسول : إن قوماً يدعون الإيمــان ولا عمل لهم ، كذبوا وايم الله والايمان قول وعمل : قول بالقلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح ، والايمــان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

ومن أصول السنة والجماعة : سلامـــة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ويقبلون ماجاء في الكتاب والسنة والاجماع من فضائله ويمسك أهل السنة عما شجر بين الصحابــة من نزاع ، والآثار المروية عن النزاع بين الصحابة ، منها مـــا هو كاذب مفترى ممن يريدون إفساد الشريعة ومنها ما قد تزيد فيه ونقص

وغير من وجهه لأغراض وأهواء مضلة والصحيح من الآثار نعذرهم فيه، فهم إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون .

ومن أصول العقيدة الواسطية : التصديق بكرامات الأولياء . وشرط كون الخارقة كرامة أن يكون من جرت على يديه صالحاً متبعاً للسنة ومن ادعى محبة الله وولايته ولم يتبع شرعته وسنة نبيه فليس من أولياء الله .

والتوسل في رأي ابن تيمية مقرر على نحو واضح : « هو التوسل بطاعته صلى الله عليه وسلم فهذا فرض لا يتم الايمان إلا به، والتوسل بدعائه وشفاعته، وقد كان هذا في حياته ويكون يوم القيامة، أما التوسل به بمعنى الاقسام على الله بذاته والسؤال بذاته فهذا هو الذي لم يكن الصحابة يفعلونه لا في حياته ولا بعد مماته، ولا يعرف هذا في شيء من الادعية المشهورة عنهم وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز ونهوا عنه حيث قالوا لا يسأل بمخلوق .

ويقول : لا يجوز للانسان الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .

- ٤ -

هاجم ابن تيمية كل ما تقرر أنـه مصدر من مصادر ضعف المسلمين وتفريق صفوفهم ودعا إلى نبذ كل مـا جعلهم شيعاً وأحزاباً فقد هاجم غلاة الشيعة والروافض وكان يؤمن بأنهم أداة هدامة لوحدة المسلمين ومن عوامـل تفريق الجماعة وكان غيوراً على أن لا ينتقض هذا الميراث العظيم إزاء تلك الدعوات المضلة .

وكان من أهم من عني بمعارضتهم ورفض آرائهم (القرامطة والباطنية) مؤمناً بأن مبادئهم كانت مصدر الحركات الهدامة التي هبت في وجه الإسلام إذ كانوا عونـاً لكل عدو هاجم المسلمين .

بل ان ابن تيمية جرّد الآراء الطيبـة التي حملتها الفرق المختلفة وحررها من الأهواء ، وردهـا إلى الأصول الاسلامية الأصيلة وذلك مما أشار اليه في كتابه (السياسة الشرعية لاصلاح الراعي والرعية) في مواجهة السموم التي بثها اخوان الصفا في رسائلهم . ورد على المسيحيين واليهود : وله في ذلك كتابان :

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢) الرد على اليهود والنصارى .

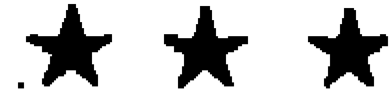
وقد عارض الغلو في تعظيم عمر وعلي وما يضاف اليهما من الأفعال . وهاجم التوسل بالأنبياء والأولياء . ويقرر ابن تيمية أن العمدة في الدين كله هو : الكتاب والسنة والكتاب ليس علم عقائد بالخبر والنقل وحسب ، بل بالدليل والبرهان ، وأن النبي فسر القرآن كله لأنه هو الذي عليه أن يبينه ويوضحه ، وبيانه من أركان تبليغ الرسالة وقد تلقى الصحابة منه تفسير القرآن كله وعلمه كله ، وعلى الإنسان ألا يتبع إلا الدليل من الكتاب أو السنة أو آثار السلف الصالح ويستأنس بأقوال التابعين استئناساً ، وربما جاز التقليد في فروع الدين من غير أصوله .

ويقرر ابن تيمية : ان الفلاسفة أخطأوا حين سعوا إلى بناء طريقهم على ترتيب الاقيسة العقلية وحسب ، وفاتهم ان العقل وحده عاجز عن درك حقائق الدين ولا بد من النقل .

وعنده أن العقل يتجه إلى القرآن ويتفهمه بالفكر أي بموازنة آيات القرآن بعضها ببعض فيكون تأويل القرآن من القرآن ، لا من أقوال الفلاسفة والمتكلمين .

وأشار إلى أن القرآن كان دليل العرب ومصباحهم في

تعرفهم إلى سائر العلوم وقد اكتست العروبة حلة الاسلام وأقر الاسلام فكرة الدولة ولكنه قيدها بشرع مبين واضح وان أفضل ما فيه الشورى ورعاية المصلحة العامة [1] .



واعلن ابن تيمية مخالفته للمذاهب الأربعة في مسائل معروفة واعتمد على رأيه في هذه المخالفة على الكتاب والسنة وهو لا يفتي بمذهب معين بل بما قام عليه الدليل عنده وجعل الكتاب والسنة هي الميزان الوحيد الذي يعرف به الحق ، فكل مذهب مقبول عنده بقدر ما يوافق الكتاب والسنة ، وقاعدته هي الأخذ بصريح الكتاب والسنة وعدم التعويل إلا على نصوصها عما هي عليه من الدلالة ، وعارض ابن تيمية الفقهاء أصحاب الحيل المجردة والنصوص الجافة ، وعارض ابن تيمية : الجمود والتعصب .

عارض الجمود ووصفه بانه يزري بقيمة العقل ويحط من كرامة الانسان . كما عارض التعصب الاعمى للمذاهب المتقدمة والمبالغة في تقديسها وقد كان هو نفسه بعيداً عن الجمود والتعصب ، فلم يسيطر عليه فكر معين يتعصب له ، وقد طبق هذا المفهوم على نفسه فاحترم خصمه ولو كان مخالفاً له وخلع نفسه من كل

(١) عن مجلة المجمع العلمي م ٣٧ .

فكر او مفهوم إلا ما يقيده بالكتاب والسنة .

واحترم ابن تيمية النظر العقلي على نحو دفعه إلى التسامي عن التقليد وافتى دون ان يلتزم بمذهب معين بل بما يقوم دليله عنده ، وقد حدد مفهوم « المعرفة » بانها ذات مصدرين : « الوحي والعقل » اما الكشف الصوتي فهو لا يقره ولا يعترف به ويرده بالدليل العقلي والسمعي معاً . ولم تقف معارضة ابن تيمية الطوائف عند الاعتراض عليها ، بل انه ذهب إلى أبعدمن ذلك فقد ناظر علناً أغلب هذه الفرق كالبطائحية الرفاعية ودحض آراءها وكتب لرؤسائها وجادلهم .

وقد وضع ابن تيمية منهجاً لتفسير القرآن قوامه القرآن نفسه ايماناً بأنه نزل يصدق بعضه بعضاً، فان لم يكن فبالسنة الصحيحة فانها مبينة للقرآن فان لم يجد فبقول الصحابة .

ويرى ابن تيمية ان الالفاظ الواردة في القرآن والدالة على صفات الله وافعاله يجب ان تفهم الفهم المخصوص بها مع إجراء معانيها على نهج يليق بالله تعالى فاذا وجد في القرآن والحديث لفظ محتاج للتأويل فاننا لا نتأوله برأينا بل نطلب تفسيره بالقرائن الموجودة في القرآن والحديث إذ لا بد من ان يكون هذا اللفظ قد ورد في آية ما أو حديث ما دالاً بوضوح على المعنى الذي ظننا انه محتاج إلى تأويل .

- ٥ -

وقف ابن تيمية من فكرة وحدة الوجود وفكرة الاتحاد والحلول موقفاً واضحاً صريحاً ، وأعلن ان فكرة الفصل بين الحقيقة والشريعة ، وفكرة الاتحاد ان هما الا تعطيل لاحكام الشريعة وانكر الامرين وحاربهما بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله وكشف عن خطأ القول بوحدة الوجود التي تنادى بها ابن عربي وفكرة الاتحاد والفناء في ذات الله التي تنادى بها ابن عطاء الله . وعنده انها مبادىء مستقاة من المزدكية والتحلل مستترة بستار الدين ضل بها الجهال ، وان هذه الاراء كانت مقدمة لنشوء نوع من التأليه وتقديس الاحجار ونصب الاصنام وعبادة النفوس ، وهي آراء في مجموعها موافقة للمسيحية والقرامطة والرافضة . وهي نوع من الوثنية يصرف الناس عن التوحيد . وعنده ان هذه الاراء قد دخلت بالباطل على عقائد كثير من الناس وكان دعاتها

من الذين ساعدوا التتار على اغتيال الاسلام ، وقال انه لا يعقل ان يحول في الذهن اتحاد خالق بمخلوق بحيث تجري عليه نواقص الحياة وزاياداتها والله جل شأنه تنزه عن النواقص التي تحيط بالانسان وان الانسان لا يستطيع ان يقيس الإله بمقاييسه الصغيرة الضيقة . والأصل في هذا الباب ان يوصف الله سبحانه بما وصف به نفسه . وقد أفاض ابن تيمية في تقرير مفهوم التوحيد فأشار إلى ان مفهوم الاسلام هو أن الموجود اثنان : واجب الوجود وممكن الوجود ، « واجب الوجود » هو الله سبحانه وتعالى وهو موجد هذا الكون وممكن الوجود هو هذه الكائنات كلها التي ندركها بحواسنا الخمس مباشرة وان « الممكن » له لا بد له من « موجد » . اما أصحاب مذهب وحدة الوجود فيقولون بأن كليهما واحد ومعنى هذا ان الكون هو الله . كما أنكر الاسلام مفهوم الاتحاد : أي حلول الخالق في المخلوق أو استغراق المخلوق في الخالق حيث يميز الاسلام طبيعة كل منهما . ولا يقبل الاسلام وحدة الوجود لان فيها انتقالا من عقيدته الأصلية (لا اله إلا الله) إلى ما يقوله بعض المتصوفة : (لا موجود إلا الله) وسياق كل منهما ينتهي إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف لنتائج الأخرى ، وقد كشف ابن تيمية عن أن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع ، لان الخالق والمخلوق اذا اتحدا فاما ان يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله وهذا تعدد وليس باتحاد واما ان يستحيلا إلى شيء

ثالث كما يتحد الماء واللبن والنار والحديد فيلزم ان يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غـيره وهذا ممتنع عن الله إذ الاستحالة تقتضي عـدم ما كان موجوداً ، والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته الملازمة له التي هي كمال والتي اذا عدمت كان ذلك نقصاً يتنزه الله عنه » كما رفض ابن تيمية فكرة التحلل من الشعائر واسقاط التكاليف وقـال « باثنينية الوجود » — كما تقول الاديان المنزلة — أي (الله والعالم) ، فالله خالق والعالم مخلوق والله مدبروالعالم مُدَبرٌ ، وليس الله حالاً في العالم وانما هو خالقه ومدبره ، والله بيده الخير والشر ، يثيب الناس ويعاقبهم جزاء ما كانوا يعملون .

كما أعلن ابن تيمية الحرب على الجبرية التي هي مفهوم التسليم الكامل للواقع وانسحاب الفرد من المجتمع والاعتقاد بسقوط الارادة الانسانية سقوطاً كاملاً ، وتقبل الاوضاع الذليلة تقبلاً كاملاً بدعوى انها ارادة الله مع الاستسلام للظلم والذل ، والانفصال عن المجتمع وايثار العزلة في الخوانق والتكايا على نحو قريب من الرهبانية والاتصال بالاولياء على نحو قريب من الوثنية واتخاذ عقيدة القدر تثبيطاً للعزائم وغلا للايدي .

وهاجم مفهوم الحلوليين الذي يقول : ان الخالق يحـل في شخص المخلوق ، ومنه انبعثت فكرة تأليه بعض افراد عوالم

الوجود ، وهو مفهوم دخيل على الاسلام وربما أفسد بعض عقائد الأديان المنزلة الأخرى ، وهاجم ركن العبادة في التصوف الحلولي المبني على هجران الدنيا بكل ما فيها والزهادة والتقشف وحرمان النفس ، والتهاويل والرموز وقـــال انها ليست من الاسلام أصلاً .

- ٦ -

من أخطر المعضلات التي خاضها ابن تيمية : نقده المذهب اليوناني وتحطيمه لقواعد (منطق ارسطو) وله في هذا المجـــال ثلاث دراسات : (١) نقض المنطق (٢) الرد على المنطقيـــين، (٣) نصيحة اهل الايمان في الرد على منطق اليونان .

وقـــد فك ابن تيمية عن الذهن الاسلامي قيود الفلسفـــة الاغريقية واستنبط منطقاً اسلامياً جديدا يتفق مع الذهن العربي الاسلامي ويحرره من ربقة الفلسفة الاغريقية وقد وصل الى ان انتهج من القرآن منطقاً اسلامياً ، وعنده ان طريقة التفكير التي يصطنعها الفلاسفـــة والمقدمات التي يبنون عليها والنتائج التي وصلوا اليها تختلف اختلافـــاً كبيراً مع (منهج القرآن)، ويرى ان القرآن والسنة قـــد اشارا الى المقدمات العقلية التي تهدي الى سواء السبيل وان متاهات العقل هي فيا يخترعه هؤلاء الفلاسفة ومن نهج نهجهم من علماء الكلام في استخراج العقائـــد والاحكام وان المعتمد في الدين كله : عقائده وفروعه على الكتاب والسنة :

وان القرآن لم يعلم العقائد بالخبر والنقل فقــط بل بالدليل والبرهان ، ويرى ان طالب العقائــد من العقل وحــده حاطب ليل، وان الفلسفــة عندما خاضت في الالهيات ضلت وعندما اقتصرت على الارضيات انصفت،فالعقل وحده عاجز عن درك حقائق الدين (الغيبيات) ولا بد من المنقول وهو القرآن والسنة على ان العقل يتجه الى القرآن ويتفهمه بالفكر اي بموازنة آيات القرآن بعضها ببعض، لذا يكون تأويل القرآن من القرآن لا من اقوال الفلاسفة والمتكلمين وأمثالهم .

وهو لا يتبع الرجال على اسمائهم فليس لأحد مقام إلا للدليل من الكتاب والسنة او آثارالسلف فما من قول يتلقى تلقيا ويسوغ فيه الاتباع من غير دليل مهما تكن درجة الامانــة عند قائله ، والشريعة اصلها القرآن وهو لا يتبــع احدا بعد الله ورسوله الا الصحابة ويستأنس باقوال التابعين واذا اختلف مع علماء عصره دعاهم الى التحاكم الى اهل القرون الثلاثة الاولى [1] .

ويمكن القول بأن ابن تيمية أوقف تيار الفلسفــة اليونانية الذي كان أيامه جارفاً للعقلية الاسلامية العربيــة نفسها وأنقذها من تسلط عقلية أرسطو .

ويقوم منهجه على « تحرير الفكر الاسلامي من قيود الفكر

من بحث الدكتور فاخر عاقل في مقدمة كتاب (بنت الفكر الديني في الاسلام)

اليوناني ، وقــد سجل كثير من الباحثين بأنه قبل ابن تيمية لم يكن للمسلمــين في تاريخ الفلسفة منطق خاص بهم فقد كسر ابن تيمية القيود التي عاشت بها العقلية العربية طوال القرون بعد ترجمــة أرسطو حتى عهده ، وكان كتابه (الرد على المنطقيين) منطلقاً اتيار جديد في الفكر الاسلامي حرره من قيود الاخطار الاغريقية ، فقد وجــد ابن تيمية مصدراً رائــع العظمة للمنطق الاسلامي وهو «القرآن الكريم» والسنة فاستخرج منها المنطق الجديد الذي سماه : المنطق الاسلامي ، هــذا المنطق الذي كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية اليونانية في الحــكم على الاشياء وفي الاستبصار والتأمل النفسي (١)

وقد سبق ابن تيمية العلماء الذين كشفوا عن مزايا القرآن في التصوير الفــني والتفوق البياني من زاوية لم تخطر للمتقدمين على بال، وهي زاوية المنطق الاسلامي على نحو يغني المسلمين في قضايا الفكر الصحيح والحكم المصمم عن المنطق اليوناني وعن أقيسته وأساليبه . وفي ذلك قوله : جاء القرآن بما فيه من حق وما هو أكمل وأبلغ منها (أي الفلسفة اليونانية) على أحسن وجــه مع تنزهه عن الاغاليط الموجودة عندهؤلاء ولعل اختلافهم اكثر من هداهم وقــد اعتصم في هــذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) راجع دكتورعليسامي النشار في كتاب الرد على المنطقيين وبحث الدكتور زكي المحاســني

« ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل »

ويقول الدكتور علي سامي النشار : لقـد فطن ابن تيمية الى روح الحضارة الاسلامية التي تختلف في اساسها عن روح الحضارة اليونانية وروح الاولى عملية وروح الثانية نظرية .

يقول ابن تيمية : ما انفك النظار المسلمون من جميع الفرق (المعـتزلة والشيعة والاشاعرة) وأهل السنة يردون المنطق اليوناني إلى أن جاء القرن الخامس الهجري فأدخله الامام الغزالي بدعة في الثقافة الاسلامية فكان عقما للفكر وجموداً للعلم .

« وما زال نظار المسلمين يعيبون طريق أهل النظر ويبينون ما فيها من العمى واللكنة وقصور العقل وعجز المنطق ويبينون أنها إلى افساد المنطق العقلي والانساني أقرب منها الى تقويم ذلك ، ولا يرضون أن يسلكوها في نظرهم أو مناظرهم ، لا مع مـن يوالونه ولا مع من يعادونه وانما كثر استعمالها في زمن أبي حامد فانه أدخل مقدمة في المنطق في أول كتاب المستصفى . »

ولقـد تتبع ابن تيمية (المنطق اليوناني) من تصوراته وتصديقاته الى قياسه وقـام بنقده جزءاً جزءاً فاصاب مفاصل المنطق وقوض أركانه تقويضاً علمياً لا يختلف عنه كثيراً نقـد (فرنسيس بيكون) وديكارت وجون ديوي ، وقال ابن تيمية : ان القياس عند أرسطو قائم على أساس صوري خالص بعيد عن

الواقع وان اشتراطه مقدمتين فيه انما هو تحكم وتعسف. كما نقد ابن تيمية الميتافيزيقا اليونانية لاتصالها بالمنطق وقال ان المنطق اليوناني لا يؤمن صاحبه من الخطأ لبعده عن المحسوس وكثرة الافتراع فيه والتجريد[1].

وفي كتابه (نصيحة أهل الايمان في الرد على منطق اليونان) يوسع هذا البحث ويعمقه ، فيهاجم منطق ارسطو بسلاح المنطق ويرى الدكتور النشار أنه هجوم اتسم بالوعي الكامل وانه يستند الى روح اسلامية خالصة من حيث انه استطاع أن يلتمس في منطق ارسطو خصائص العقلية اليونانية التي تباين الفكر الاسلامي تماماً ، من حيث ان العقلية اليونانية يسيطر عليها الطابع النظري في التفكير ونقد العلوم النظرية .

وانها تهتم بالجانب الصوري من المنطق دون المادي وتجعل القياس أكثر أنواع الاستدلال يقيناً ، بينما الاسلام وضع من أوضاع الحياة العامة ، ومن ثم فقد نشأت العلوم الاسلامية تبعاً لحاجات الحياة ، بل ان تلبية الحاجات الانسانية قد دعا الفقهاء في الاحكام الى العدول فيها عن قياس الغائب على الشاهد الى الاستحسان .

وانتقد ابن تيمية ارسطو لانه عدّ الرياضيات أشرف من

---

(١) المرجع السابق : الدكتور النشار .

الطبيعيات لانها اكثر تجريداً ، إذ لم ير ابن تيمية للرياضيات على الطبيعيات شرفاً ولا كمالا .

كما هاجم ابن تيمية أفكار الماهيات والكليات وسائر التصورات إذا لم تستند الى وجود عيني. ويقول الدكتور النشار : انها ليست محاولة هدمية فحسب ، ولكنها تعارض أرسطو بمنطق مادي، وقد كان ابن تيمية رائداً لكل الاتجاهات الحديثة في نقد منطق أرسطومن أرجانون (فرانسيس باكون) الى المنطقية الوصفية لدى سيتينج وكارناب وغيرهم .

وبالجملة فقد ناصر (ابن تيمية) المنطق المادي وانتقد المنطق الصوري وكان نقد ابن تيمية هو نقد أيضاً للفارابي وابن سينا وابن رشد وكل من وافقهم في التشيع لمنطق أرسطو.

وقد دافع ابن تيمية عن القضايا التجريبية وفقا لروح الفكر الاسلامي ، كما نقد الفلاسفة الذين ذهبوا الى القول بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات ويرى الدكتور النشار والمدرسة التي حررت هذه المفاهيم : ان نقد ابن تيمية للمنطق اليوناني ليس لتعسف استدلالاته فحسب ، بل لتعلقه باللغة اليونانية ومن هنا فقد أوضح ابن تيمية حقيقة هامة وخطيرة : هي أن لكل قوم لغة واصطلاحاً ومن ثم فلهم منطقهم المستمد من فكرهم .

ومنطق المسلمين هو القرآن ، ومن هنا فقد كشف ابن تيمية

(نهج القرآن) في الاستدلال على الغيبيات حيث استدل على الغائب بالشاهد كاستدلاله على البعث بأنه ايسر من الخلق أو النشأة الاولى « قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي انشأها اول مرة »

ومعنى هذا كله كما يقول الدكتور النشار انه اذا كانت كل ثقافة تسهم بقدر في بناء الثقافة الانسانية فان هذا لا ينفي الخصائص الذاتية لكل منها .

ويقول : لقد تنبه المتكلمون الى مباينة الثقافة الاسلامية لثقافة اليونان ، ومن ثم كانت حملتهم على الفلاسفة ، ولكن ابن تيمية هو الذي تنبه الى ان التسليم بمنطق اليونان باعتباره منهج ثقافتهم انما يقوض اساس الحضارة الاسلامية ، إذ سيلزم عن ذلك احكام عامة تهدم ما تبناه المسلمون من الاحكام ولا سيما في نطاق الالهيات فكانت عبقرية ابن تيمية لا في نقد المنطق الارسطي فحسب ، وانما في استخلاص منطق يعبر عن خصائص العقلية الاسلامية ويحمل طابع الحضارة فيها ، وتتضح عبقرية ابن تيمية المنطقية مرة اخرى حينما نجد منطقه قد ترك بصمات واضحة في كثير من الاتجاهات المنطقية الحديثة المباينة لمنطق ارسطو مثل: «المنطق الحاوي لدى بيكون وميل ، والمنطق الرياضي لدى رسل والمنطق السيكولوجي » ولعله من الضروري بعد هذا العرض ان نقدم

نصاً من كلام ابن تيمية في هذا المجال يقول : « هؤلاء يقولون ان المنطق ميزان العلوم العقلية ومراعاته تعصم الذهن عن ان يغلط في فكره، كما ان العروض ميزان الشعر والنحو والتصريف ميزان الالفاظ العربية المركبة والمفردة وآلات المواقيت موازين لها ، ولكن ليس الامر كذلك ، فان العلوم العقلية تعلم بما فطر الله بني آدم من اسباب الادراك ولا تقف على ميزان وضعي لشخص معين ، ولا يقلد في العقليات أحد بخلاف العربية ، فانها عادة لقوم لا تعرف الا بالسماع وقوانينها لا تعرف الا بالاستقراء بخلاف ما به يعرف مقادير المكيلات والموزونات والمزروعات والمعدودات ، فانها تفتقر الى ذلك غالباً ولكن تعيين ما به يكال ويوزن بقدر مخصوص ، أمر عادي كعادة الناس في اللغات وجماهير العقلاء من جميع الامم يعرفون الحقائق من غير تعلم منهم بوضع أرسطو وهم اذا تدبروا وجدوا أنفسهم تعلم حقائق الاشياء بدون هذه الصناعة الوضعية ».

- ٧ -

لابن تيمية بحث مستفيض عن العروبة والاسلام ، يذكر فيه فضل العرب ويرى أن هذا الفضل ليس قاصراً لما ورد عنهم من نصوص في القرآن والحديث فحسب ، أو مـــا خصوا به من أحكام في الفقه ، بل لما اختصوا به من فطرة ومعدن في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم ويجعل (ابن تيمية) معرفـــة الاسلام متوقفة على معرفة لسان العرب فلا سبيـــل إلى ضبط الاسلام إلابضبط العربية واللسان العربي هوشعار الاسلام وأهله والقرآن لا يجوز عنده أن يقرأه أحد بغير العربيـــة ، فالعروبة عند ابن تيمية تثبت باللغة وبالنسب وبالوطن فمن تكلم بالعربية فهو عربي ، ومن دان بالاسلام فهـــو عربي وان فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص وهو حين يذكر دولة الاسلام يسميها : الدولة الاسلامية العربية .

وقد دعا إلى تعريب الشعوب الإسلامية وذلك بتعليمهـــا العربيـــة .

ويقول : العربية شعار الاسلام وأهله وتعلمها فرض على كل

مسلم ومسلمة إذ لا سبيل إلى فهم القرآن العربي والسنة العربية والفقه العربي إلا بتعلم لسان العرب والتعايش مع العرب والتخلق بأخلاقهم واعتياد عاداتهم .

واللغات أعظم شعائر الأمم واللغة العربية للاسلام ليست لغة فحسب ، ولكنها عقل وخلق ودين ، واعتياد لغة ما يؤثر في عقل المتحدث بها وفي خلقه وفي دينه ، وكل لغة لا تنقل إلى عارفها ألفاظها ، وصيغ الكلام بها ، ولكنها تنقل اليه عادات أهلها وأخلاقهم وعقليتهم وطرائق تفكيرهم ودينهم مع كل ذلك ، وعنده أن إتمام مكارم الاخلاق إنما هو بالعرب وبصالح عاداتهم لا بأخلاق غيرهم من الأمم التي استوفت أغراضها ، فكل الشعوب غير العربية قبل الاسلام قد اخترقت خامات الإسلام فيها فالفراعنة فلسفة مؤلهة للبشر واليونان خرافات وفارس الانحلال المعجوز ، وروما فلسفة الطغيان والهند الوثنية المتوارثة ، وهذا معنى قول رسول الله :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » [1] .

---

(١) راجع بحث الاستاذ محمد المنتصر الكتاني : مجلة حضارة الاسلام ١٩٦١ .

- ٨ -

ولد أحمد تقي الدين بن تيمية في حران الواقعة بين دجلة والفرات عام ٦٦١ ، واضطر والده ان يهاجر به وباخوته من حران إلى دمشق هرباً من التتار فلما بلغوا دمشق أقاموا بها وبها تفتح ابن تيمية على الفكر والعلم ، وقد بلغ في تحصيل العلوم قدراً فقد كان قوي الذكاء جيد الحفظ .

وقد كان ابن تيمية مهيباً أبيض اللون أسود شعر الرأس واللحية ربعة في الرجال بعيد ما بين المنكبين جهير الصوت فصيحاً واسع العينين كأنما هما لسانان ناطقان .

عاش حياة جهاد الفكر وجهاد التتار حتى توفي في ٢٠ ذي القعدة ٧٢٨ عن نيف وستين عاماً خصبة عريضة تركت في الفكر الاسلامي آثاراً حية قوية جددت هذا الفكر واتاحت له التفتح مرة أخرى إلى عالم الحياة والتطور والاجتهاد على تلك السنة المعروفة التي تتيح لهذا الفكر دوماً مقاومة التحدي والقدرة على مقاومة عوامل الضغط والتحريف .

ويعد (ابن تيمية) واحداً من اولئك الاعلام الافـذاذ من مجددي المفاهيم الذين جاءوا على فترات على امتداد الفكر الاسلامي فاحيوا مفاهيم الاسلام وجددوها ، ولعـل أروع مثل لفكره يتمثل في قوله : « ان الفساد لم يأت من قبل النصوص فهي حق في معناها ، ولا يحتاج إلى تأويل وانما جـاء من حملها على معاني فاسدة ليست معانيها المرادة بها » .

لقد كان استجابة حقة لتلك الازمـة التي واجهت الفكر الاسلامي وتواجهه دائماً حين يقوم من يدعو إلى رأي منحرف فيستغل النصوص ويلوي أعناقها محاولاً استغلالها والاسلام بعد ذلك سمح رحب سائر بالحياة متصل بها مفتوح الافاق على الفكر الانساني كله يأخذ منه ويترك ويعطي له في حالات الامتصاص والاقتباس وما تزال آثار مثل ابن تيمية تهدي المصلحين والمجددين والمجتهدين ، ولعل ابرز التحديات التي واجهت ابن تيمية : ذلك الانحراف الذي أصاب « عقيدة التوحيد » وانحدر اليها من مفاهيم أخرجتها عن سماحتها وبساطتها بمـا ادخل اليها من مبادىء الباطنية وافعال القرامطة وآراء مزدك وماني وابن سبأ ، ويتصل بهذا مسألة تأويل النصوص ومحاولة تأليه البشر ومذاهب أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود .

ولقد نقد ابن تيمية الفلسفة باشد مما نقدها الغزالي وأبطل كل قضاياها ورد على المعتزلة في نفي الصفات وخلق الأفعـال

وحارب أصحاب التصوف الفلسفي ونقد المذاهب الفلسفية لا من جهة مخالفتها للدين فحسب بل من جهة مخالفتها لصريح العقل ، وعنده ان صريح العقل لا يناقض صريح النقل بحال .

وفي التصوف هاجم ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض ورأى في مذهبهم أعظم الخطر على التوحيد ودعا إلى الايمان بوجود اله خالق للعالم منفصل عنه كما أنكر عليهم ما يدعونه من شهود الحقيقة الكونية ، ذريعة منهم إلى ابطال التكاليف الشرعية .

وفي نفس الوقت يقر « ابن تيمية » التصوف السني القائم على الزهد والورع ومحاسبة النفس ومراقبتها عند كل قول وعمل ، وأخذها بالمجاهدة المشروعة ولكنه ينكر عليهم الشارات والاصطلاحات في التزام زي معين أو نظام خاص في المطعم أو تحريم ما أحله الله .

وكشف ابن تيمية ما في التصوف من دعاوى وتلبيسات وبيّن براءة الاسلام منها .



اما شخصية ابن تيمية وشمائله فآية الآيات في الرجولة والبطولة والوفاء .

يقول الذهبي : لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت ما رأيت

بعيني مثله ، وان له خبرة تامة بالرجـــال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث وبالعالي والنـازل والصحيح والسقيم ، مع حفظه لمتونه فلا يبلغ أحـد في العصر رتبته أو يقاربه وله في استحضار الآيات من القرآن وقت اقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة ويقول : لقد نصر السنة والطريقـة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات لم يسبق إليهـــا واطلق عبارات احجم عنها الاولون والاخرون وحاربوها ، ولا يعرف انه ناظر احدا فانقطع معه ولا تكلم في علم من العلوم (الشرع وغيرها) إلافاق أهله ، ولم يعرف تاريخ الاسلام لساناً أحدّ منه على خصوم الاسلام » .

وقد كان نادرة زمانه في قوة حافظته وآية ذلك رسائله التي الفها وهو في السجن أو في الطريق بعيداً عن المراجع والمصادر.

وحدث عن نفسه بأنه ليقف خاطره في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل عليه فيستغفر الله تعـالى حتى ينشرح صدره ويتجلى اشكال ما اشكل .

وقيل : انه سئل مرة نظماً في لغز عن الاسد فاجاب حالاً بقصيدة له من مائة بيت او تزيد عن هذا اللغز .

وقد بلغ ما كتبه في التفسير نحواً من ثلاثين مجلدا ضاع أغلبه في خلال اضطهاده اذ كانوا يبحثون عنه ليحرقوه ، ولما حبس تفرق اتباعه وتفرقت كتبه .

وقال عن نفسه: ربما طالعت على الآية الواحدة مائـة تفسير ثم أسال الله الفهم وأقول: يا معلم آدم وابراهيم علمـني، وكنت اذهب الى المساجـــد المهجورة ونحوها فامرغ وجهي في التراب سائلا الله ان يعلمني.

وكان سخياً كريمـاً إذا اتاه طالب حاجـة سارع الى قضائها وكان شديد الايثار مع فقره فقد كان يتصدق حتى اذا لم يجـــد شيئاً نزع ثيابه فوصل بها الفقراء، ويستفضل عن قوته الرغيف والرغيفين وقال صفي الدين البخاري: اما ورعه فكان من الغاية التي لا ينتهـى اليها من الورع فما خالط الناس في بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا كان ناظراً أو مباشراً لمـال، ولا تقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان أو أمير أو تاجر ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهماً ولا متاعـــاً ولا طعاماً. ولا زاحم في طلب الرياسات ولا رؤي ساعيـــاً في تحصيل المباحات مع ان الملوك والامراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره خاضعـــين لقوله. وقـــال الحافظ ابن فضل الله العمري انه كانت تأتيه القناطـير المقنطرة من الذهب والفضة فيهب ذلك بأجمعه ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه ولا يأخـــذ منه شيئاً الا ليهبه ولا يحفظه الا ليذهبـــه.

ولقد كان ابن تيمية نسيج وحده في الخلق، من ذلك الصنف الذي لا يؤمن بالمجاملة في سبيل الحق الذي يعتقـده بل كان يقول

رأيه في صراحة وجراءة دون أن يبالي غضب الناس أو الحكام أو العلماء ، وقد أتعب الجند وحير الفقهاء والفه السجانون. وقد عرف باعراضه عن طلب الرياسات ولم يقبل أن يكون ظلاً لأمير أو سلطان ، بل لقد ظل حياته يرفض اعطياتهم .

ولقد أغرى به خصومه العامة والرعاع بالضرب والايــذاء واغروا به الحكام والامراء فكان يقضــي في سماحــــة وخلق، ويعفو ، ولمـــا جاءت الظروف بتولي انصاره رفض ان ينكل بخصومه حتى قال احدهم : ما رأينا أعفى من ابن تيمية ، لم نبق ممكناً في السعي عليه ، وحين قدر علينا بادر بالعفو.

وكانت شخصيته صابرة برزة متصدرة قويـــة المعارضة في مجالسها ومماركها ، فلطالما قارع الاحداث والد سائس وخرج منها سالماً،وكان يعقد المجالس لامتحان عقيدته فيمر منها الى الحرية أو الى السجن،ولمـــا خرج من السجن ودعاه السلطان اليه في محفل كبير كان يقول لكل من خاصمه ويتقدم ليعتذر اليه، كلمة واحدة.

(أنا حاللت كل من آذاني)

وقد عاش ابن تيمية حياته في سبيل خدمة أهداف كبـيرة أهمهـــا :

١ — حرر العقيدة الاسلاميــة وجردها مما حاول خصومها إضافته اليها .

٢ – حارب أعداء الاسلام بالسيف وركب فرسه وقاتل.

٣ – أحيا روح الجهاد في الاسلام وعلم الفقهاء حرب السهام والمقاتلة.

٤ – فتح باب الاجتهاد في الفروع.

٥ – أصلح التصوف وحرره من الوثنيات ورده إلى مفهوم الرسول.

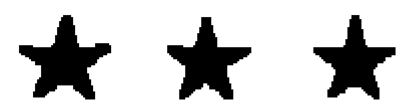
٦ – أصلح سياسة الملك برسالة (السياسة الشرعية في الراعي والرعية).

٧ – حارب البدع الضالة والانحراف في السلوك.

٨ – سد باب التأويل في النصوص.

٩ – أنكر زيارة القبور والاستعانة بأصحابها في قضاء الحاجات.

١٠ – مزق منطق أرسطو وكشف للمسلمين عن منطق مستمد من القرآن نفسه.



ولا شك ان ابن تيمية كان رجلاً وانساناً ممتازاً ، كان عالماً قوي الحجة وفارساً يصول كأعظم المجاهدين، لا يؤمن بأساليب السياسة في العلم ، ولا يتوانى عن قول الحق دون مواربة ، وقد

مات في محبسه، وفي نهاية حياته ختم القرآن في سجنه ثمانين ختمة ودخل في الحادية والثمانين واسلم الروح وهو يتلو :

«ان المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر»

فلما مات شيعه الناس زمراً وحضر دفنه مائة الف وخمسة عشر الف امرأة فيما ترويه الاثار وكسر العامة اعواد نعشه ودفن في مقابر الصوفية ويقال أنه ترك خمسمائة مؤلف أهمها : الفتاوي: فتاوي ابن تيمية، والعقيدة الواسطية والعقيدة الحمدية الكبرى والسياسة الشرعية ومجموعة تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية (طبع الهند ١٩٥٤).

توفي ٧٢٨ هـ - ١٣٢٨م

التجديد في الاسلام : عبد المتعال الصعيدي
ابن تيمية : دكتور محمد يوسف موسى
منادمة الماضي : أحمد رمزي

ابن خلدون

عبد الرحمن بن محمـــد

٧٣٢ – ٨٠٨ هـ

منشىء علمي الاجتماع والتاريخ

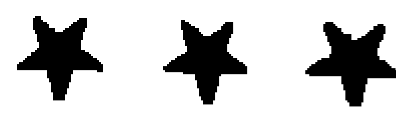
« انشأت في التاريـخ كتابـــاً وابديت فيه لاوليـة الدول والعمران عللا واسباباً وسلكت في ترتيبه وتبويبـــه مسلكاً غريباً واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً وطريقة مبتدعة .»

ابن خلدون

ابن خلدون

- ١ -

رسم «المقريزي» لابن خلدون في ترجمته التي كشف عنها في الاعوام الاخيرة صورة جديرة بالتسجيل قال: [الرجل الفاضل، جـــم الفضل، باهر الخصل، رفيـع القدر، ظاهر الحيـــا، اصيل المجد، وقور المجلس، خاص الزي، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب العادة، قوي الجأش، طامح لقنن الرياسة، خاطب للخط، متقدم في الفنون العقلية والنقلية، متعدد المزايا، شديد البحث، كثـير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، مغرى بالتجلة، جواد، حسن العشرة، مبذول المشاركــة، مقيم لرسم التعيين، عاكف على رعي ظلل الاصالة، مفخر من مفاخر التخوم المغربية.] (١)



(١) مما أورده الدكتور محمود الجليلي عن كتاب المقريزي: (دور العقود الفريدة م ١٣ (مجلــة المجمع العراقي)

ومن الحق ان ابن خلدون شخصية رائعة تحس حين تتصل بها عن قرب (وهج العبقرية) وقد ادرج في أكثر من قائمة، وعد في أكثر من ثبت من اثبات العلوم، فهو واحد من العباقرة العشرة في الاسلام: وهو واحد من المطوفين في الارض: الغزالي والشافعي والبخاري وابن خلدون، وهو في حساب الفلاسفة فيلسوف، وبين المؤرخين، منشيء علم التاريخ وعند البلغاء كاتب تحرير، وهو واحد من اولئك الطامحين الذين ضاقت نفوسهم بمطامحهم، واحسوا أنهم لم يصلوا الى المنزلة التي هم اهل لها، أو التي يستحقونها، فعاش حياته شريداً، غريباً، يلمع اسمه في انحاء العالم الاسلامي لمعان النجم، ولكنه يرى نفسه دون ما يريد، فقد عاش حياته مهاجراً يتنقل من مكان الى مكان، وحينما يذهب يلحق به الحساد، ويكيد له الخصوم، وقد امتحن بفقدان أهله الذين هاجروا ليلحقوا به في مصر فغرقوا في اليم، ومات هو غريباً في القاهرة بين سياحة طويلة من اشبيلية الى المغرب الى الحجاز والشام.

وفي خلال حياته، رأى الاهوال، من أنباء الدول تقوم وتزول، ورأى (تيمور لنك) المغولي يجتاح الشام، وتبدو الاسباني يتأهب للوثوب الى غرناطة آخر معاقل الاسلام في الاندلس.

التقى بعشرات الملوك والسلاطين، وعمل معهم، وفيهم من عرض عليه الاقامة فاقام، وفيهم من قلب له ظهر المجن فمضى

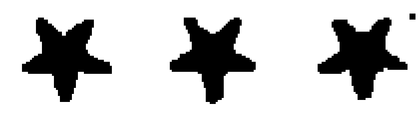
في سواد الليل ، ولكم افسدت المؤامرات السياسية ما بينه وبين اصحابه،وامتحن كما امتحن كل العباقرة الطامحين ورجال الفكر والسياسة بخصومات واحقادكانت تدفع بهم الى الهجرة والنفـــي والاغتراب.

ولكن نفس ابن خلدون المتطلعة الى الصدارة والجد لم تركن الى ضيم، ولم تقبل الاقامة في الذل فتركت الاندلس الى المغرب، وتركت المغرب الى المشرق .

كان ابن خلدون موضع رعايــة السلطان ابو عنان المريـــني صاحب تلمسان فاحقد أقرانه ، فسعوا بينه وبين الامير بالوشاية ، واتهموه بالتآمر على حياة السلطان فاعتقل وظل سجيناً الى أن مات أبو عنان الذي كان قد أمر بقتله ثم اكتفى بأن أنزله المطبق عامين طويلين، عانى فيهما ما لاحد له من المتاعب،ثم عمل مع السلطان أبي سالم المريــني ، وكان كاتب سره، وما لبثت الوشايات أن أفسدت ما بينه وبين الامير فانقبض عن ابن خلدون .

وارتحل ابن خلدون الى الاندلس، وقصد ابا عبد الله سلطان غرناطة فأكرمه وقربه ، ثم رحل الى قشتالة ، وعاد الى غرناطة حيث اقطعه أبو عبدالله بلدا وصيره من الامراء ، ولكن انــى لابن خلدون ان يستقر، فقد سافر الى بجاية، حيث قلده سلطانها أعمال دولته واسند اليه رئاسة الحكومة ، فظل في خدمته الى ان اجتاح (بجايــة) أمير قسنطينة الذي استبقــى ابن خلدون واكرمه .

وفي تلمسان استقر ابن خلدون أربع سنوات وضع خلالها مقدمته. ولكن نزعة الترحال دفعته الى السفر الى مسقط رأسه (تونس) حيث قضى وقتاً في رعاية سلطانها، ولكن الوشايات مضت تطارده ، فنزح الى مصر ، حيث استقر بها ، عقد حلقته في الازهر وقرأ الفقه على مذهب مالك، واتصل بالسلطان برقوق الذي أكرمه وولاه قضاء المالكية ، وسافر الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ولما عاد الى مصر شغل نفسه بكتابة تاريخه المعروف حتى أتمه وقد أمضى في تأليفه خمسة عشر عاماً.



وذلك موجز يسير لحياة عريضة خصبة عاشها ابن خلدون في محيط السعايات والوشايات ، وكان لتنقله بين الممالك وارتحاله، والدسائس والمكايد التي عاناها من الحكام والملوك وممارسته شؤون الدول ، وما أفاد من هذه التجارب وما اكتشف من دخائل السياسة ومؤامرات القصور ما اعانه على استيفاء بحثه التاريخي .

عاصر ابن خلدون الاحداث في دولة المرابطين والموحدين وإمارات بني حفص وبني مرين وبني عبد الواد وقطع الهضاب والصحارى متغلغلاً بين القبائل دارساً طبائع المجتمع واحواله ، مطالعاً باحثاً مسجلاً الطبائع والنظم وقد تملكه حلم كبير ، هو كتابة منهج للتاريخ على نحو جديد. وفي خلوته في تلمسان كتب

المقدمة ، قال « واكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اهتديت اليه في تلك الخلوة ، فسالت شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتخضت زبدتها ، وتآلفت نتائجها ».

ومن العجيب أنه أتمها في خمسة شهور ، فلما رحل إلى تونس، أتم فصول [كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر].

وقد سجل ابن خلدون وقائع حياته في ترجمة ضافية تعطي صورة لشخصية ممتازة مليئة بالزهو والكبرياء والرغبة في العلاء، وتكشف عن جانبه السياسي المليء بالطموح والجراءة والمغامرة، وفيه إلى ذلك كله الذكاء والدهاء وبعد النظر. فقد ولد(ولي الله عبد الرحمن بن خلدون) من أسرة أندلسية توطنت أشبيلية ونزح مع أجداده إلى تونس ، وقد تكون عقلياً في [الزيتونة] على الطريقة التي تكون بها أمثاله وهي التي تقيم الرتبة العقلية على ثلاث قواعد متوازية : الدين الاسلامي والادب العربي والفلسفة الاسلامية .

ويمكن القول أن ابن خلدون كونته عوامل الثقافة والبيئة والتجربة ، وكشفت له تلك الجوانب التي استفاضت في مقدمته، وكان لطابع المغامرة الواضح في شخصيته ، هذا الطابع الذي عرفت به قبيلته[كندة]هو الذى كلفه مالقي من سجن وتشريد وهو فتى لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره .

ويعد حادث غرق أسرته في البحر من أقسى حوادث حياته ، فقد وقع وهو في سن الستين ، بعد أن رقت الاعصاب، وارتفع السن ، وقد كشف مؤرخوه كيف حاول أن يخفف من أثره النفسي فسافر إلى الحجاز ، وعاد ليدفن همومه في ذلك العمل الشاق الذي كان قد بدأه من قبل فامضى ثمانية أعوام كاملة منصرفاً بكليته اليه ، وفي هذه الفترة هجر الناس ومجالس الامراء .

وقد روى (المقريزي) تلميذ (ابن خلدون) كيف أن حادثا آخر كان له أثره على فكر ابن خلدون وأحكامه ، وذلك عندما استدعاه السلطان عبد العزيز ملك المغرب وهو مقيم في (بسكرة)فارتحل بالأهل والولد عام ٧٧٤ ، فما أن وصل(مليانة) من أعمال المغرب الاوسط حتى لقيه خبر وفاته ، فلما أراد العودة أوعز السلطان أبو حمو إلى شيوخ عبيد الله أن يعترضوه على حدود بلادهم من رأس العين ، فانتهبوا جميع ما كان معهم ، وأرجلوا الكثير من الفرسان وكان فيهم وبقي يومين في قفرة « ضاحيا عاريا » إلى أن خلص إلى العمران ولحق بأصحابه ، وهذه الحادثة كما رواها ابن خلدون في ترجمته ، يشير إليها المقريزي ويروي أنها أصابته بمرض المفاصل ، وان هذا المرض ظل ينتابه بقية حياته . ويعلق الدكتور محمود الخليلي على هذا الامر فيقول « يظهر أنه عندما كان يشتد الالم على ابن خلدون كان يقسو في عبارته وأحكامه على الذين كانوا سبباً مباشراً في

إصابته بهذا المرض ، وربما نجـــد من مرض ابن خلدون تعليلاً لقسوته على العرب (وهو يقصـــد بهـم الاعراب) وهم الذين هاجموه في الطريق ونهبوا ما معه [١].

ويعد وصول ابن خلدون إلى مصر من أبرز وقائع حياته فقد كتب عنه يقول :

«فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الامم ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام وكرســـي الملك تلوح القصور والدواوين من وجوه، وتزهو الحدائـــق والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علبائه، قد مثل بشاطىء النيل نهر، ومدفع مياه السماء يسقيهم العلل والنهل سيحه، ويجني اليهم الثمرات والخيرات ثبجه ، ومررت في سلك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم».

ومن أبرز وقائـــع حياته : مقابلته لتيمورلنك الذي انقض بجيوشه على الشام واستولى على حلب بعد السفك والتخريب ، ثم اخترق الشام جنوباً إلى دمشق ، وقد هرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التتري ومعه جمهرة من الفقهاء والعلمـاء في المدرسة العادلية ، وكان ابن خلدون من بين من رافقوا الناصر.

---

(١) نفس المصدر

ولم يدع ابن خلدون حبه للمغامرة وهو في سن السبعين ، فانه نزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل حيث قصد إلى معسكر الفاتح بجراءة . وقد سأله الفاتح عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه وطلب اليه أن يكتب له رسالة في وصف المغرب فأعدها في اثنتي عشرة كراسة .

وعندما غادر ابن خلدون دمشق عائداً إلى القاهرة دهمه اللصوص فسلبوه ماله ومتاعه .

- ٢ -

كان ظهور ابن خلدون في القرن الثامن الهجري علامة على ذلك الاتصال الدائم الذي لا ينقطع بين حلقات المصلحين والمفكرين ومصححي المفاهيم في الفكر الاسلامي فهو حلقة اخرى لها طابعها واتجاهها بعد « ابن تيمية » وهو عصارة لكل هذه المستخلصات التي حققها ابن حزم والغزالي وابن تيمية ، وان بدت على نحو جديد في صورة « المقدمة ».

وليس ابن خلدون مؤرخاً فحسب أو صانعاً لعلم التاريخ وحده ، ولكنه واحد من المصلحين الذين يحملون نظرة متكاملة ومتجددة للفكر الاسلامي كله . وهي نظرة عميقة غاية العمق جاءت على أثر وقائع واضحة في تاريخ الاسلام أبرزها : سقوط بغداد في أيدي التتار عام ٦٥٦ هـ. وغلبة الفرنجة على أجزاء كبيرة من الاندلس وظهور دولتي المرابطين والموحدين ثم ضعفها. ثم تصدع كثير من جوانب القوة في المجتمع الاسلامي مما شاهده ابن خلدون وعاشه فعلاً ، فهي عصارة تجربتين : تجربة

التاريخ نفسه وتجربة ابن خلدون في داخل هذه المرحلة التي عاشها بين كواليس السياسة وبلاطات الامراء.

فقد وجد ابن خلدون نفسه ذات يوم وكان ذلك في سن الاربعين. وقد اعتكف في قلعة ابن سلامة يراجع نفسه ويراجع التاريخ ويلقي نظرة فاحصة على « أزمة » العالم الاسلامي باحثاً عن أسبابها وعواملها، فقد استطاع بحق أن يكشف هذه الازمة وأن يطب لها على النحو الذي فعله تماماً أمثاله وسابقوه ، وإن بدا ذلك في نطاق بحث علمي خالص له طابع الدراسة التاريخية الصرفة .

وإذا كان ابن تيمية وجد منطلقه في تحرير الفكر الاسلامي من منطق اليونان أو أن الغزالي قد وجد منطلقه في المزج بين الفقه والتصوف فإن ابن خلدون قد وجد منطلقه من ناحية صياغة (فلسفة للتاريخ) تقوم على تعليل الوقائع الكبرى واستخلاص فهم واضح فيها يصلح لفهم التطور والحركة على الطريق الطويل للتاريخ يمكن أن تلتمس معه العبرة ، وتعرف أسباب النصر وأسباب الهزيمة ،وعوامل التقدم وعوامل التخلف. ومن عجب أن هذا المعنى لم ينتبه اليه الا قليل من الباحثين ، الذين حاولوا أن يتصوروا ابن خلدون وقد خرج على مفهوم الاسلام في تعليله للأشياء أو في منهجه الذي جمع بين العقل والقلب ، فقد حاول الكتاب الغربيون الذين أشادوا بابن خلدون أن يصوروه وقد وأد مفهوم « النقل » أو مفهوم الدين ، وان كل

ما جاء به في تضاعيف البحث من اشارات إلى هذا المعنى انما كانت على حد قولهم محاولة لتغطية آرائه الحقيقية وحتى لا يثير عليه ثائرة العلماء .

وقد أخطأ هؤلاء جميعاً في فهم ابن خلدون وفي فهم منطلق الفكر الاسلامي الجامع بين العقل والقلب ، ولم يكونوا يدرون أن ما قرره ابن خلدون ليس جديداً ولكنه هو مفهوم الاسلام الاصيل للمعرفة والجامع بين عنصر الدين وعنصر العقل ، وان ابن خلدون ليس هو صانع هذا المنهج ولكنه مجدد له ومبشر به ، كما فعل ابن حزم والغزالي وابن تيمية من قبل ، وان ابن خلدون حين أعلى من شأن العقل ودعا اليه لم يفترض وجوده بمفرده ، ولم يعله على مفهوم (التكامل والتوازن الاسلامي) الذي يجمع بين العقل والنقل ، وبين العقل والوحي ، أو بين العقل والدين على حد تعبير الكتاب الغربيين .

ويمكن القول أن ابن خلدون قد تنبه حقيقة إلى مصدر « الازمة الحقيقية » وهي غلبة التقليد ومن هنا صح ما قيل من أن « المقدمة » كانت (صيحة عالية أعلنت عن تصدع هيكل من المعرفة أخنى عليه التقليد) هذا حق ، ولكن ابن خلدون لم يذهب إلى النحو الذي يفترضه المعجبون به من الغربيين ، لم يذهب إلى ماذهبوا اليه هم من انكار المفهوم الروحي أو الديني ولكنه عدّل منطلق المفهوم العلمي واسلوب المعرفة واعاده الى

اصالته وطبيعته حين أعلى شأن العقل الذي كان قد ضعف ، ووازن بينه وبين القلب .

والمراجع الدقيق لآراء ابن خلدون ومفاهيمه لا يراها جديدة في الفكر الاسلامي الا من حيث اعادة صياغتها وتشكيلها على النحو الذي يحقق الانبعاث الصحيح. ولما كانت مقدمة ابن خلدون هي تقريباً آخر الاعمال الفكرية الضخمة ،قبيل النهضة الاوربية فقد كان لظهورها في الغرب – بهذه الصورة الجامعة التي تحمل طابع التكامل والوسطية إبان تطلع المفكرين الاوربيين الى مفاهيم الحرية والعدالة التي غذى الاسلام بها الثقافة الغربية – هو الذي اعطاها هذه الاهمية الكبرى .

ومن الحق أن يقال أن كل افكار المقدمة هي افكار الاسلام، وان كثيرا منها سواء في المضمون العلمي او المنهج التاريخي قد سبق ابن خلدون اليه ولكن مزية ابن خلدون الرائعة هي قدرته على هضم هذه الاجتهادات الموزعة بين عديد من مفكري الاسلام على مختلف القرون السبعة المتكاملة في المقدمة والتي تمثل [ايديولوجيا] فكرية كاملة لمنهج إجتماعي اسلامي صالح للتطبيق .

ويقيم ابن خلدون منهجه على قاعدة ثابتة من ارتباط الدين بالمجتمع ارتباطاً كاملاً ، بل انه يذهب إلى تقرير حقيقة بالغة الاهمية قد صدقتها الاحداث حين قالها وما تزال تصدقها ، وهي ان العرب لا تقوم لهم نهضة إلا بزعامة دينية وان ما اصابهم من

اضطراب وتفكك انما يرجـــع الى انهم تركوا مفهوم الاسلام الصحيح، هـــذا المفهوم هو ما أعلن عنه ابن خلدون وعززه بالدراسة وهو الانطلاق من نقطـــة التعليل ، ودراسة نواميس الكون ومعرفة ان لكل شيء قانوناً يحكمه،وما وصل اليه ابن خلدون في هذا، لم يكن من دراسة لحضارة سابقة أو من ابداعه العقـلي الخالص وانما كان نتيجة فهم عميق للاسلام والقرآن ومتابعة وموالاة للمفاهيم التي سبقه بها المفكرون المسلمون.

لقد حرر ابن خلدون ذهنه من القيود الفكرية التي تتعلق بالجمود والجبرية ولكنه لم يحرر ذهنه من الاسلام ، بل انه حرر ذهنه من هذه القيود ليكون اصدق تعليلا لمفهوم الاسلام الذي يدعو اساسا الى التحرير من الجمود والجبريـــة ويعطي منطلق الحرية والمسؤولية .

وآيـة ارتباط ابن خلدون بمفاهيم الاسلام هو ذلك الترابط الواضح في فكره وآرائه بين الدين والدولة وانهما اصلان في الاسلام لا ينفصلان .

كذلك قوله بأن خاصة الاستبداد هي علامة من علامـات سقوط الدولة .

وآية ذلك الترابط الحقيقـــي بين عقل بن خلدون ومنطلق فكره وبين الاسلام : موقفه الواضح من أشياء كثيرة اهمهـــا بحثه عن ابطال الفلسفـــة وفساد منتحليها وهو لا يعني بالطبع

الفلسفة بمفهومها العام (الطبيعية والرياضية) وانما يعني الفلسفة الميتافيزيقية اليونانية وهو في هـــذا اقرب جـــداً من مفاهيم الغزالي ، فقد رد على ارسطو والفارابي وابن سينـــا وابن رشد ومن تابعهم وخلص الى افساد وجهات نظرهم ومخالفتهم لظواهر الشريعة وقال انه ليس لبحوثهم في نظره الا ثمرة واحدة هـــي شحذ الذهن في ترتيب الادلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهـــين » وهو يرى ان هذا النوع من الفلسفة مخالف للشريعة الاسلامية وهو ضرر على العقيدة وبالجملة فقد دعا الى تناول الفلسفة بحذر .

ومن ناحية أخرى أدرك فساد ما ظهر في عصره وفي العصر السابق له من اضطراب في مناهـــج التعليم والتربيـــة وخاصة ما عرف بالجمع والاختصار والحفـــظ ، ولذلك فقد شن حرباً شديدة على الطريقة التقليدية الاعجمية في التأليف ، ودعا إلى اسلوب الاسلام الذي طبق في عصوره الاولى ، وكشف عن أن المختصرات المؤلفة في العلوم وغيرها ضارة وانكر على المتأخرين ما اولعوا به من وضع مختصر لكل علم ، واعتبر ان هذا مرض من امراض المسلمين الخطيرة البعيدة الأثر في تأخرهم .

وهاجم اسلوب القهر في التربية والتعليم وحمله مسؤوليـــة التأخر والتخلف ، وأبان عن انه يؤدي الى الكسل وحمل النفس على الكذب والخبث ، والتظاهر بغير ما في الضمير .

- ٣ -

كان أبرز ما توصل اليه (ابن خلدون) انــــه اكتشف (منهج التاريخ) ، (ومنهج الحضارة) ، (ومنهج المجتمع) ، هذه النظرة الفاحصة الى الاحداث لاستخلاص قوانــــين لها ، والفهم لصحيح التاريخ وخطئه .

فقد استعرض الاساطير التي قبلها المؤرخون السابقون واعلن عن خطئها بعد أن عرضها على قانونين :

قانون العقل وقانون النواميس الاجتماعية والسنن الطبيعيــة للكون .

ومعنى هـــذا أنه تجرد من عمله كمؤرخ وذلك بإلقاء نظرة فاحصة على وقائع التاريخ فاحصاً اياها وناقداً لها .

وقد كان عمله هذا خطوة اكثر دقــــة وامتيازاً بالنسبة لمن سبقه من المؤرخين كالطبري والمسعودي وابن الاثير واقام فهمه للتاريخ على نظرية واضحة قوامها [ربط اعمال البشر بنواميس كيانهم واحوال حياتهم واوضاع مجتمعهم]

واقام منهجه العلمـــي على أساس [ان الحوادث التي تقع في المجتمع البشري تقـدم لنا خصائص ذات طبيعة خاصة ، وهـي خصائص يجب ان يحسب حسابها حينما نقوم بسرد الحوادث او نقل السير والآثار التي تتعلق بالاجيال الماضية]

وقد علل ابن خلدون خطأ المؤرخين السابقـين في استكناه الاحداث ورده الى عاملين :

(الاول) : جهلهم بطبائع العمران واحوال الناس .

(الثاني) : تشيع المؤلفيـــن وتصديقهم لكل ما يروى لهم دون فحصه .

وقد وضع قوانين اساسية لكتابة التاريخ قوامها :

(اولا) ــ ربـــط الحوادث بعضها ببعض ارتباط العـلة بالمعلول

(ثانياً) ــ قياس الماضي بقياس الحاضر .

(ثالثاً) ــ مراعـاة البيئـــة واختلاف تأثـيرها باختلاف الاقـــاليم .

(رابعاً) ــ تقدير الحـــالة الوراثية والاقتصاديـة وما شابه ذلـــك .

وابرز مفاهيم ابن خلدون في نقد التاريخ يقوم على قواعـد اساسية اهمها « العقل » فما هي حدود مهمة العقل :

«يرى» ان الانسان يستطيع ان يستنبط سنة الله في خلقه بقوة العقل، ويرى ان نطاق مدركات العقل محدد بحدود طبيعية لا سبيل إلى اجتيازها بالمحاكات النظرية وحدها، اذ العقل البشري عاجز عن ادراك ما يقع وراء المحسوسات من امور التوحيد ومسائل المعاد وحقائق صفات الله وسائر الامور الروحية

وقد أشار ابن خلدون الى اهمية عمله فقال : [أنشأت في التاريخ كتاباً وابديت فيه لأولية الدول والعمران عللا واسبابا وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً واخترعته من بين المناحي مذهباً عجيباً وطريقة مبتدعة واسلوباً وشرحت من احوال العمران والتمدن ما يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها ويعرفك كيف دخل اهل الدول من ابوابها حتى تنزع من التقليد يدك وتقف على احوال ما قبلك من الايام والاجيال وما بعدك] وواضح من عرض ابن خلدون — هذا — انه ارتفع على مستوى عصره، وخرج من نطاق التقليد، ونظر نظرة واقعية لرجل سما عقله عن مجتمعه، وزادته التجارب خبرة، واعطته طبيعته المتصدرة، وقراءته لاعلام الاجتهاد وتصحيح المفاهيم، مزيداً من فهم « أزمة عصره » فتناولها على طريقته : طريقة السياسي والمؤرخ والرجل الذي عايش تجارب البلاطات والقصور .

وقد كان لارضيته الفقهية الاسلامية العميقة أثرها الواضح الذي حاط حرية رأيه وانطلاقته الإصلاحية من أسر التقاليد بالتحرك داخل إطار مفهوم الاسلام الواسع السمح ، القادر على ان يعطي الحركة والنهضة واليقظة دون ان يحوج الباحث ان يخرج مضامينه حيث لا حاجة ، بل ان ابن خلدون قد اقتنع تماماً واقنع قراءه بأن مصدر التخلف والازمة انما كانت في خروج المسلمين عن اطار الاسلام وعن مضامينه في الجهاد والاجتهاد والقوة والعدل .

وقد اعتبر ابن خلدون بوابة التاريخ هي منطلقه إلى النهضة وكسر الجمود وبناء منهج الاصلاح ولذلك فقد رسم المنهج العلمي في كتابة التاريخ وحدده في نقاط واضحة :

(١) تجرد المؤرخ من التشيع لمن يؤرخ له، فان التشيع يخفي الحقيقة الواقعة ويصم الابحاث بالتحيز الذي ينافي العلم ، ولذلك كانت دعوته الى « التجرد التام ».

(٢) التثبت والتدقيق في الاخبار المروية ، وعدم الاسراع في التصديق لكل ما قاله الرواة والمؤرخون ، ويجب على المؤرخ اساساً ان يتناول الرواة بالتخريج واخبارهم بالتعديل ، وان يبحث في أخلاقهم وثقة الناس بهم والا يمنحهم ثقته الا بعد التيقن.

(٣) رد اسباب الخطأ في التاريخ الى الجهل بالطبائع الاجتماعية والعمران .

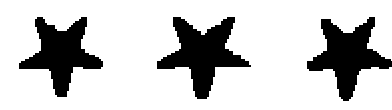
(٤) عدم قصر التاريخ على الاخبار السياسية والحربية ، أو وقفه على اخبار الملوك والدول ، وانما يشمل جميع الحالات الاجتماعية والدينية والادبية والاقتصادية والنظم والعلوم والمؤسسات .

(٥) اقر ثلاثة قوانين للمؤرخ :

(١) العلية او السببية (ومداره ربط الاسباب بمسبباتها)

(٢) التشابه في المجتمعات البشرية حيث يشبه ابن خلدون الهيئة الاجتماعية بالفرد من حيث الطبائع والتطور والنمو، وعنده ان الامة تنمو وتزدهر وتهرم وتزول .

(٣) ان الامم جميعاً مبنية في أخلاقها وعاداتها على نظام التقليد ، تقليد الرعية للحاكم ، وتقليد الغالب للمغلوب .



وقد دعا ابن خلدون المؤرخ إلى معرفة منوعة وحسن نظر وحيطة كبيرة، واشار الى ان كثيراً مما وقع للمؤرخين والمفسرين وائمة النقل من الاغلاط في الحكايات والوقائع وقع لاعتمادهم على مجرد النقل غثاً أو سميناً دون ان يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باسبابها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في ميدان الوهم والغلط سيما في إحصاء الاعداد من الاموال والعساكر .

ويذهب ابن خلدون إلى ان التعليل وتحديد الاسباب هو مبدأ اساسي في كتابة التاريخ ، وعنده ان هناك طريقين لنقد الاخبار ، احدهما يتجه الى الرواة ، والآخر يتجه إلى الخبر نفسه ، اما بالنسبة إلى الرواة فللتعرف على مدى ما يتمتعون به من ثقة وما يتصفون به من حرص على الصدق، اما بالنسبة للخبر نفسه فيجب تعليله ، ومعرفته من حيث صحته وخطأه ، أو تناقضه مع غيره من الاخبار الثابتة ، أو تضاربه مع النواميس الاجتماعية والقوانين الطبيعية .

يقول: «القانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة له ان ينظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ويميز ما يلحقه من الاحوال لذاته ومقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتد به ، وما لا يمكن ان يعرض له »

ويقول « إذا فعلنا ذلك كان لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه».

ومن اهم قواعد ابن خلدون ان الاحداث لا يمكن بحثها منفصلة عن تأثيرها بغيرها من الاحداث ولا ينبغي تناولها في حالة سكون ، وان التاريخ لا يحكم عوامل الطبيعة او طبائع الافراد فقط بل يرتبط بالاقتصاد واحوال المجتمعات ومشاكل الانتاج .

— ٤ —

يكاد يجمع الفلاسفة الغربيون المنصفون على انه إذا لم يكن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع فهو بلا ريب موحد علم الاجتماع . فقد ادرك ان الاجتماع يقوم على قوانين طبيعية وضرورية تعمل عملا آليا بحتاً في كل زمان ونطاق ، وقد جعل علم الاجتماع اساساً للتاريخ وأدرك ان علم الاجتماع يضم مظاهر كثيرة كعلم السياسة والاقتصاد والعلم والتعليم ويكاد ابن خلدون يجمل فلسفته الاجتماعية في هذه الاصول (١) .

أولاً — ان الاجتماع البشري لا يخلو من بداوة وحضارة وان البداوة أصل لكل حضارة ، وهي تستلزم بالطبع العصبية ، وان العصبية تستلزم الاستقلال ، وفقدانها يسبب الاضمحلال ، وان البداوة تستلزم الخشونة والنشاط ، وهما يستلزمان الغلب والاستعلاء على أهل الحضر والاندماج فيه .

---

(١) عن بحث مستفيض للمرحوم احمد الاسكندري م المجمع العلمي م ٩

ثانياً – ان نشوء الحضارة واضمحلالها لا يكون طفرة بل يقتضي انقضاء نصف قرن أو اربعين سنة على أقل تقدير حتى يكون تأثير كل قد شمل النشء والشبان والكهول ، وان تأسيس الدول أو غلبة أمة على أمة لا يكون إلا بدافع ديني أو سياسي وان غلبة أمة على أمة لا تكون إلا بدافع نتيجة ضعف المغلوبة ضعفاً لا مقاومة فيه بعصبية أو قوى أخرى معنوية .

ثالثاً – ان التغلب على الامم القوية بالعصبية أو كثرة العدد يكون بالمطاولة لا بالمناجزة وان المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وعاداته ، وان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها (من كل وجه) أسرع اليها الفناء ،وان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تحكم فيها دولة وان الحضارة في الامصار تدوم وترسخ برسوخ الدول وطول عمرها .

وجملة القول ان ابن خلدون حدد القوانين التي تحكم بنيان المجتمعات كما حدد القوانين التي تحكم كتابة التاريخ .

وأقر مفهوم التطور الاجتماعي : فقال: ان أحوال العالم والامم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وانما هو الاختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال إلى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والأمصار يقع في الآفاق والاقطار والازمنة والدول .

وقد أشار ابن خلدون في دقة وعمق إلى العلاقة بين الفرد

والمجتمع فقال ان حاجة الفرد إلى المجتمع ليست حاجة طبيعية فحسب وانما هي ضرورية أيضاً ، فالانسان لا يتمكن من البقاء إلا بالعيش مع الآخرين وهذا ما يكون المجتمع .

كما عرض المفاهيم الاقتصادية وأثرها في الاجتماع : [وأعلم انه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب ، الا ترى إلى الامصار القليلة الساكنة ، كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الانسانية وكذلك الأمصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية] .

ويرى :[أن العمران ووفوره ونفاق أسواقه انما هو بالاعمال وسعي الناس في الاعمال والمكاسب فاذا قعد الناس على المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال] . وقد حملت مثل هذه الآراء بعض الباحثين الغربيين أمثال (ايف لاكوست) ان يعد ابن خلدون من دعاة المادية التاريخية . كما نظر له آخرون على انه [علماني] النظرة في مجال التاريخ ، ولا شك ان ابن خلدون قد استقرأ أحداث التاريخ الاسلامي ووقائع المجتمع الاسلامي من خلال نظرة ثانية عميقة أصيلة هي النظرة الاسلامية فاذا كانت آراء ابن خلدون في أصالتها وبراعتها وقوتها قد لقيت تقديراً ما، فانما مرجعها أساساً إلى الاسلام نفسه الذي استقى منه ابن خلدون مفاهيمه وإلى الجذور الأولى للفكر الاسلامي المستمدة من القرآن ، ولن نجد

لابن خلدون رأياً واحداً يختلف مع هذا المنطلق الأصيل .

ومن الحق ان يقال ان (المقدمة) نظرية للحضارة ، ولكنها تقوم على مفهوم الاسلام اساساً وان وصوله إلى القوانين التي تحكم حياة المجتمع (النشأة – التقدم – الانحلال) انما قد وصل اليها من استقراء الاحداث ولم يكن فيها ناقلا ولا متلمسا لأي فكر أو حضارة سابقة . ذلك انه كان يقدر بوضوح ان لكل حضارة مقاييسها ولكل فكر منهجه المستمد من وقائعه ومقوماته .

ويمكن القول أن ابن خلدون قد وضع في تقدير نهضة المجتمعات والامم اسساً واضحة تتعلق بالعرب والمسلمين اساساً :

أولاً : اهمية الدين بالنسبة للعرب ونهضتهم وان أي نهضة لا بد ان تقوم على أساس ديني .

ثانياً : ربط بين الدين والدولة على مفهوم الاسلام نفسه .

ثالثاً : ارتبط بمفاهيم الاسلام في عوامل القوة والضعف للامم .

رابعاً : أقر التطور سنة للمجتمعات على نحو اسلامي وليس على اطلاق التطور كما هو في المفهوم الغربي .

خامساً : اكد مفهوم المعرفة الاسلامي الجامــــع بين العقل والقلب ، وبين العلم والدين ، وبين المعقول والمنقول ومعنى هذا كله ان ابن خلدون لم يكن مــادي الفكر أو مقرراً للنظريات الاقتصادية والاجتماعية على النحو الذي عرفه (ماركس) في التفسير المادي للتاريخ أو النظرية المادية في تجزئة المجتمع والدين

أو الفصل بـين الدين والدولة . ولا شك أن محاولة المفكرين الغربيين لوضفه على هذا النحو انما هي خطأ في التصور وخطأ في التقدير فان ابن خلدون كان ينبعث في كل سطر من سطور مقدمته من منطلق القرآن والاسلام ومفاهيم الفكر الاسلامي الصريحة الايجابية التي قررها ابن حزم والغزالي وابن تيمية من قبل .وان مفهومه الاقتصادي والسياسي والاجتماعي كان متصلا اتصالاً كاملا بمفهوم الاسلام في تكامله ووسطيته وحركته .

- ٥ -

حاطت نظرة المفكرين الغربيين إلى ابن خلدون بعض الالتباسات التي ترجع إلى الخطأ في التفسير أو الخطأ في فهم منطلق الفكر الاسلامي نفسه فظن الكثيرون أن هذه النظرة التي أطلقها ابن خلدون في فهم التاريخ وعلم الاجتماع والتي تتلخص في أن للكون نواميس وسنناً وقوانين ترجع إليها الأحداث والوقائع وتقوم بها الدول وتنتهي ، ظن هؤلاء جميعاً أن ابن خلدون قد اهتدى إلى هذه الآراء نتيجة علمه أو نتيجة قراءاته لليونان ومن الانصاف للحقيقة أن نقول ان هذه الآراء تنطلق في الحقيقة من القرآن نفسه ، وانه ليس لهذه الآراء منطلق سابق له ، وان ذكاء ابن خلدون ومطالعاته للسنة والتفسير هي التي أهدت إليه هذا المفهوم ، وان ابن خلدون قد ساير هذه المفاهيم من خلال إطار الاسلام ولم يخرج عنه ، وانه هو الذي أهداه بدوره الى الفكر العربي والبشري جميعاً .

وقد صدق المفكرون الغربيون حين أعلنوا ان ابن خلدون قدم الى الفكر البشري منهجي علم التاريخ وعلم الاجتماع ، وأنه

سبق ميكيافيلي وفيكو ومونتسيكو وآدم سميث واوجست كونت .

يقول الاستاذ محمد عبدالله عنان [كان المعتقد ان البحث الغربي أول من اهتدى الى فلسفة التاريخ ومبادىء الاجتماع وأصول الاقتصاد السياسي فاذا بابن خلدون يسبقه بعصور ويغزو في مقدمته هذه الميادين ويعرض كثيراً من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة وكانت الناحية التاريخية الفلسفية من تفكير ابن خلدون أول ما عني النقد الغربي بدرسه ولكن الناحية الاجتماعية ما لبثت ان لفتت أنظار طائفة من علماء الاجتماع وأخذت تتفوق على ما عداها من نواحي تفكيره] . وقد اعتبره فوق كريمر مؤرخاً للحضارة الاسلامية ، لأنه أول من خصص فصولاً اضافية للتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم والخطط العامة والنظم الاقتصادية . ولقد وصفه جميلوفتش بأنه من علماء الاجتماع وقال انه اهتدى إلى نظرية الاجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل أن يعرضها (اوتوكار لورنتس) في أواخر القرن التاسع عشر وأنه يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعي حين يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعية وكيف أن هذه الجماعات نفسها إنما هي ثمرة الوسط.

وأقر العلماء بأن ابن خلدون عرف قانون التشبه بالوسط قبل أن يعرفه (دارون) بخمسة قرون وعرف مبدأ وحدة المادة قبل أن يعرفه (هيكل) ، وأنه سبق (ميكافيلي) في إسداء

النصح الى مؤسسي الدول لكي يؤيدوا سلطانهم بالنظم الحربية . وأنه قرر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنية كما يقررها أساتذة القانون السياسي والقانون الكنسي . وأنه قبل (اوجست كونت) وقبل فيكو الذي أراد الايطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوربي، جاء مسلم تقي فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن آتياً في هذا الموضوع بآراء عميقة وما كتبه هو ما نسميه اليوم : علم الاجتماع، وقال كلوزيتوه « انه استطاع في العصور الوسطى أن يكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيدران وماركس وباكونين : « كان ابن خلدون اقتصادياً مبتكراً يعرف مبادىء الاقتصاد السياسي ويطبقها بذكاء وبراعة قبل أن يعرفها البحث الغربي بعصور طويلة » .

وذكر عالم آخر « ان الفضل في إنشاء علم الاجتماع لا يرجع إلى (فيكو) كما يزعم الايطاليون ولا الى كتليه كما يدعي البلجيكيون ولا الى اوجست كونت كما يقول الفرنسيون ، وإنما يرجع إلى فيلسوف عربي وعالم قد ظهر قبل هؤلاء جميعاً بخمسة قرون وأقام علم الاجتماع على دعائم وركائز سليمة وسار على طريق مستقيم [1] .

---

(١) رجعنا في هذه النصوص الى كتاب الاستاذ محمد عبدالله عنان « ابن خلدون » .

وقال ناثانيـل سميث : ان ابن خلدون هو الذي اكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعته وان أحداً غـير ابن خلدون لم يقل بأن التاريخ علم خاص ، موضوعـه بحث جميع الظواهر الاجتماعية ، وقـال روبرت فلنت : إن حـق ابن خلدون في ادعاء شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ وفلسفة التاريخ أثبت وأقوى من حق كل كاتب ظهر قبل فيكو .

وقال استفانو ـ كولوزيو ، ان ابن خلدون سبق ميكافيـلي ومونتسيكو وفيكو في وضع أصول علم جديـد ، هو الدرس النقدي للتاريخ ، وانه أول كاتب في العالم عالج موضوع فلسفة التاريخ وأنه اكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية قبل كونسيدران وماركس وباكونين .

وقال استفانو كولوزيو الايطالي: ان مبدأ الحتمية الاجتماعية مما يعود الفخر في تقريره الى ابن خلدون قبل رجال الفلسفـة الاثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة، ان المؤرخ العظيم اكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيدران وماركس وباكونين بخمسة قرون وأن ما يعزوه من شأن كبير الى دور العمل والاجرة والملكية تجعله إمامـا لاقتصاديي هذا العصر .

وقال (فارد) من كبار علماء الاجتماع الأمريكيين :

« كانوا يظنون أن أول من قال بمبدأ الحتمية في الحيـاة

الاجتماعية هو مونتسيكو أو فيكو في حين أن ابن خلدون قال بذلك وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل القرن الرابع عشر .

وقال توينبي : ان ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وأنشأ فلسفة للتاريخ وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أي عقل بشري في أي زمان ومكان وقال : انه في الميدان الذي اختاره لنشاطه العقلي ليبدو أنه لم يستوح أحداً من أسلافه .

ويقول سارتون في كتابه (مدخل لتاريخ العلم) : انه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل في تفكيره الى اصطناع ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخي .

وذكر الباحثون أن سبنسر أخذ عنه رأيه في أن التعاون على المعاش والدفاع هو أول أسباب الاجتماع الانساني ودعائمه . وكذلك رأيه في أن العصبية دعامة أخرى من دعائم الاجتماع الانساني ورأيه في أن البداوة أقرب الى الخير من الحضارة ورأيه في ان آفة الملك الترف . وقد ذكره سبنسر في مواضع كثيرة من كتابه علم السيولوجيا وعلم العمران .



ونحن نرد أقوال هؤلاء العلماء الأعلام في نسبة [الاصول]

التي اعتمد عليها ابن خلدون إلى القرآن ، وان ذكاءه وعبقريته هي التي أعطته تلك القدرة البارعة في صياغتها ولكن ليس الى الحد الذي يقال انه هو الذي ابتدعها ، ومعنى هذا أن أصول علوم الاقتصاد والتاريخ والسياسة والاجتماع الحديثة جميعها والتي يعتبر « ابن خلدون » أساساً لها انما تعتبر في مصادرها الاولى مستمدة من القرآن ومفاهيم الاسلام .

ومن الحق القول بأن الكاتبين عن ابن خلدون هم صنفان :

الاول : أولئك الذين يقدرونه ويشيدون به وبينهم كثيرون يحاولون ان يصفوه بأنه علماني أو لا ديني او انه قال بالجبرية او وضع أسس الماركسية في الاقتصاد او التفسير المادي للتاريخ وقول هؤلاء مردود.

فمثلا يقول دى بور : انه كثيراً ما يعارض مبادىء الفلسفة العقلية بمبادىء الاسلام البسيطة او قول سميث : انه كان يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن ليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأن بحثه متفق مع نصوص القرآن . أو قول البعض : (انه لو حذف ما تخلل المقدمة من جمل تدل على التخلق الديني لما تعطل المعنى العلمي) وهي عبارات تجمع طابع التشكيك في أن مصدر فكر ابن خلدون هو الاسلام نفسه ، او كأن ابن خلدون قد خرج على منطق القرآن في مفاهيمه ثم حاول ان يخدع الناس عن ذلك بايراد بعض أي القرآن . ذلك أن منطلق ابن خلدون أساساً هو

القرآن منه استمد والفضل له أساساً في إعطائــه قانون نواميس الكون وقوانين المجتمعات وهي واضحـــة في القرآن وضوحاً لا شبهة فيه، وأن مفهوم ابن خلدون للتطور وللجبرية وللكسب ومفاهيمه الاقتصادية كلها اسلامية أساساً ولا تخرج عن مفهوم القرآن ، كذلك يختلف ابن خلدون عن مونتسكيو الذي أعلن حقده على الأجناس الملونة ، ويختلف عن ميكافيلي الذي فصل السياسة عن الأخلاق .

وابن خلدون لا يقر بالفصل بين الروح والمادة او العقـــل والقلب او بين الدنيــا والآخرة ، على النحو الذي يقرره الفكر الغربي ويمكن القول ان هؤلاء جميعــاً : ميكافيلي ومونتسكيو وآدم سميث ، واوجست كونت وفيكو ، قد أخـــذوا من ابن خلدون أصول فكره ثم « غربوها » إذا صح هــذا التعبير ، أو صهروها في إطار الفكر الغربي القائم على مفاهيم الفلسفــة اليونانية والقانون الرومــاني والدين المسيحي ، ومن هنا كانت محاولتهم لتصوير « ابن خلدون » وكأنه منحاز لهم ، أو خطأهم في فهمه على أساس منطلقه الاسلامي الجامع بين الوسطية والتكامل في جوانب الاجتماع والسياسة والاخلاق .

ومن الخطأ القول بأنه (اذا رفع ما يتعلق بالخالق الديني في المقدمة فان المعنى العلمي لا يتعطل) ذلك لأن التركيب الفكري الاسلامي انما يجعل الخلق والدين أسساً طبيعيــة لا تنفصل عن السياسة او الاجتماع او الاقتصاد ، وان نظريات ابن خلدون انما

تقوم أساساً على هذا التكامل فاذا فصل منها جانب انهارت ، وهي بذلك تختلف عن النظريات الغربية ، ولست أدري لماذا يراد ان يكون ابن خلدون مادياً او عقلانياً خالصاً . ولماذا يراد اخراجه من الفكر الاسلامي ومن مفاهيم القرآن ، الذي يربط بين الدين والمجتمع ، وبين الاخلاق والسياسة ، ان هذه المحاولة في تصوير ابن خلدون بأنه من أصحاب المنهجية الوضعية ، اخراج لابن خلدون من حقيقته ومن فكره ومن عصره أيضاً ، وليس في وصف ابن خلدون بشدة الحرص على مراعاة تعاليم الدين هو اتهام له ، ولا فيه ما يغض من قدره ، إلا إذا اعتبر ابن خلدون مفكراً أوربياً وهو ليس كذلك ، ولكنه هو مفكر مسلم أصلا يصدر من مقومات فكره ، وعلى المفكرين الغربيين ان يأخذوا منه مـــا شاؤوا او يرفضوا ، ولكن عليهم ألا يحاسبوه على مفاهيم فكرهم .

ومن العبارات الغربية ما يقوله : « برانشفيك » من ان ابن خلدون [فتح باب حريـــة الفكر وتخلص من الجبروت الديني] ومن الحق ان يقال لبرانشفيك انه ليس في الاسلام ما يمكن ان يوصف بالجبروت الديني وليس للاسلام ذلك(الجبروت) الذي وصفوا به المسيحية الغربية ، وليس فتح باب حركة الفكر الديني الذي عمد اليه ابن خلدون خروجـاً على الاسلام بل هو دخول اليه ، ذلك ان حرية الفكر هي أساس ودعامـــة من دعامات الاسلام وان خروج المسلمين عليها خلال العصور ، وفي

عصر ابن خلدون بالذات انما هو الانحراف الذي حاربه ابن خلدون حين هاجم التقليد والجمود والجبرية ، وان دعوته هذه متفقة مع الاسلام أساساً ومنطلقة منه وانه بذلك قد حسب في عداد المجتهدين ودعاة تصحيح المفاهيم ، فهو منطلق بكل آرائه ودعوته من منطلق الاسلام الصحيح اما الجبروت الديني الذي أشار اليه برانشفيك فانه يتمثل في ذلك الصراع بين الكنيسة والحضارة ، او بين المسيحية الغربية والنهضة مما كان له آثاره الدموية المعروفة ، وذلك ليس موجوداً في الاسلام ولا في التاريخ الاسلامي .

ومن العجب ان لا يفهم أمثال هؤلاء الباحثين (تكامل الفكر الاسلامي) وشموله ، حيث يوجد ترابط لا سبيل الى فصمه بين عنصر الدين وعنصر العقل، هذان العنصران الممتزجان الملتقيان المتوازنان في الاسلام كانا قائمين في تفكير ابن خلدون ونظريته ، وانه في دعوته الى اعمال العقل والتجربة لم ينكر الوحي او المنقول ولكنه اعترف به كاملاً ، ولم يعط للعقل تلك السلطة المطلقة التي يراها له الغربيون ، ولكنه اعترف بتكامل نظرية المعرفة الاسلامية . عقلاً ونقلاً ، وديناً وعلماً ، وروحاً ومادة .

وليست نظرية ابن خلدون مادية أصلاً ، وليست مستمدة من فكر اليونان او أي فكر آخر وليس صادقاً ما ذكره (بتاي) من أن ابن خلدون أول من نادى بوجوب تحرير العقل

من عبوديـــة الدين ، ذلك ان دين ابن خلدون هو الذي حرر العقل وهو الذي دعا ابن خلدون الى محاربة الأباطيل والخرافات والجمود والتقليدية فهو صادر أصلاً من منطلق دينـــه الاسلام وان مثل هؤلاء الكتاب إنما يقيسون مفاهيمهـــم الى الفكر المسيحي الغربي على الاسلام فيخطئون أشنع الخطأ .

(الثاني) : اولئك الذين ينكرون فضله أساساً ويتهمونـه بالنقص والقصور والنقل عمن سبقه من اليونان وفي مقدمة هؤلاء في العـالم العربي طه حسين ولويس عوض ومن عجب ان يلقى ابن خلدون الانتقاص والظلم من أهله بينما يمجـده الاوربيون ، ويكرمونـــه ، وأن يحط هؤلاء من قدره بعد ان اعترف له الاوربيون بالفضل والأثر الكبير ، وهذا يعني تبعيـــة خصوم ابن خلدون العرب الى معسكرات التغريب والشعوبية بلا ريب في ذلك ولا شك .

وقد كشفت الايام عـن مدى تورط طه حسين في الاخطاء التي ساقها في اطروحة الدكتوراه إزاء هذا الفيض الضخم من الدراسات التي احتفلت بابن خلدون وكشفت عـــن جهوده وآثاره .

ومن هذه الاتهامات ما يصفه بأنه بربري وأنه هاجم العرب، وما يقال عـن أن له صلة بفكر أرسطو وأفلاطون والقديس أوغسطين وغيرهم ، وأنه قد استقى علمه هذا من قراءاته باللغة اللاتينية أو غيرها .

وقد كشفت الوثائق عن أن ابن خلدون عربي الاصل وأن ما أورده عن العرب انما كان يقصد به (الاعراب) ومن الحق أن يقال ان ما كتبه القديس اوغسطين انما كان متأثراً فيـــه بالفكر الاسلامي أساساً فاذا نسب اليـه انه قرأه ، فان ذلك لا يغض من قدره ولا يؤثر في منهجه الاسلامي الجذور ، ولقد أخذ الفلاسفة المسلمون من الفكر اليوناني مـا أخذوا ولكنهم لم يقبلوا إلا مـــا يتفق مع أصول الفكر الاسلامي وان هناك رابطة لا ريب فيهـــا بين أصول الفكر اليهودي والمسيحي والاسلامي هي انه مصدر الاديان الثلاثة هو الله وانها جاءت من نبع واحد وأصول واحدة فلا شبهة في التقائها على مفاهيم عامة أو انسانية ، أما نظرية الدورات التاريخيـــة فمهما يقل عن مصدرها فانها موجودة أساساً في القرآن فقد أخذها من تطور الافراد (ولادة وقوة وضعفاً) وطبقها على الدول .

وكذلك ما أورده من أن عامـل بناء الدولة هو العصبية او ما يسمى اليوم بالقومية ، وان الانحلال مرده الى عاملين :

هما الترف والطغيان : ويسمي الطغيان (القهر) وهـــاتان النظريتان قرآنيتان أصلاً .

وقد استقى ابن خلدون نظرية الربط بين الدين والدولة من القرآن . وقرر أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية . وان الدعوة الدينيـة من غير العصبية لا تتم ، كما قرر ان الدين يدعم الدولة ولكنه لم ينكر القومية .

ولقد عارض ابن خلدون كثيراً من نظرات الفكر الغربي في مقدمتها نظرية الحق الالهي وحق الملوك ، فقد عارض هذه النظرية وأنكرها وأعلن أنها لا توجد في الفكر الاسلامي او التاريخ الاسلامي وأحل محلها نظرية الحق او القانون الطبيعي ، لا شك ان هذا الخلاف الواضح بين فكر ابن خلدون المستمد من الاسلام والقرآن وبين الفكر الاوربي يدحض ما حاول الكثيرون انه ينسبوه الى ابن خلدون من مفاهيم في الاقتصاد او الاجتماع او السياسة او التاريخ إنما استمده من القرآن او صهره في بوتقة الاسلام ، وحوله فكراً اسلامياً أصيلاً وكان فيه ملتزماً بمفهوم الاسلام المتكامل الجامع بين الروح والمادة، والدين والعلم، وبين العقل والنقل وانه رفض كل ما يتعارض معه .

وهذا مجمل نظريته الاجتماعية كما رتبها : احمد السكندري :

١) ان الاجتماع البشري لا يخلو من بداوة وحضارة.

٢) ان البداوة والاحشيشان أصل لكل حضارة .

٣) ان البداوة تستلزم بالطبع العصبية .

٤) ان العصبية تستلزم الاستقلال وفقدانها يسبب الاضمحلال .

٥) ان البداوة تستلزم الخشونة والنشاط وهما يستلزمان الغلب والاستيلاء على أهل الحضر والاندماج فيه .

٦) ان نشوء الحضارة واضمحلالها لا يكون طفرة بل يقتضي انقضاء نصف قرن او اربعين سنة على أقل تقدير حتى يكون تأثير كل قد شمل النشء والشبان والكهول .

٧) ان تأسيس الدول او غلبة أمة على أمة لا يكون إلا بدافع ديني او سياسي .

٨) ان غلبة أمة على أمة لا يكون إلا بدافع نتيجة ضعف المغلوبة ضعفاً لا مقاومة فيه بعصبية او قوى أخرى معنوية .

٩) ان التغلب على الأمم القوية بالعصبية او كثرة العدد يكون بالمطاولة لا بالمناجزة .

١٠) ان المغلوب مولع أبداً بالاقتــداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وعاداته .

١١) ان الامة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها (من كل وجه) أسرع اليها الفناء .

١٢) ان الأوطان الكثيرة والقبائل والعصائب قل ان تحكم فيها دولة .

١٣) ان الحضارة في الامصار تدوم وترسخ برسوخ الدول وطول عمرها .

- ٦ -

ولد ابن خلدون ٧٣٢ هـ ١٣٣٢م في تونس، في اعقـــاب الحروب الصليبية وحروب التتار وحروب الفرنجة في الاندلس وفي مراحل ضعف دولتي المرابطين والموحدين وفي اوائل ظهور الدولة العثمانية وقبل ان يستفحل شأنها.

وكتب مقدمته تقريباً بـــين اعوام (٧٧٦ — ٧٨٠)هـ من خلال خبرته وتجربته في الاندلس والمغرب وقبل ان يبدأ رحلته إلى المشرق التي بدأها ٧٨٢ هـ فزار فيها الحجاز وبيت المقدس ودمشق واقام في القاهرة حـــتى توفي عام ٨٠٨ ولقـد كتب المقدمة وهو في نحو الخامسة والأربعين من عمره وهو سن النضج وتكامل الذهن.

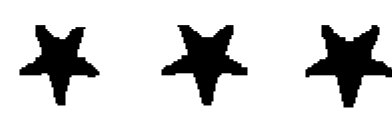
وتمثل المقدمة بالحق عصارة خبرته وثقافته، وقـد كشفت عن تحصيل عميق فقـــد درس فيها فنوناً من الفلاحة والبـناء والتجارة والتوليد والطب والخـــط والكتابة والوراقة وعلوم القراءات ورسم المصحف والتفسير والحديث والفقه والفرائض

واصول الفقـه والجدل والخلافيات والتوحيد والتصوف والعلوم اللغوية والرياضية والطبيعية والمنطق والفلسفة والالهيات .

وتكشف بوضوح عن ان ابن خلدون لا يقل عن الغزالي أو ابن حزم استيعابا لثقافات عصره ودراسة كل ما سبقه من تراث الفكر الاسلامي واستخلاص عصارته وكان هذا الميراث الضخم واضحاً امامه وهو يعالج أزمة عصره وأزمة المجتمع الاسلامي، وكان بالاضافة إلى خبرة من سبقوه كانت أمامه تجربة الاندلس مع حروب الفرنجة وتجربة الاندلس مع المغرب ومع الدولتـين البربريتين الناهضتين : المرابطين والموحدين ثم الدولة المرينية ، وكانت أمامه عبرة الحروب الصليبية في المشرق، وتجربة البلاط الاسلامـي والصراع بين الامراء في المغرب ، وكانت له من بعد مشاركته في تجربة اخرى هي لقاء تيمورلنك عـام ٨٠٠ في دمشق ، هذه الاحداث العاصفة مع تجربـة التاريخ هي التي اعطته ذلك الطابع المتحرر القوي الجريء الذي عرف به وهو يعالج معضلات المجتمع الاسلامي من الزاوية الـتي تخصص فيها وهي زاوية التاريخ ، ولا صحة لما حاول ان يدسه بعض كتاب الغرب من كراهيته للزعامة التركية النامية ، لانه وهو المسلم إنما يؤمن بكل قوة ناهضة، سواء أكانت عربية ام تركية ام بربرية، بل لعلـه أراد بكل ما كتب ان يوجه انظار القوة الاسلامية التركية النامية ولم يقف ابن خلدون موقف التعصب ضد العرب أو مع البربر ولكنه وقف مع الاسلام نفسه حـين وضع قاعدته

الثابتة ان العرب لا تقوم لهم نهضة الا من خلال الزعامة الاسلامية الدينية ، ومـدى اهمية الدين بالنسبة للعرب ونهضتهم ، ومدى اهمية الاخلاق بالنسبة للممارسة السياسية ، وكيف ان الاستبداد والترف همـا مصدر سقوط الدولة وانهيار النهضة . واذا عرف عن ابن خلدون في كتاباته طابع التشاؤم فليس هو تشاؤم اليأس، أو الاستسلام أو عدم الاكتراث بل انه تشاؤم الآمل في تفتـح افاق اليقظة والتطلع الى النهوض من جديد .

وليس صحيحاً ما اخذ على ابن خلدون من انه قصد العرب بعباراته فقد كان معروفاً في عصره انها كانت تستعمل غـير استعمالنا لها في عصرنا ، وكانت تعني اهـل البادية أو الاعراب الذين يشتغلون خارج المدن ، وقـد عرض الدكتور عبد الواحد وافي وساطع الحصري من الادلة ما يؤكد ان عباراته انما كانت تعـني الاعراب او انه اراد بذلك تزلفاً لاصحاب السلطان عند اهل المغرب من البربر وقـال الدكتور وافي : اننا لم نجـد في استقراء كلام ابن خلدون واحواله ما يـدل على تعمـده هـذا الغموض لغرض ما ، وان كلمـة العرب بالمعنـى الذي اراده أي البدو هو احد المعاني اللغوية القديمة للـكلمة .



وقد نسب مؤرخو الادب الى مقدمـة ابن خلدون أثراً ضخماً في مجال الادب واسلوب الكتابة العربية ، واشاروا الى

ما يدين به ابن خلدون اسلوبنا المعاصر بأهم مقوماته ومناهجه، وأبرز هـــذه الاثار عزوفـــه عن اسلوب السجع والازدواج ومحسنات البديع :

وله في ذلك تعبيره الدقيق : حـــين عارض اسلوب التقليد الذي « ما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وتصورهم لذلك من اعطاء الكلام حقه من مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكـلام المرسل لبعد أمـــده في البلاغة وانفساح خطوته وولعوا بهـــذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود » وله عرضه البالغ الايجابيـة للتربية وله في ذلك اراء عميقة المدلول حتى ليمكن القول ان اصول التربيـــة الحديثة مستقاة منها ومن اراء الغزالي وابن سينا والقابسي .

(١) انما يكون التعلـيم مفيداً اذا كان على التدريج مراعى فيه استعداد الطالب بأن يقرأ له الفن ثلاثـاً، يلقـــى عليه في الاولى اصول المسائـل وتشرح بالاجمـــال ، ويخرج بالثانية الى التفصيل ، وذكر الخلاف ووجوهـــه ويستقصى في الثالثة كل عويص ويوضح كل مقفل .

(٢) من اهم ما يلزم في المعلم فقـه اللسان بالمحاورة والمناظرة والعمل على تحصيل الملكـة التي هي صناعة التعليم ، والاهم من ذلك دراســة نفسية الطفل والـــنزول الى مستواه والاتصال العاطفي به .

(٣) ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً ، يلقي عليه اولا مسائل من كل باب في الفن هي اصول ذلك الباب ويقرب له شرحاً على سبيل الاجمال ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وتحصيل مسائله ، ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى ان ينتهي الى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شد فلا يترك هويصاً ولا مبهما ولا مغلقاً الا اوضحه وفتح له مغلقه فتخلص من الفن وقد استولى على ملكته .

(٤) ان ارهاف الحد في التعليم مضر بالتعليم سيما في اصاغر الولد لانه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الايدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة،لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالاً على غيره في ذلك وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانتقضت عن غايتها ومدى انسانيتها، وهذا وقع لكل امة جعلت في قبضة القهر ونال منها العسف .

ولابن خلدون اراؤه الجديدة المبدعة في مختلف فروع الفكر

الاسلامي، وقد احصى له الدكتور عبد الواحد وافي (وهو احد الدارسين للمقدمة دراسة تفصيلية) ان له بحوثاً في اللغة، والفقه، والمنطق والفلسفة، والعلوم الطبيعية، والنصوص، والتوحيد والكلام .

كما سجل له ثمانية اضافات هامة :

(١) انه المنشيء الاول لعلم الاجتماع .

(٢) انه امام ومجدد في علم التاريخ .

(٣) انه امام ومجدد في فن الانتيوبيوجرافيا .

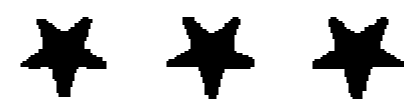
(٤) انه جدد في بحوث التربية والتعليم وعلم النفس التربوي والتعليمي.

(٥) انه راسخ القدم في علوم الحديث .

(٦) انه راسخ القدم في الفقه المالكي .

(٧) انه امام ومجدد في اسلوب الكتابة العربية .

(٨) انه لم يغادر الى فرع من فروع المعرفة الا الم به .



وبالجملة فان ابن خلدون قد قدم لنا «منهجا» متكاملا لبناء فكر اسلامي جديد ومجتمع اسلامي جديد في ايدلوجيا متكاملة وفق تكامل الاسلام نفسه .

وانه كان في نظرته ابن الاسلام والفكر الاسلامـــي وابن القرآن أساساً، وان عجز دارسوه الاجانب والعرب المثقفون بالثقافة الغربية وحدها عن فهمه لعجزهم عن فهم الاسلام نفسه.

ويمكن تقرير الحقائق التالية في هذا الصدد .

اولا ـ لم يصدق ايف لاكوست حين قال: إنه كان ماركسياً قبل ظهور ماركس ، وانه ينظر في الاقتصـــاد نظرة مادية تاريخية ، ذلك ان هذا المنطلق في مفهوم ابن خلدون وهو منطلق القرآن نفسه (اعلم انــه اذا فقدت الاعمـــال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب) ومن العجب ان يطبق على ابن خلدون مفهـــوم نظرية ظهرت بعده ، وتأثرت به ، والبحث العلمي لا يقر هذا ، وانما يقر ان يراجع ابن خلدون على ما سبقه من مفاهيم ، هذه المفاهيم التي ليست في الحقيقة الا القرآن والاسلام . ومنطلق ابن خلدون في مراعـاة (تعاليم الدين) كما يقول الباحثون الاجانب في شؤون الاقتصاد والسياسة هو منطلق طبيعي وحتمي .

ثانياً ـ غير صحيح ان ابن خلدون تخلص من مفاهيم الدين والنقل ، ولكنه تخلص من الاضافات غير الاسلامية الجوهر ، ومن التقليد والجمود ، وساير بذلك مفاهيم الاسلام وخطوات المصلحين والمجددين ومصححي المفاهيم .

ثالثاً ـ لم يصدق (برانشفيك) حين قال (ان المقدمة) صيحة

لاعلان انهدام صرح المعرفة وصرح التاريخ كما فهمه السلف) ولكنها في الحق إضافـــة جديدة مصدرها الفكر الاسلامي نفسه ، وهي التماس مفاهيمه وجوهره واصوله ، وهـــي هدم للدخيل على الفكر الاسلامـــي مما ليس من معدنه او اصلـه من فلسفات الوثنية اليونانية او الباطنية الفارسية او الفلسفة الهندية فاذا كان يقصد بهذا ما عبر عنه بمفهوم السلف فهو صحيح ، اما مفهومه للسلف الحقيقي فهو القرآن والسنة وهذا ما استمد منه ابن خلدون ولم يهدمه .

رابعاً ـ ليس مفهوم ابن خلدون بالنسبة للدولة او نظـــام الحكم مما يتصل من قريب او بعيد بمفهوم القديس أوغسطين مما اطلق عليه في اوربا [الحق الالهي] او [الحكومة الثيوقراطية] وليس في مفهوم الاسلام على التحقيق حكومة كهذه ولم تَرِدْ مطلقاً على طوال تاريخ الاسلام حكومة قام عليها (رجال الدين) وذلك لان الاسلام اساساً لا يقر هذا التعبير وليس منه رجال دين ولا كهنوت ولا مؤسسه كالكنيسة وانما يقر وجود علمـاء يناصحون الامراء ولكنهم لا يحكمون بانفسهم .
ولقد قضى ابن خلدون على نظرية الحق الالهي التي عرفها الفكر الغربي واقر مفهوم الاسلام فى الترابط بين الدين والدولة وهاجم الفصل بينهما .

خامساً ـ ليست نظرية الدورات الثلاث في الحضارات والدول القائمة على اساس :

(النشأة ـ القوة ـ الضعف) مما يمكن ان يوصف بعبارة (الحتمية التاريخية) وهو تعبير مادي لا يقره منطق ابن خلدون المستمد من القرآن (مادة وروحا) ونظرية الدورات الثلاث نظرية غير مادية اساساً لانها مستمدة من الانسان نفسه ومن منطلق القرآن.

ويمكن القول على الجملة بأن ابن خلدون لم يفصل بين المعرفة الدينية المعتمدة على الوحي والنقل وبين المعرفة العلمية المعتمدة على العقل والتجربة ـ شأنه في ذلك شأن كل مجددي الاسلام ومجتهديه ـ ولكنه ربط بينهما وفق مفهوم نظرية المعرفة الاسلامية المستمدة من القرآن والتي نظمها ابن حزم والغزالي وابن تيمية، وقد مزج ابن خلدون العنصرين المتداخلين المتوازيين من اسس المعرفة الانسانية كما اقرها الاسلام وهما عنصر القلب وعنصر العقل ...

كما انه انتقد الفكر الفلسفي في الالهيات اليونانية الوثنية، مما يختلف مع التوحيد ومفهوم الاسلام اساسا، كما قرر ان الجوهر الالهي لا يمكن ان يدرك بالعقل وحده .

وجملة القول ان ابن خلدون قد استمد مفاهيمه ومنهجه وايديولوجيته اساسا من القرآن والسنة ، وانه اعتمد على اراء الكثير من الباحثين المسلمين الذين سبقوه في الاراء التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي اوردها ومنها الخراج

لابي يوسف والكامل لابن الاثـــير ومروج الذهب للمسعودي ، ويمكن ان يكون قد ركز كثيراً على مؤلفات الماوردي : الاحكام السلطانية وادب الدنيا والدين .

هذا ولا شك ان المفكرين الاوربيين قد انتفعوا كثيراً بآراء ابن خلدون ونموها واضافوا اليها في المجالات المختلفـــة وخاصة ما اعتمد عليه سيبنجلر وتوينبي في نظرية الدورات التاريخية.

توفي ٨٠٨هـ — ١٤٠٦ م

* * *

دراسات غربية عن ابن خلدون

ترجم مقتطفات من المقدمـة المشرق الفرنسي سلفتسر دي ساس ١٨٠٦ .

نشر المشرق النحوي فوق هاما رسالة بالالمانية عرض فيها لنظريات ابن خلدون ووصفـه بأنه مونتسكيو العرب ١٨١٢ .

نشر كاترمير : مقدمة ابن خلدون كاملة سنة ١٩٥٨ .

(نشر دي سلان ترجمة كاملة للمقدمة) .

كتب البارون فوق كريمر بحثـــه عن ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الاسلامية .

كتب الاستاذ ناثال سميث بحثه عن ابن خلدون .

كتب دي بوير الهولندي عن ابن خلدون الفيلسوف ١٩٠١ .

كتب لدفيج جملوفتش عن ابن خلدون الاجتماعي .

كتب مسيو مونييه عن ابن خلدون الاقتصادي والاجتماعي .

المراجع :

ابن خلدون : دكتور عبد الواحد وافي .

ابن خلدون : محمد عبدالله عنان .

احمد رشدي صالح – جريدة الجمهورية ١٩٥٦ .

مقدمة ابن خلدون .

ابن القيم

(٦٩١ – ٧٥١ هـ)

ابن قيم الجوزية شمس الدين

القانوني الضليع

« بالصبر والفقر تنال الامامة في الدين ، ولا بد للسالك من همة تسيره وترقيه وعلم يبصره ويهديه ، الواجب طلب الحق وبذل الجهد في الوصول اليه بحسب الامكان » .

ابن القيم

ابن القيم

- ١ -

« ابن القيم الجوزية » : الامام الذي حارب التقليد ودعا إلى التحرر الفكري وصاغ نظرية المنفعة قبل اوربا بخمسمائة عام ، ارتبط اسمه باسم استاذه « ابن تيمية » ولكنه برز في ذاتية مستقلة وخاض مجالات جديدة لم يخضها (ابن تيمية) واضاف اضافات جديدة ، نعم انه انتصر لابن تيمية وسجن معه وهذب كتبه ونشر علمه ، ولكنه ظل واضح الرأي ، مستقل الفكر ، وكانت أبرز معالم كتاباته انه طويل النفس ، حسن الادارة ، سمح العرض ، يتعمد التوضيح والافاضة ، لم يترك كتاباً شهيراً في عصره لم يضعه على مشرحة النقد ولم يكشف اخطاءه وحقائقه ، له نزعة واضحة إلى التصوف والزهد ، عرف بجرأة القلم وسعة

العلم ، وكان كثير الصلاة والتلاوة ، حسن الخلق ، كثير التودد ، لا يحسد ولا يحقد ، متعبداً يطيل ركوعه وسجوده ، مؤمناً بأنه [بالصبر والفقر تنال الامامة في الدين ولا بد للسالك من همة تسيره وترقيه ، وعلم يبصره ويهديه] . وتلك هي عباراته . وقد رسم منهجه العلمي في كلمات قليلة : [الواجب طلب الحق وبذل الجهد في الوصول اليه بحسب الامكان] . وعنده ان العالم لا يعرف التعصب ، فهو يذمه ويحمل عليه وينظر للرأي الصحيح دون نظر إلى قائله فهو يتبع المنهج الموضوعي في دراسته ولا يتجاوزه إلى أحد حتى ولو كان امامه [ابن حنبل] أو شيخه [ابن تيمية] وكان هو يخالفها بالفعل في بعض الاحيان ويجهر بالرأي الذي يراه صواباً .

فحمل على التقليد والمقلدين وذم اصحاب الرأي الذي لا يسنده دليل ودعا إلى الاجتهاد واستلهام روح الشريعة وفقهها من المصادر الاساسية ، مع الاستهداء بآراء الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وعارض ارباب الحيل والبدع وكشف عوراتهم وهاجم اتجاهاتهم وخطأ آراءهم . وقد وصف ابن القيم بانه رجل قوي الخلق سليم الضمير ، كان اذا صلى الصبح جلس في مكانه يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ويرى انه لا بد للسالك في طريق الحق من همة تسيره وترقيه وعلم يستبصر به ويهديه ، وقد التقى

بابن تيمية عام ٧١٢ هـ في دمشق وصاحبه حتى وفاته ، وحبس معه في القلعة وطيف به على جمل مضروباً بالدرة ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة ابن تيمية عام ٧٢٨ ، ومنذ ذلك الوقت وإلى ان توفى عام ٧٥١ قدم للفكر الاسلامي عصارة ضخمة من العـــلم والرأي الذي اضاف اضافات حقيقة بناءة .

- ٢ -

ابرز نواحي ثقافة ابن القيم وعلمه ، اجتهاداته في مجال الفقه على النحو الذي حقق على يديه اضافات بناءه : [ان الاعتبـــار خاصة في مسائل حرية التعاقد في العقود والافعال بحقائقهـــا ومقاصدها ، دون ظواهر الفاظها وافعالها ، وان القصد روح العقد ومصححه ومبطله فاعتبـــار المقصود في العقود أولى من اعتبار الالفاظ فان الالفاظ مقصودة لغيرها ، ومقاصد العقود هي التي تراد لنفسها ، وقد تظاهرت ادلة الشرع وقواعده على ان المقصودات في العقود معتبرة، انها تؤثر في صحة العقد وفساده، وفي حله وحرمته وان المتعاقدين وان اظهرا خلاف ما اتفقا عليه في الباطن ، فالعبرة لما اضمراه واتفقا عليه وقصداه بالعقد وقد اشهدا الله على ما في قلبيهما فلا ينفعهما ترك التكلم به في حالة العقد وهو مطلوبها ومقصودهما] .

آمن ابن قيم الجوزية بأن الفقه قانون الحياة والحياة في تطور

فعلى الباحث القادر ان يتوخى المعنى الصحيح ، وقد اعتمد على روح الشريعة الاسلامية ، فقال في بعض المسائل أقوالاً عدت جريئة في عصره ، لم يقل بها احد من قبله ، وتوسع في مسائل أخرى توسعاً اعطته اياه مرونة الشريعة وقدرتها على مسايرة التطور والمدنية ، فوصل من ذلك إلى نظريات شبيهة بالنظريات القانونية العصرية [1] . وفي مقدمتها نظرية المنفعة في اعمال الفضولي ومبدأ حرية التعاقد ومبدأ تقدير قيمة الشهادات وعدم تجزئة الاقرار ، وفسخ عقود الديون المضرة ومبدأ تغير الاحكام بتغير الزمان والامكنة والاحوال .

وكشف بذلك عن قدرة الشريعة الاسلامية على مجاراة المدنية في الماضي والحاضر وما يجعلها قادرة على مسايرة كل تطور في المستقبل .

ودعا ابن القيم إلى « الاجتهاد » والتوسع في الرأي المبني على الاجماع والقياس ، وهو ما اطلق عليه (الاستحسان) عند الحنفية والمصالح المرسلة عند المالكية والاستصلاح عند الغزالي والاستصحاب عند الشافعية ، وقد عرض ابن القيم لظاهرة تغير الفتوى واختلافها بتغير الازمنة والامكنة والأحوال والبيئات

---

(١) اعتمدنا في هذا على ما كتبه : دكتور صبحي المحمصاني - مجلة المجمع العلمي ٢٣ وكتابه (فلسفة التشريع الاسلامي) .

والعوائد ، وقال ان الشريعة ومبناها واسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، هي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها .

وكشف ابن القيم عن منزلة السنة من القرآن فقال ان السنة موافقة القرآن من كل وجه ، فهي اما مؤيدة له أو بيانا لما اريد بالقرآن وتفسيراً له ، أو لبيان حكم سكت القرآن عن ايجابه او تحريمه . وقال : لنضرب عن السنة صفحاً إذا عارضت القرآن المتواتر ، ودلت دلالة واضحة على انها لم تثبت عن الرسول ،لان القرآن والسنة خرجا من بين شفتين .

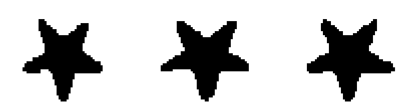
وقال ابن القيم : انه لا سبيل لمعرفة العقيدة والاحكام وكل ما يتصل بها اجمالا وتفصيلا إلا من القرآن والسنة المبينة له ، فما يقرره القرآن وما تشرحه السنة نقبله كما ورد ، ولا نجعل للعقل سلطاناً في تأويله وتفسيره وتخريجه إلا بالقدر الذي تؤديه العبارات ، وكل ما جاء في القرآن من الصفحات التي يخالف ظاهر لفظها المراد فيها كالفوقية والاستواء والنزول والغضب والحب واليد ، وغير ذلك نؤمن به ونفوض حقيقته إلى الله تعالى قال سبحانه (وما يعلم تأويله إلا هو) .

ومنهج ابن القيم في فهم القرآن هو منهج استاذه ابن تيمية : ويقع في ثلاثة عناصر :

(١) تفسير القرآن بالقرآن فيما اجمل في آية وفصل في آية أخرى .

(٢) السنة فان لم يجد في القرآن ما يفسر القرآن اتجه إلى السنة لانها شارحة القرآن .

(٣) اذا لم يكن هناك قرآن ولا سنة يرجع إلى قول الصحابة .



١ — ركز ابن القيم تركيزاً كبيراً على عدة مسائل :

(١) محاربة التقليد والجمود. (٢) منع الحيل في الاحكام .

وقد واجه قضية وجوب الاجتهاد وتحريم التقليد مواجهة علمية فذة ، وبحث هذه المسألة بحثاً مستفيضاً لم يسبقه اليه أحد من فقهاء المذاهب جميعاً وعقد في كتابه (اعلام الموقعين) فصلا مطولاً يبلغ أكثر من سبعين صفحة [1] . وساق احدي وثمانين حجة من المنقول والمعقول ، في تأييد ما ذهب اليه من بطلان التقليد وخلص إلى القول بان التقليد الذي يحرم القول فيه والاقتداء به ثلاثة انواع :

---

(١) اعلام الموقعين (ج) من ص ١٢٨ - ٢٩٧ .

الاول : الاعراض عما انزل الله وعدم الالتفات اليه اكتفاء بتقليد الاباء .

الثاني : تقليد من لا يعلم المقلد انه أهل لان يؤخذ منه .

الثالث : التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد .

ويقول : اما تقليد من بذل جهده في اتباع ما انزل الله وخفي عليه البعض فقلد فيه من هو اعلم فهذا محمود غير مذموم .

دعا ابن القيم إلى التحرر الفكري وعارض الجمود ، وحارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد ، وقد جاءت دعوته رد فعل لتفشي ظاهرةالتعصب المذاهب،بعد أن تحكمت في العقول ،واصبحت مهمة العلماء قاصرة على ترديد فتاوى الائمة السابقين ثم وصلوا في تقليدهم إلى الحد ، الذي جعلهم يعتبرون فتاوى ائمتهم «معياراً» يعرضون عليه الكتاب والسنة . وهكذا بلغت المغالاة فيالتقليد إلى حد ان جعل فتاوى الائمة أعلى قدراً من الكتاب والسنة بينما الواقع والحق يلزمها ان تستمد من الكتاب والسنة وتخضع لهما .

وفي مواجهة هذه الموجة العاصفة من الانحراف عن الكتاب والسنة ، والاسراف في التقليد واجه الموقف بحملة صادقة داعياً إلى تحرير العقول من ربقـــة التقليد ومضى فعرض كل القضايا والافكار التي عرفها عصره على القرآن وعارض منهـــا ما هو مخالف لها وذكر الادلة على بطلان التقليد ثم بين منهج الصحابة في البحث .

وقال ابن القيم : « ان المقلد لا يعد عالماً لان العلم هو المعرفة الحاصلة عن دليل والتقليد لا دليل له فلا يكون علماً والمقلد لا يكون عالماً » وقال « ان التقليد الاعمى باطل في الشريعة وان الاجتهاد واجب على كل عالم قادر عليه ، وقال ان الصحابة ذموا التقليد وكانوا يسمون المقلد « الامعة » وقال ان المقلدين هم اتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح ، وحذر من التقليد الا بعد معرفة الدليل .

٢ — وذم الحيل وقاومها مقاومة صريحة وقال : ان الائمة ذموا الحيل لان فيها الاحتيال على اسقاط فرائض الله واسقاط حقوق المسلمين واستحلال ما حرم الله . ومنع الحيل نهائياً في الاحكام .

ووصف الحيلة بانها ما هدم أصلا شرعياً أو ناقض مصلحة شرعية وقال انها ملغاة ولا يجوز الترخيص بها . وقد ابان ابن القيم هذه الحيل واورد الادلة الدافعة على بطلانها وفرق بين الحيل المباحة والحيل المحرمة .

وعنده ان الحيل في الشرع نوعان :

(اولها) : الحيل الشرعية المباحة في جميع المذاهب وهي التي يقصد بها التحايل على قلب طريقة مشروعة وضعت لامر معين واستعمالها في حالة أخرى ، بقصد التوصل إلى اثبات حق أو دفع مظلمة أو التيسير بسبب الحاجة .

(والنوع الثاني) : هو الحيل التي يقصد بها التحايل على قلب الاحكام الثابتة شرعاً إلى احكام أخرى بفعل صحيح الظاهر لغو في الباطن .

وقال : ان اباحة الحيل نقض لغاية « الشارع » لذلك وجب سد الذرائع أو الوسائل التي تفوت غاية الشارع وهي المصالح المقصودة من الاحكام الشرعية جميعاً .

وقال : ان الحيل ما هي الا تلاعب بالدين لانها تحل الحرام وتسقط الحلال ، ولم تظهر الا بعد الصحابة ، وان فيها مجافاة للعقل السليم وخروجاً على الدين .

وجعله رأيه في منع الحيل في الاحكام تتمثل في عبارته الضافية :

« لما كانت المقاصد لا يتوصل اليها إلا باسباب وطرق تفضي اليها ، كانت طرقها واسبابها تابعة لها معتبرة بها ، فوسائل المحرمات والمعاصي مع كراهيتها والمنع منها بحسب افضائها إلى غاياتها وارتباطاتها بها فوسيلة المقصود تابعة للمقصود وكلاهما مقصود ولكنه مقصود قصد الغايات وهي مقصودة قصد الوسائل . فاذا حرّم الرب تعالى شيئاً وله طرق ووسائل تفضي اليه فانه يحرمها ويمنع منها تحقيقاً لتحريمه ، وتثبيتاً له ، ومنعاً من ان يقرب حماه ، ولو اباح الوسائل والذرائع المفضية اليه لكان ذلك نقضاً للتحريم واغراء للنفوس به ، وحكمه تعالى وعلمه يأبى ذلك كل

الاباء ، بل سياسة ملوك الدنيا تأبى ذلك ، كذلك الاطباء اذا ارادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائـع الموصلة اليه والا فسد عليهم ما يريدون اصلاحه فما الظن بهذه الشريعة الكاملة التي هي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال .

وخلاصة رأي ابن القيم : ان اباحة الحيل تقضي على غاية الشارع ولذا وجب سد الذرائع أو الوسائل التي تفوت غاية الشارع وهي المصالح المقصودة من الاحكام الشرعية جميعاً .

ومن الحيل التي لا تباح عند (ابن القيم) الحيل المستنبطة من الشفعة ويرى ان الشفعة شرعت لدفع الضرر فلو شرع التحيل لابطالها لكان عودا على مقصود الشريعة بالابطال وللحق الضرر الذي قصد إبطاله .

ومن أهم النظريات الفقهية التي أعلنها ابن القيم : نظرية احياء اعمال الفضولي المحسن (وقد شرحها الدكتور صبحي المحمصاني في بحوثه ومؤلفاته) هذه النظرية التي عرفها التشريـع الغربي في العصر الحديث وكان يظن أنها من مبتكراته ، حتى كشف عن نصوصها لدى ابن القيم الذي سبق بهـــا الفكر الغربي بخمسة قرون .

والمعروف ان القواعد الشرعية الاسلامية الاساسية تقول انه لا يجوز لاحد ان يتصرف في مال غيره من دون اذن أو ولاية

ومن تصرف في ذلك خلافاً لهذه القاعدة سمي (فضولياً) وقد اختلفت المذاهب والقوانين في حكم تصرفات الفضولي فمنهم من قال انها باطلة ولو وافق عليها صاحب المال ، ومنهم من قال ان تصرفات الفضولي موقوفة على رضى صاحب المال فان اجازها صحّت ونفذت باعتبار أن الاجازة اللاحقة كالوكالة السابقة وان لم يجزها صاحب المال بطلت وعدت كانها لم تكن ، وقد اخذ بهذه الطريقة في القوانين الغربية كالقانون الانجليزي .

اما (ابن القيم) فانه يحكم بصحة تصرفات الفضولي ولو لم يجزها صاحب المال اذا كانت مفيدة له وجرت بقصد الرجوع اليه ، وهذه النظرية دخلت القانون الفرنسي .

قال ابن القيم : فمن أدى عن غيره واجباً فله ان يرجع عليه ، فاذا أدى أحد عن غيره ديناً بغير اذنه فلا يعد متبرعاً ، بل له حق مطالبة المديون بما أداه عنه ، لانه ليس من الجزاء الصحيح العادل لمن يحسن إلى غيره باداء دينه عنه ان يضيع عليه معروفه واحسانه وان يكون جزاؤه منه باضاعة ماله ومكافأته عليه بالاساءة » .

واستند ابن القيم في ذلك إلى الاية الكريمة في سورة الرحمن [وما جزاء الاحسان الا الاحسان] وأشار ابن القيم إلى ما نص عليه الامام احمد بن حنبل في عدة مواضع من انه أذن

للاجنبي ان يحصد زرع غيره في غيبته ، على ان يرجـــع عليه بالاجرة والنفقة ، ولو ترك الزرع بلا حصاد بسبب مرض المالك أو غيبته لضاع وهلك .

وهذه هي نظرية المحسن الفضولي .

وله نظريات أخرى في مبدأ حرية النفاق ومبــــدأ قيمة الشهادات وعـــــدم تجزئة الاقرار ، وفسخ عقود المديون المضرة ومبدأ تغيير الاحكام بتغيير الازمان والامكنة كما اسلفنا .

- ٣ -

ولد شمس الدين أبو عبدالله محمد بن بكر بن ايوب بن سعد الزراعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية عـام ٦٩١ هـ ، وقد عاش حياة علمية كاملة ، تفرغ فيها للعلم وحرر فيهـا أصول الاسلام ورد على الفرق المعطلة والجهمية والمخالفة ، وجعل حياته كلها موجهة إلى الرد على مختلف الشبهات التي اثيرت حول الاسلام ، وحارب المقاولين والجامدين واصحاب الحيل . ولم يدع نحلة أو مذهباً أو كتاباً في عصره الا وعرض لمنهجه وعرضه على كتاب الله ، مستهدفاً ان يضع امام الناس في عصره اجابات كاملة لكل ما يدور من قضـايا وتساؤلات ، وتحرر للفكر الاسلامي في عصره من الاراء المنحرفة والاهواء .

وكانت غايته ان يحطم الاطر المنحرفة ، جامعـاً عصارة الفكر الاسلامي تحت راية واحدة هي راية القرآن ، والسنة الصحيحة ، موحداً فكر المسلمين نابـذاً للخلافات المذهبية التي

فرقت وحدتهم ، ولذلك فلم يكن عنده بأس من ان ياخذ من المعتزلة والاشاعرة وغيرهم ما يتفق مع كتاب الله فهو يورد أقوال من يعرض لهم عرضاً كاملاً ويسردها ويذكر حججهم ثم يناقشها مناقشة علمية هادئة عميقة ، ثم يرفض منها ما لا يتفق مع العقل والدين والفطرة وقد أوتي قدرة واسعة على البيان وسعة الاطلاع وله قلم سيال قال عنه تقي الدين السبكي « ان ابن القيم رجـــل اعطي فضل كلام » .

وقد دعم ابن القيم متابعاً لابن تيمية عقيـدة السلف محرراً العقائد الاسلامية مما اصابها من اضطراب وما دخـل اليها من شبهات (ومذهب السلف هو الاقرار بالله وملائكته وكتبـه ورسله وكل ما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون من ذلك شيئاً وان الله تعالى واحد أحد فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وان محمداً عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور وان الجنة والنار موجودتان الآن .

ومذهب السلف لا يرى تأويل ما ورد من الصفات ويرى ان لله عينين بلا كيف ويرى ابن القيم : ان التأويل هو أصل الخلاف وان الله سبحانه ورسوله لم يرد « التأويل » بكلامه ولا دل عليه انـــه مراده . ويرى ان الامـــم لم تختلف الا بالتـأويل ، ولم تقـــع فتنة كبيرة ولا صغيرة بين الامم الا بالتأويـــل

ولم ترق دماء المسلمين في الفتنة الا بالتأويل ولم تفترق الامة على ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل ولم يدخل أعـــداء الاسلام من المتفلسفة والقرامطة والباطنية إلا بالتأويل ولم يسفك دم عثمان الا بالتـأويل ويقول (هل سلط الله سيوف التتـــار على دور المسلمين الا من التأويل [١]) .

وقد عرض ابن القيم مختلف الشبهات والف فيها :

● الف كتاب (هداية الحيـــارى من اليهود والنصارى) وكشف عن الانحرافات التي اصيبت بها آراؤهم .

● والف (الصواعق المرسلة في الجهيمـــة والمعطلة) وله نقد المنقول .

وأهم كتبه الفقهية (١) اعلام الموقعين عن رب العالمـــين . (٢) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية والفتــاوى ، وله في مختلف الفنون : (هـــادي الارواح إلى بلاد الافراح ، ونزهة المشتاقين وله زاد المعاد في هدى خير العباد وزاد المسافرين ، ومراحل السائرين والكلم الطيب وتهذيب سنن ابي داود وايضاح مشكلاته (ولا شك ان ابن القيم قد اصدر عن تحـــد خطير في عصره :

يقول الاستاذ عوض الله جاد حجازي ان ابن القيم (واستاذه ابن تيمية) يرى ان تأخر البـــلاد الاسلامية والانحطاط العقلية

---

(١) عن كتاب اعلام الموقعين لابن القيم جـ ٣ ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ راجع ما كتبه الاستاذ عوض الله جاد حجازي في كتابه عن ابن القيم .

العربية في ذلك العصر راجع الى اختــلاف الحاصل منهم ، والتفريق في العقيدة بسبب هذه المذاهب الشائعـة في بلادهم ، والتقليد الاعمى لمذاهب السابقين دون بحث ، وان ما حل بالبلاد الاسلامية من الضعف السياسي والاجتماعي انما كان سببه هـذا الاختلاف لذا نراه يدعو الى الوحدة وجمع الكلمة على مذهب واحد في الاصول والفروع واختيار مــا هو الاحسن من هذه المذاهب المختلفة وما يوافق الكتاب والسنة .

وقد كان (ابن القيم) من الفقهاء القادرين النوابــغ الذين نظروا الى الشريعة الاسلامية نظرة عميقة وتحروا مقاصدهـــا وغاياتها وذلك أبرز مظاهر فكره ، ولكنه كان في صميم نفسه زاهداً متصوفاً، وقد حرر ابن تيمية علوم الصوفية من الانحراف ووضع الموازين القسط لمعارفهم واذواقهم ومعاملاتهم واحوالهم في ضوء القرآن والسنة . ويرى ان التصوف الحــق هو العمل بالكتاب والسنة ، وهاجم الداعين الى ان للشريعة ظاهراً وباطناً ومن اسقطوا التكاليف بدعوى انهم وصلوا الى علم الحقيقة .

وقال ابن القيم : ان التوسل الى الله انمــا يكون بالكلم الطيب والعمل الصالح وان هذا هو المشروع في التوسل ، ونفى مفهوم التوسل الخاطىء وقال ان الله رتب حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشر في الدنيـا والآخرة – في كتابه (آي القرآن) – على الاعمال بترتيب الجزاء على الشرط والمعلول

على العلة والمسبب على السبب وهذا في القرآن على الف موضع.

ويقول : ان القرآن أيدالعقل والحس والفطرة وطبيعةالبشر واعلن ان ليس بين الله وبين عباده حجـاب ، ورفض القول بالاستعانة باهل القبور بمعني طلب الغوث منهم ، وقال ان ذلك لا يدخل في دائرة الاسباب والمسببات بحال .

٧٥١ هـ — ١٣٥٠م

شخصيات الكتاب

الامام مالـــك : صاحب الموطأ
« البخاري : امير المؤمنين في الحديث
« احمد بن حنبل : احياء السنة
« الشافعي : واضع علم اصول الفقه
« ابو حنيفة : الامام الاعظم
« الخليل بن احمد : مكتشف قواعد النحو وسر الموسيقى وعلم العروض
« ابو الحسن الاشعري : ناصر السنة
« البيروني : تأصيل المنهج العلمي
« الحسن بن الهيثم : منشىء علم الضوء الحديث
« الماوردي : فيلسوف السياسة الشرعية

« ابن حزم : عملاق الاندلس

« الغزالي : حجة الاسلام

« ابن تيمية : شيخ الاسلام

« ابن خلدون : منشىء علم الاجتماع

ابن القيم : القانوني الضليع

الفهرست